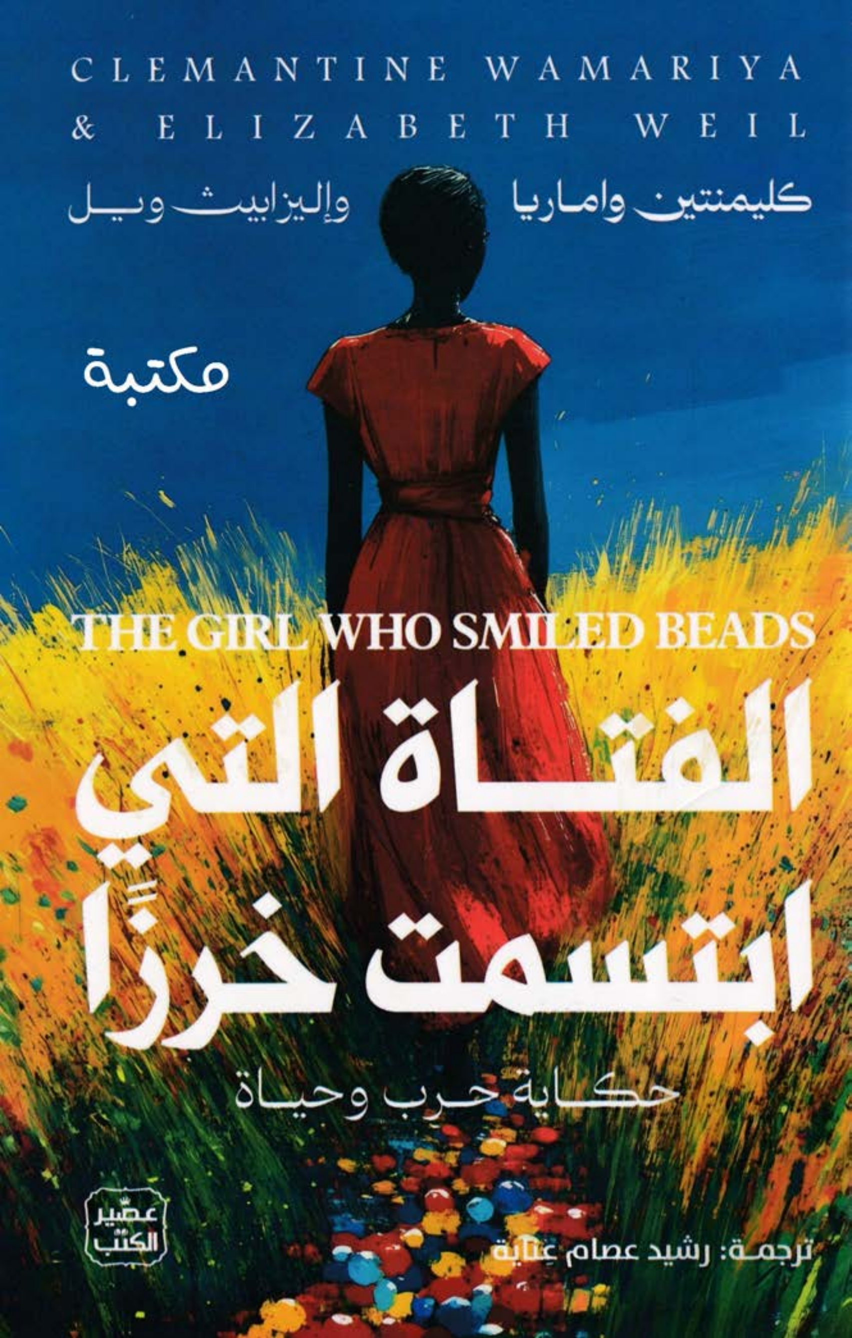

CLEMANTINE WAMARIYA
& ELIZABETH WEIL

كليمنتين واماريا وإليزابيث ويل

مكتبة

THE GIRL WHO SMILED BEADS

الفتاة التي ابتسمت خرزاً

حكاية حرب وحياة

عصير الكتب

ترجمة: رشيد عصام عناية

سجل في مكتبة
اضغط! الصفحة
SCAN QR

الفتـــاة التي ابتسمت خرزًا

عصير الكتب
للنشر و التوزيع

إدارة التوزيع
00201150636428

لمراسلة الدار:
email:P.bookjuice@yahoo.com
Web-site: www.aseeralkotb.com

- العنوان الأصلي:
THE GIRL WHO SMILED BEADS
- العنوان العربي: الفتاة التي ابتسمت خرزًا
- حقوق النشر:
Copyright © 2018 by Clemantine Wamariya
Reader's Guide copyright © 2019 by
Penguin Random House LLC
This edition published by arrangement with
Crown, an imprint of the Crown Publishing
Group, a division of Penguin Random
House LLC
- حقوق الترجمة: محفوظة لدار عصير الكتب

- تأليف: كليمنتين واماريا وإليزابيث ويل
- ترجمة: رشيد عصام عِناية
- تحرير: أحمد حسين
- تدقيق لغوي: سمية حمادة
- تنسيق داخلي: معتز حسنين علي
- الطبعة الأولى: يناير/2025م
- رقم الإيداع: 28020/2024م
- الترقيم الدولي: 978-977-992-469-4

مكتبة
t.me/soramnqraa

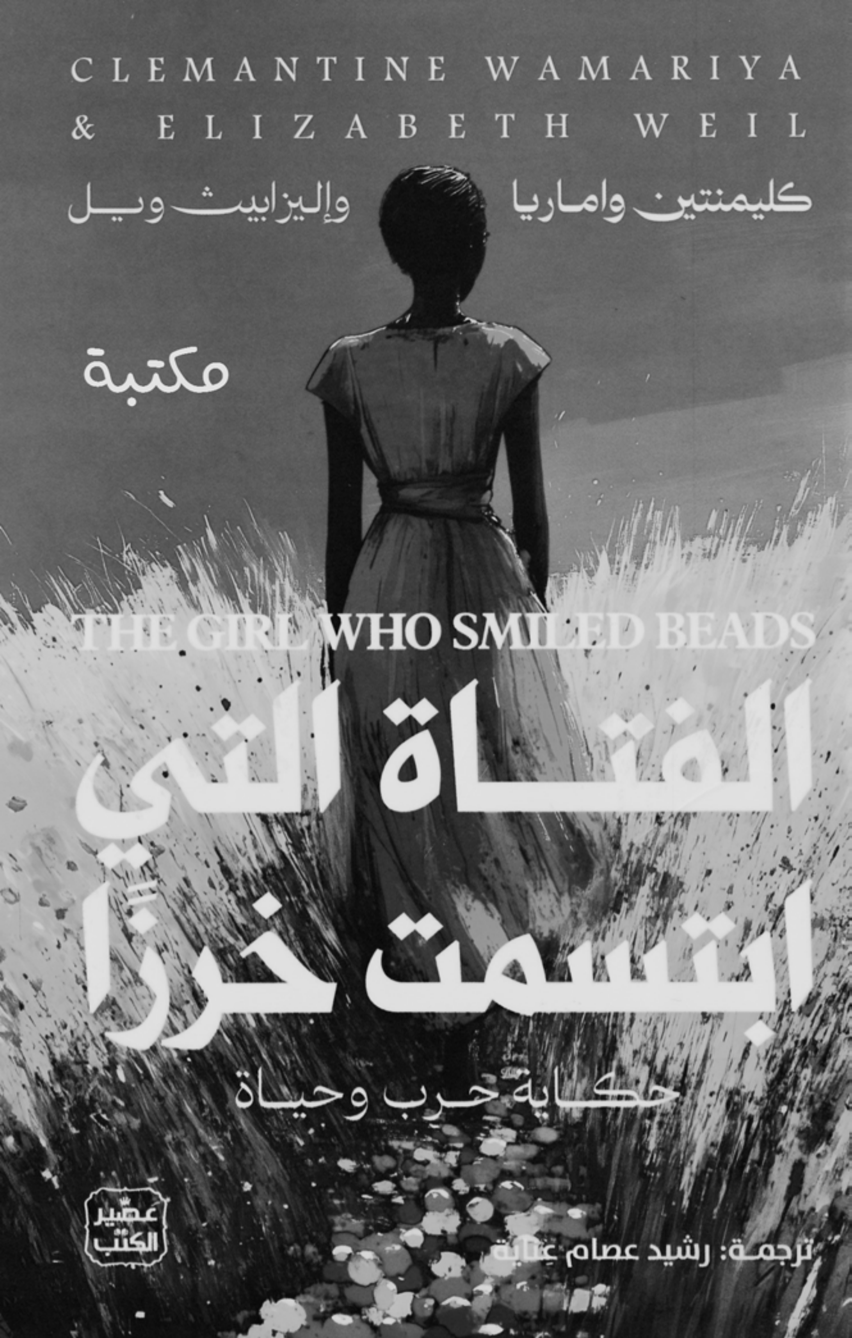
CLEMANTINE WAMARIYA
& ELIZABETH WEIL
كليمنتين واماريا وإليزابيث ويل
مكتبة
THE GIRL WHO SMILED BEADS
الفتاة التي ابتسمت خرزاً
حكاية حرب وحياة
عصير الكتب
ترجمة: رشيد عصام عناية

إهداء

إلى كلير وموكامانا اللتين أرشدتاني إلى كيفية خلق وعَيْش أسطورتي[1] الخاصة.

(1) (Umugani)، وهي في اللغة الرواندية تعني الحكاية الشعبية التي عادةً ما تقدم دروسًا أخلاقية، أو دروسًا حياتية، وتنتقل عبر الأجيال. (المترجم).

ملحوظة من المؤلفين

هذا الكتاب واقعي. مُنِحَت بعض الشخصيات فيه أسماءً مستعارة، في حين أُشيرَ إلى الآخرين بأسمائهم الحقيقية. لقد بذلنا قصارى جهدنا في تحري الدقة، وما هو أهم؛ الحرص على الصدق العاطفي، ولكن الذاكرة مشوبة بالثغرات والأمور الشخصية. العديد من الأحداث المذكورة هنا وقعت قبل عقود لطفل كان يقبع تحت ضغط هائل.

كل حياة إنسانية لها القدر نفسه من الأهمية. لكل شخص قصة فريدة تستحق أن تُروى، وهذه مجرد واحدة منها.

ما الكلمات التي لم تجدها بعد؟ ما الذي تحتاج إلى التعبير عنه؟

- **أودري لورد، أخت الغريب**

2006

مكتبة
t.me/soramnqraa

المقدمة

في الليلة التي سبقت تسجيل حلقة برنامج أوبرا في عام 2006، التقيت أختي كلير في شقتها في مجمَّعٍ سكنيٍّ عام في منطقة إيدجووتر، حيث تعيش مع أطفالها الثلاثة الذين أنجبتهم قبل بلوغها الثانية والعشرين من زوجها السابق، عامل الإغاثة الذي لاحقها في مخيم للاجئين. وصلت سيارة ليموزين سوداء وأقلَّتنا إلى وسط مدينة شيكاجو، إلى فندق أومني، بالقرب من مكان عمل كلير السابق. حاليًّا، لا أستطيع التفكير في تلك اللحظة دون التفكير أيضًا في سذاجتي، لكن حينها، في ذلك الوقت، شعرتُ بالبهجة الشديدة فقط.

كنت في الثامنة عشرة من عمري – طالبة في السنة الثانية في مدرسة نيو ترير الثانوية، وأعيش من الاثنين إلى الجمعة مع عائلة توماس في كينلوورث، وهي ضاحية راقية. كنت أنتمي إلى مجموعة الشبيبة التابعة للكنيسة، وشاركت في سباقات الجري، ولعبت دور فانتين في العرض المدرسي لمسرحية **البؤساء**. كنت كما يريدني الآخرون.

في المقابل، ظلَّت كلير ثابتة على حالها، وبدت أكثر ثباتًا مني. على عكسي، لم تكن كلير طفلة عندما استقر بنا الحال في الولايات المتحدة، لذلك لم يُرسلها أحد إلى المدرسة، كما لم تُتَبَنَّ ولم يغرقها أحد بالموارد والامتيازات المختلفة؛ مثل دروس البيانو، وعلاجات النطق، ومعسكرات التشجيع. واصلت كلير كفاحها لفترة من الزمن، تعتاش من إقامة الحفلات، وبيع المشروبات، وتوظيف منسقي الأغاني (DJ) الذين يخلطون بين موسيقى الهيب هوب الأمريكي، والنجم الكونجولي بابا ويمبا[1]، والراب الفرنسي. لكنها اكتشفت لاحقًا أنه من غير القانوني بيع المشروبات الكحولية دون ترخيص، فبدأت تعمل خادمةً في الفنادق بدوام كامل، حيث كانت تنظف مائتي غرفة فندقية أسبوعيًّا.

كل ما كنت أعرفه عن الحلقة التي سنسجلها هو أنها سلسلة من جزأين: الجزء الأول يُظهِر أوبرا وإيلي فيزيل في زيارة إلى أوشفيتز، ساعدنا يا إلهي؛ أما الجزء الثاني فكان عن الخمسين فائزًا في مسابقة المدارس الثانوية التي نظمتها أوبرا لكتابة المقالات. مثل باقي الفائزين، كتبت عن مذكرات فيزيل «**الليل**»، حيث يسرد قصته المؤلمة عن النجاة من الهولوكوست، وعن سبب استمرار أهميته حتى يومنا هذا. أثر في الكتاب كان شائقًا، وأشعرني بالخجل. كانت لدى فيزيل الكلمات التي لم أعثر عليها لوصف تجاربي المبكرة في الحياة.

أمليتُ مقالتي على السيدة توماس حين كانت جالسة في منزلها المميز في الغرب الأوسط -الذي يشمل حديقة جميلة، وأرضيات من الماهوجني- أمام حاسوب ضخم يشغل المكتب كله. قالت لي:

(1) مغنٍّ وموسيقي مشهور من جمهورية الكونجو الديمقراطية، ويُعرَف بأنه أحد أكثر الرموز الموسيقية تأثيرًا في إفريقيا؛ وأدَّى دورًا رئيسيًّا في نشر موسيقى السوكو، وهي مزيج من موسيقى الرومبا الكونجولية وموسيقى البوب الحديثة في جميع أنحاء إفريقيا والعالم. (المترجم).

«كليمنتين، عليكِ أن تشتركي. أنا متأكدة من أنكِ ستفوزين». كان لديها ثلاثة أطفال فضلًا عني. كنت أناديها: «أمي الأمريكية»، وكانت تناديني: «ابنتي الإفريقية». كانت تُحَضِّر الغداء لي يوميًّا وتَقِلُّني إلى المدرسة.

في مقالتي، قلت إنه لو قرأ الرواندیون **الليل** لربما قرروا عدم قتل بعضهم بعضًا.

في الطريق إلى وسط شيكاجو، دار بيننا الحوار الذي لا مفر منه –**هل يحدث هذا فعلًا؟ الأمر غريب للغاية**– وكانت تلك أكثر لحظة بيني وبين أختي اقتربنا فيها من الحديث عمَّا جرى في حياتنا. إذا اضطُرِرنا حقًّا لتسمية ماضينا أمام بعضنا بعضًا، فقد كنا نسميه «الحرب». لكننا حاولنا تجنب ذلك، وفي ذلك اليوم كنا غارقتين في الذكريات كلها والنسيان المتعمَّد لدرجة أننا عندما وصلنا إلى فندق أومني وسألنا البواب: «هل معكم أي حقائب؟» أدركنا أننا تركنا جميع ملابسنا في المنزل.

عادت كلير إلى شقتها، حيث كانت صديقتها تراقب أطفالها – مارييت، التي كانت تقارب العاشرة؛ وفريدي، الذي كان في الثامنة؛ وميشيل، التي كانت في الخامسة. أما أنا فبقيت في غرفة الفندق، أشعر بالتيه.

أعطت استوديوهات هاربو لكل منا 150 دولارًا للعشاء. كان هذا أكثر من مخصصات الطعام الشهرية التي كانت تحصل عليها كلير. عندما عادت طلبنا خدمة الغرف. استيقظنا في الساعة الرابعة صباحًا وقضينا ساعاتٍ في الاستعداد.

في ذلك اليوم، من أجل العرض، أرشدَنا المنتجون إلى الاستوديو الضخم. جلست أوبرا على أريكة بيضاء على المسرح، مقابل إيلي فيزيل

العجوز المتعَب الذي كان يجلس على كرسي وثير. كان على قيد الحياة رغم شيخوخته، وذلك كان يعني الكثير الكثير بالنسبة لي. ظل ينظر إلى الجمهور، وكأن لديه الكثير ليقوله ولكن لا يوجد وقت كافٍ لذلك.

في هذا الاستوديو الجميل، أمام كل هؤلاء الأشخاص المتأنقين، عرض فريق أوبرا فيديو لأوبرا وفيزيل وهما يسيران معًا متشابكي الذراعين في أوشفيتز المغطَّى بالثلوج، ويناقشان الهولوكوست.

ثم منحنا المنتجون استراحة. جلسنا في صمت. بعضنا كان مرعوبًا، والبعض الآخر كان يبكي.

بعد ذلك، قالت أوبرا أشياء جميلة عن جميع الفائزين في مسابقة المقالات واستثنتني. قلت لنفسي إن هذا جيد. جيد. لم أذهب إلى المدرسة حقًّا حتى سن الثالثة عشرة، وعندما كنت في السابعة احتفلت بعيد الميلاد في مخيم للاجئين في بوروندي مع صندوق أحذية يحتوي على الأقلام، وقد دفنته تحت خيمتنا حتى لا يسرقه أحد. مجرد الوجود بين الجمهور كان كافيًا، أليس كذلك؟ بالإضافة إلى ذلك، كنت أرغب مرارًا في أن أقول لأوبرا: **هل تعلمين عدد السنوات، وعدد الأميال التي قطعتها كلير وهي تتحدث عن اللقاء بك؟**

لكن بعد ذلك انحنت أوبرا للأمام وقالت: «إذًا، كليمنتين، قبل أن تغادري إفريقيا، هل وجدتِ والديك؟».

كان يجب أن أشك في حدوث شيء كهذا، حيث كنت أرتدي ميكروفونًا مثبتًا تحت سترة تلفزيونية سوداء وبطارية موصلة بسروالي. أجبتها: «لا، لقد حاولنا عبر **اليونيسيف** ... حاولنا مع كل جهة ممكنة، تجولنا، وبحثنا، وبحثنا وبحثنا».

ثم سألتني: «متى كانت آخر مرة رأيتِهم؟».

أجبتها: «كان ذلك في عام 1994. حينها لم تكن لدي أي فكرة عمَّا كان يحدث».

عندها قالت أوبرا وكأننا فزنا بجائزة في برنامج مسابقات: «حسنًا، لدي رسالة من والديكِ، كليمنتين وكلير، تعاليا إلى هنا!».

تمسكت كلير بي. كانت ترتجف، لكنها حافظت على ملامحها الصارمة المتشككة للغاية، لأنها تعرف عن العالم أكثر مما أعرف، ولأنها أيضًا رفضت أن تفكر، حتى بعد كل ما مررنا به، أن أي شخص أفضل منها أو أكثر أهمية منها. عندما كنا فقيرتين تمامًا ووحيدتين، كانت كلير تقضي ساعتها السابعة في غسل ملابس شخص ما على يديها، وكانت تنظر إلى التلفاز لتشاهد أنجلينا جولي متباهيةً ومتألقة، وتشع تفوقًا أخلاقيًّا، ورغم ذلك كانت كلير تقول: «من هذه؟ يا إلهي؟ أنتِ، أنتِ بشر، لا شيء يميزك عني».

لم أكن يومًا مثل كلير. لم أكن محصنةً. في كثير من الأحيان، أشعر أن قصة حياتي ما زالت وكأنها حبَّات خرز متناثرة. في كل مرة أجمع ذكرياتي، يكون التنسيق مختلفًا قليلًا. أخشى أحيانًا أنني سأظل تائهة داخليًّا. أخشى أنني سأظل مشوشةً إلى الأبد. لكن في ذلك اليوم قفزت على المسرح مبتسمة. واحدة من أهم المهارات التي تعلمتها في أثناء محاولتي النجاة باعتباري لاجئة، كانت قراءة ما يريد الآخرون مني فعله.

قالت أوبرا وهي تسلمني ظرفًا بنيًّا: «هذه رسالة من عائلتك في رواندا». بدت جادة، وواثقة من غايتها. وأضافت: «من والدكِ ووالدتكِ وأخواتكِ وأخيكِ».

كنت أعلم أنا وكلير أن والدينا على قيد الحياة. كنا نعلم أنهما فقدا كل شيء –عمل والدي، وحديقة أمي– وأنهما يعيشان الآن في كوخ على مشارف كيجالي. كنا نتحدث إليهم عبر الهاتف، ولكن بصورة

نادرة، لأننا لم نكن نعرف كيف نبدأ – **لماذا لم تبحثا عنّا أكثر؟ كيف حالكما؟ أنا بخير، شكرًا. كنت أعمل في GAPجاب، ووجدت أنه من الأسهل تعلم القراءة باللغة الإنجليزية إذا استمعت إلى الكتب الصوتية أيضًا.**

فتحت الظرف وسحبت ورقة زرقاء. ثم وضعت أوبرا يدها على يدي لتمنعني من فتح الرسالة. كان ذلك بمنزلة راحة هائلة. لم أرد الانهيار على التلفاز.

قالت أوبرا: «ليس عليكِ قراءتها الآن، أمام كل هؤلاء الناس. ليس عليكِ أن تقرئيها أمام كل هؤلاء الناس...» توقفت للحظة. «لأن ... لأن ... عائلتكِ ... **هنـــــــــــــا**!».

بدأت أسير إلى الخلف. فغرت كلير فاها وأصبحت أشبه بصورة كاريكاتيرية من الصدمة. ثم فُتِح باب عليه صور لأسلاك شائكة – صُمِّمَ خصيصًا لهذه الحلقة على ما أظن، لاستحضار الحياة في معسكر الاعتقال –وخرج منه صبي يبلغ من العمر ثماني سنوات، قيل إنه أخي. تبعه والدي، ببدلة داكنة وقميص بلون السلمون وربطة عنق؛ ثم أختي الصغيرة البالغة من العمر خمس سنوات، ووالدتي مرتديةً فستانًا أزرق طويلًا، وأختي كلوديت، التي أصبحت أطول مني. آخر مرة رأيتها فيها كانت في الثانية من عمرها، وما زلت أعتقد أن أمي التقطتها من سوق الفاكهة.

تخيلت هذه اللحظة مرات لا حصر لها. في مالاوي، كنت أكتب اسمي على غبار الشاحنات، آملة أن ترى أمي خط يدي المنمق **كليمنتين** وتدرك أنني ما زلت على قيد الحياة. في زائير، كنت أدخر العملات المعدنية لشراء هدايا لوالديَّ. في تنزانيا، كنت أجمع الكرات الزجاجية لأخي الأكبر بودي، الذي لم يكن حاضرًا في هذا اللقاء. كان بودي ميتًا.

تجمدت كلير للحظة. أما أنا، وبملابسي التلفزية وشعري المنثور، ركضت باتجاه عائلتي التي لمَّ برنامج أوبرا شملها وذراعيَّ مفتوحتان. عانقت أخي. عانقت والدي. عانقت أختي الصغيرة. عانقت والدتي، لكن ركبتيَّ انهارتا واضطُرَّت لرفعي. ثم عانقتها مرة أخرى. عانقت كلوديت، أختي الصغيرة التي لم تعد صغيرة. مشيت عبر المسرح وعانقت أوبرا. وعانقت إيلي فيزيل، الذي بدا ودودًا ومتعَبًا.

الكاميرات بعيدة جدًّا لدرجة أنني نسيت أنني أشارك في عرض يشاهده الملايين، وأن تجربتي؛ فرحتي وألمي، تُستَهلَك من قبل الجماهير، لكنني واعية بما يكفي لأدرك أن الجمهور بأكمله كان يبكي.

بعد ساعات قليلة، رغم أنها بدت وكأنها دقائق، وجدنا أنفسنا على الرصيف خارج الاستوديو، وأخذت عائلتي سيارة ليموزين سوداء وتوجهت شمالًا إلى شقة أختي. كانت شقتها في الوحدة الأمامية من مبنى من الطوب، منخفض، مقابل مسار المترو، وعلى بُعد شارع من منزل خشبيٍّ مهجور بسقف مثلثي، كان ذات يوم منزلًا رائعًا، لكنه الآن بات منسيًّا. كنت آمل أن يكون لنا يومًا ما. كنت سأجمع الجميع فيه، لنعود عائلة مجددًا.

لم يتحدث أحد في السيارة. وعندما وصلنا إلى الشقة، لم يعرف أحد ما يجب فعله أيضًا. كانت أمي، في فستانها الأزرق الطويل، تجلس وتقوم من مكانها باستمرار، تلمس كل شيء –جدران غرفة المعيشة، جهاز التحكم في التلفاز– وتغني عن كيف أن الربَّ قد حمانا والآن يجب أن نخدمه ونحبه. استمر أبي في الابتسام، كما لو أن شخصًا لا يثق به كان يلتقط له الصور. أما كلير فبقيت في حالة جمود من الصدمة، تهتز دون أن تعبر عن أي شيء بملامحها. كنت أعتقد أنها فقدت صوابها حقًّا.

جلست على أريكة كلير، أنظر إلى أشقائي الجدد الغريبين، أولئك الذين حلُّوا مكاني ومكان كلير. كانوا يبدون مثاليين للغاية، بشرتهم ناعمة وأعينهم لامعة، وكأنهم يمثلون صورة خيالية لعائلة كان من الممكن أن تكون عائلتي. لكنهم لم يعرفوني، ولم أكن أعرفهم، وكانت المسافة بيننا شاسعة كمليارات من الأميال.

نمت باكية على سرير مارييت، واستيقظت في اليوم التالي وأنا ما زلت أرتدي حذائي الخاص بحلقة أوبرا.

كان اليوم التالي هو الجمعة. بالطبع، لم أذهب إلى المدرسة. كان علينا أن نبدأ في تعويض الكثير من الوقت الضائع. ومع ذلك، لم أستطع النظر إلى والديَّ – كانا مجرَّد شبحَيْن.

شعرت بالامتنان، نعم. لقد أعادت أوبرا إليَّ والديَّ. لكنني أيضًا شعرت وكأنني رُكِلتُ في معدتي، وكأن حياتي كانت تجربة نفسية منحرفة قاسية يقوم بها أحد علماء النفس: **فلنرَ إلى أي مدى يمكننا أن نأخذ شخصًا ما إلى الهاوية، ثم إلى أي مدى يمكننا أن نرفعه نحو القمة، ثم لنرَ ماذا سيحدث!**

في يوم السبت، توجهت عائلتي، مع عائلة توماس، في رحلة على طول شاطئ البحيرة إلى حديقة شيكاجو النباتية، حيث وقفنا ننظر إلى الزنابق والورود في إلينوي. جميعنا كنا نريد أن تكون هذه الزهور روابط جميلة تربط بين زنابق وورود كيجالي، خيوطًا تربط هذا الحاضر بذلك الماضي، لكن كل شيء كان متكلفًا، وكان الشعور وكأن الكاميرات ما زالت تلاحقنا. يوم الأحد، ذهبنا إلى نيفي بيير[1] – العجلة الدوارة المبهرجة، وأكلنا غزل البنات، وفعلنا كل الأشياء السياحية.

---

(1) أحد المعالم السياحية الشهيرة التي افتُتِحَت عام 1916 على الواجهة البحرية في شيكاجو، ويقع على ضفاف بحيرة ميتشيجان، ويضم مجموعة متنوعة من أماكن

ظل والدي يبتسم ابتسامته المزيفة المتألمة. ابتسامتي ربما كانت تشبهها؛ ابتسامة تخفي تحتها صرخة. كلير بالكاد قالت كلمة واحدة. ثم، في صباح الاثنين، غادر والداي وإخوتي الجدد في الرحلة التي حجزتها لهم جماعة أوبرا عائدين إلى رواندا، وأخذتني السيدة توماس كالمعتاد من شقة كلير. لم تكن لديَّ أدنى فكرة عن كيفية فهم ما حدث للتو. لذلك، ركضت إلى سيارتها المرسيدس وأوصلتني إلى المدرسة.

الترفيه والطعام والتسوق والأماكن الثقافية، بما في ذلك عجلة فيريس (التي وصفتها الكاتبة بعد ذلك بالعجلة الدوارة المبهرجة) والمسارح والمتاحف وغير ذلك. (المترجم).

1994

1

عندما كنت طفلة عادية، أعيش في كيغالي في رواندا، وكنت طفلة فضولية منذ نعومة أظفاري. لقبي كاسيت. أكرر كل شيء أراه أو أسمعه، بما في ذلك أختي كلير التي تكبرني بتسع سنوات، ترتدي شورت تحت تنورتها وتلعب كرة القدم بدلًا من أداء المهام الأسرية بعد المدرسة.

عندما كانت تتبع التعليمات –مثل شراء الطماطم أو إحضار ست زجاجات كولا للضيوف– كانت تنفق ربع المال الذي تعطيه لها أمي فقط، لأن كلير حتى وهي في سن الرابعة عشرة، كانت تعرف كيف تعتني بنفسها. تفهم قيمة الأشياء. تعلم أن الثقة عملة. تدرك أنه إذا قالت لبائع الطماطم إنها ستدفع له أقل اليوم، لكنها ستعود كل أسبوع لتشتري منه فقط، فإنه سيقبل الصفقة، وستحتفظ هي ببعض المال، وسيكون كلاهما سعيدًا.

كما كانت تعلم أن الحياة تصبح أصعب وأكثر تكلفة عندما كنت أرافقها. كنت أتكلم كثيرًا، وأفشي الأسرار، وأطرح الكثير من الأسئلة. كما أنني كنت أعاني لدغة في النطق، فكان من الصعب على الآخرين فهمي. كانت كلير تسخر مني، وكيف كان لساني يعيق نطقي. كانت تطلب مني تكرار الكلمات، ثم تضحك.

كنا نعيش في منزل من الجص الرمادي على طريق من الحصى، فوق تلة تطل على السوق، بالقرب من أحد ملاعب التنس القليلة في المدينة. كانت البيوت في حيِّنا متقاربة، كل بيت بسقف أحمر وسياج من شجيرات الكريوزوت[1] الكثيفة التي تُشَذَّب أسبوعيًّا لتشكل حواجز منظمة.

في الفناء الخلفي كان لدينا مطبخ خارجي، مع صندوق رمل كبير تدفن أمي فيه الجزر والبطاطا الحلوة لِتَقيها من الحرارة وتجعلها أكثر حلاوة. وفي الفناء الأمامي كان هناك شجرة مانجو قديمة ورطبة ذات أوراق قوية. يمكنك الجلوس فيها وستحتضنك. كل يوم عندما نعود من المدرسة، كنت أنا وبودي نتسلق الشجرة ونقف بين أغصانها، التي كانت تمثل عالمي كله آنذاك، ونهزُّ الأوراق متخيلين أن الشجرة كانت حافلة ستأخذنا إلى مدينة بوتاري[2]، حيث تعيش جدتنا على بعد ثلاث ساعات، أو حتى إلى كندا.

---

(1) هي شجيرات صلبة دائمة الخضرة، وتزدهر في الظروف القاحلة. لها أوراق خضراء صغيرة، وأزهار صفراء، ورائحة قوية مميزة، وبخاصة بعد المطر. تلعب هذه الشجيرات دورًا حيويًّا في النظم البيئية الصحراوية أو القاحلة من خلال منع تآكل التربة والحفاظ عليها بسبب الحرارة الشديدة والجفاف. (المترجم).

(2) مدينة في جنوب رواندا، وتُعرَف بأنها مركز ثقافي وتعليمي، وكانت عاصمة البلاد سابقًا، كما أنها موطن جامعة رواندا الوطنية والعديد من المؤسسات البحثية، وعلى الرغم من صغر المدينة، فإنها تلعب دورًا رئيسيًّا في المشهد الأكاديمي والثقافي في رواندا. (المترجم).

أمي قصيرة القامة وممتلئة، لها إطلالة ملكية مهيبة، ومتزنة، ولديها عظام وجنتين مرتفعتين مثل أجدادي، وأسنان بيضاء ناصعة تتخللها الفجوات، وهو ما يعتبره الرواندیون علامة من علامات الجمال. لدينا كلمة تصف تلك السمة الجمالية في اللغة الكينياروآندية، وهي: إنيينيا (inyinya). وقعت والدتي في حب أبي وقررا الزواج رغم اعتراض عائلته.

قضت أمي صباحاتها في الكنيسة، التي تقع أعلى التل، وبعد الظهر في الحديقة، التي كانت بمنزلة جنة بالنسبة لها. هناك علمتني أسماء النباتات –القرنبيط، وطائر الجنة[1]– وكيفية العناية بكل منها، وأيها التي تحتاج إلى التربة الباردة تحت شجرة المانجو وأيها التي تحتاج إلى الشمس المباشرة. كانت تزرع البرتقال، والليمون، والجوافة، والباباي، والكركديه، والبلوميريا[2]، والسانشيزيا، وزهرة الفلامينجو، وإبرة الراعي، والفاوانيا. كنت أنزع الأسدية[3] من زهور الزنبق النمري وأضعها فوق شفتي، تاركة مسحوقًا برتقاليًّا زاهيًا كشارب مصبوغ.

في أيام السبت، كانت أمي تأخذني أنا وبودي وكلير لتنظيف بيوت المسنين. المسنون دائمًا متذمرون. يصرخون علينا إذا أكلنا الفاكهة التي سقطت من أشجار المانجو الخاصة بهم، ولكن لم تهتم أمي بوقاحتهم.

(1) نبتة استوائية، موطنها الأصلي جنوب إفريقيا، وتشتهر بأزهارها النابضة بالحياة التي تشبه الطيور، وتحتوي على بتلات برتقالية وزرقاء زاهية مشابهة الطير في أثناء طيرانه. (المترجم).

(2) وتُعرَف أيضًا بالياسمين الهندي لشبهها بالياسمين الشامي. (المترجم).

(3) الأجزاء التناسلية الذكرية للزهرة، وتتكون كل سداة من مكونين رئيسيين: المتك الذي ينتج حبوب اللقاح ويحتفظ بها، والخيط، وهو ساق رفيع يدعم المتك. وتؤدي الأسدية دورًا حاسمًا في تكاثر النبات من خلال تسهيل نقل حبوب اللقاح إلى الأجزاء الأنثوية من الزهرة (المدقة) للتخصيب. (المترجم).

أيضًا استقبلت فتيات من الريف، نساءً شابات يرغبن في قضاء سنة أو سنتين في مدينة كبيرة بها مراكز تسوق، ومبانٍ إدارية، وكاتدرائيات، وطرق معبدة قبل أن يتزوجن، ليكسبن بعض المال ويكتشفن العالم. هؤلاء النساء يعملن مربيات أطفال، أو يساعدن في المطبخ، أو ينظفن ويغسلن الملابس. كانت أمي تصر على أن أتعلم أنا وكلير القيام بهذه الأعمال المنزلية بجانبهن. لم يكن مسموحًا لنا أن نظن أننا أفضل منهن. لم أمانع العمل. كنت أرغب في إحلال النظام في عالمي. حتى عندما كنت في الرابعة من عمري، كنت مهتمة جدًّا بالنظام، أرتب الأحذية بجانب الباب وأكنس ساحة الفناء بشكل متكرر.

كلير تكره الأعمال المنزلية. لم ترد أن تتباطأ أو تتأخر. لديها خطط كبيرة ولا تستطيع الانتظار للتحرر-للذهاب إلى الكلية في كندا، حيث يحلم العديد من الرونديين بالانتقال لأنها تشبه أمريكا لكنهم يتحدثون الفرنسية؛ اللغة الثانية التي يتعلمها الرونديون في المدرسة، لأن بلجيكا استعمرت رواندا. وفي حال لم تستطع الذهاب إلى كندا، كانت كلير تريد السفر إلى أوروبا- كانت تريد أي مكان للعيش في **إيبورايي** (**iburayi**)، وهو تعبير رواندي شامل يعني «الخارج» أو «البعيد». كان لدى كلير عرَّابة تعيش في مونتريال، وكانت ترسل لها هدايا رائعة: ساعة بحزام فضي، ومعطف شتوي أخضر يتناسق مع معطف واقٍ من المطر، ومظلة، وحذاء.

أحلامي وأنا في الرابعة من العمر أقل مغامرة بكثير. كنت أريد أن أتذوق الآيس كريم والكعك بالأناناس. كنت أريد أن أرتدي زي المدرسة الشرشيري (الأزرق المخضَرَّ)، وأنْ أكبُرَ لأرتدي ملابس كلير.

ارتدت أمي دائمًا ملابس أنيقة ومتواضعة، وكأنها تقول: «أنا هنا لكنني لست هنا. لا تنظروا إليَّ». كانت ترتدي قميصًا وكيتينجي[1] (kitenge) زاهي الألوان أو لفافة طويلة[2] للعمل في الحديقة، وتنورة طويلة مطوية مع قميص عالي الياقة وحذاء أسود منخفض الكعب للكنيسة. لم تكن لترتدي أي كعب يمكن أن يصدر صوتًا. لم تضع المكياج، فقط القليل من الفازلين لتلميع شفتيها. كانت قد استوعبت الروحية الكاثوليكية الرواندية ما بعد الاستعمار: عليك أن تبقى غير مرئيٍّ قدر الإمكان. عليك ألا تلفت انتباه أحد إليك. كان إتقان ذلك هو مهمتي في أثناء نشأتي: أن أتعلم كيفية التصرف بشكل لائق، وكيف أكون هادئة. لقد كنت طالبة غير متحمسة.

العديد من عائلات جيراننا مفعمة بالحيوية ومختلفة –مسلمة بدلًا من الكاثوليكية، ومن الزائيريين بدلًا من الرونديين. أردتُ أن أتذوق كيف يطبخون الفاصوليا الخاصة بهم وأفهم التصاميم والزخارف على أطباقهم. رغبتُ في الاحتفال بشهر رمضان ومهرجان ديوالي[3] الهندي. في بعض الأيام، عندما كنت أزور بيوت الجيران، كنت أتنقل بين غرف

---

(1) نسيج إفريقي تقليدي، يُرتَدى عادة في شرق ووسط وغرب إفريقيا. يُصنَع من القطن ويتميز عادة بأنماط ومطبوعات جريئة وملوَّنة، وغالبًا ما يُستَخدَم عادةً في صناعة الملابس مثل الفساتين والتنانير وأغطية الرأس بالإضافة إلى الإكسسوارات. (المترجم).

(2) لباس تقليدي ترتديه النساء في مختلف الثقافات الإفريقية، وبخاصة في غرب إفريقيا، ويتكون من قطعة كبيرة من القماش يبلغ طولها عادة بين مرتين وثلاثة أمتار، تُلَفّ حول الخصر أو الصدر وتُربَط بشكل آمن، ويمكن ارتداؤها أيضًا تنورةً أو فستانًا. (المترجم).

(3) ويُعرَف أيضًا بمهرجان الأضواء، وهو أحد أهم المهرجانات الهندوسية، ويحتفل به الهندوس في المقام الأول في الهند، وفي جميع أنحاء العالم. إنه يرمز إلى انتصار النور على الظلام، والخير على الشر، ويستمر عادةً لمدة خمسة أيام، ويتضمن إضاءة المصابيح وتزيين المنازل وتبادل الهدايا والاستمتاع بالأطعمة الاحتفالية. (المترجم).

نومهم وحماماتهم، أبحث في فراشي الشعر، وفراشي الأسنان، والأدوية، والصابون. كنت أريد أن أعرف أسرارهم –ليس الأسرار العميقة والمظلمة، بل الأسرار الإنسانية الصغيرة. كنت أريد أن أعرف كيف تبدو أجسادهم.

كانت أمي تحاول تثبيط فضولي، فتوبخني بعبارة **أوشيرا إيسوني** (**ushira isoni**) –«أنتِ لا تستحين». من المفترض أن يكون الرونديون، وبخاصة الفتيات، محتشمين، كابحين جماحهم، وغامضين تقريبًا. عندما كنت أمشي مع أمي في البلدة، كنت أشير إلى كل بيت وأقول: «من يعيش هناك؟ كم عدد الأطفال؟ هل هناك أحد مريض؟» لم أكن أتأقلم مع تلك العادات.

في يوم من الأيام، حينما كانت ترتدي الكيتينجي في الحديقة، سمعت عبر الراديو أن صديقة لها قد ماتت، أو **كويتابا إيمانا** (**kwitaba imana**) –وهو تعبير يعني «استجابت لنداء الرب». بدأت تبكي. كان ذلك أول وآخر مرة أرى فيها أمي تبكي. في رواندا، لا يبكي الكبار. الأطفال يمكنهم البكاء حتى يتعلموا الكلام. بعد ذلك، يحين وقت التوقف عن البكاء. إذا اضطررت للبكاء بعد ذلك، عليك أن تبكي كما لو كنت تشدو، مثل طائر حزين.

لقد توسلت لأمي أن تسمح لي بالذهاب إلى الجنازة. أردت معرفة كيف تبدو الجنازات وما يحدث فيها. كَوَتْ مربيتي، موكامانا، التي أحببتها وعشقتها، أفضل فستان قطني لدي وألبستني إياه، ثم أخذتُ بيد أمي ونحن نسير على الطريق الحجري وعبر الجسر باتجاه البلدة.

رواندا بأكملها عبارة عن تلال. وحسبما قالت لي موكامانا: إن الخالق، إيمانا[1] (Imana)، لم يرغب في بسط الأرض لأنه أراد أن تكون رواندا فريدة من نوعها. بالقرب من الكنيسة، انضممنا إلى خمسين شخصًا جالسين على مقاعد طويلة مرتبة على شكل مستطيل تحت شجرة. الجميع كانوا صامتين أو يتهامسون. بقيت أمي، مثل بقية الكبار، هادئة ومتماسكة. جلست هناك، أحدق إلى وجوه الكبار في حيرة شديدة.

لم أسمع الرب يتحدث إلى أحد. فقط سمعت كاهنًا يقدم التعازي، وبعض التراتيل. بعد القداس، سألت بعض صديقات أمي عمَّا إذا كن قد سمعن أو رأين الرب، فأخذن يديَّ بين أيديهن وربتن عليها، كما لو كن يقلن: «**ستفهمين في الوقت المناسب**».

لكن «في الوقت المناسب» كان بعيدًا جدًّا. كنت أريد أن أفهم في تلك اللحظة. في حياتي القصيرة، كان الموت تهديدًا عابرًا، مزحة بين الإخوة –بودي أو كلير يقولان إن أمي ستقتلني إذا قطفتُ الكثير من الورود. بذلت أمي قصارى جهدها على الطريقة الرواندية لتشرح لي. قالت لي إن الموت هو العودة إلى الوطن. لكنني شعرت بالاستياء، وحتى بالإهانة، من هذا التبسيط المفرط في الوضوح لما يعنيه الموت. في الرابعة من عمري، كنت طفلة متغطرسة إلى درجة اعتقادي أنني أستطيع التعامل مع الحقيقة. كنت أعتقد أنني أستحق أن أعرف. كنت أطالب بذلك.

بعد الجنازة، قضيت أكبر قدر ممكن من الوقت حول الأشخاص المسنين والمرضى. كنت أرافق أمي عندما كانت تذهب لقراءة الكتاب المقدس لهم. كنت أريد أن أستمع إلى الرب وهو يتحدث إليهم، يدعوهم

---

(1) مصطلح يُستخدَم في المعتقدات التقليدية الرواندية والبوروندية للإشارة إلى الإله الأعلى أو الخالق، كما يُنظَر إلى إيمانا على أنها القوَّة الخيِّرة، ويمكن أن تتعايش مع ممارسات دينية أخرى مثل المسيحية، حيث تتماهى الإيمانا مع الإله المسيحي. (المترجم).

للعودة إلى الوطن. هل يجب على الشخص أن يستجيب عندما يدعوه الرب؟ ماذا لو كنت تريد أن تعيش؟ إذا كان الرب يقدم دعوة فقط، فيمكنك أن ترفضها، أليس كذلك؟ يمكنك أن تقول: «**لا، شكرًا**». وتبقى حيث أنت.

أيامي كانت مليئة بالإحباطات الصغيرة المتعلقة بكوني صغيرة ومُدللة. كرهت اللوشن الذي كانت مربيتي تضعه لي بعد الاستحمام. كنت أكره رداء الحمام. أردت الرداء الذي يحوي أزرارًا، مثل رداء كلير، فإن لم يكن ممكنًا، كنت أرغب في أن يُسمح لي باللباس مثل بودي. الاسم الحقيقي لبودي كان كلود، ولكنه لُقِّبَ بودي بسبب حبه لماركَتَيْ بوما وأديداس. كانت أمي تدلِّله وترضخ له فتسمح بارتدائه قميص أديداس الأحمر الزاهي لكرة القدم تحت زيه المدرسي، رغم أن القميص كانت رائحته كريهة.

يوميًّا، أو ربما كل ساعة، كنت أتوسل إلى موكامانا لتحكي لي قصصًا تساعدني في فهم العالم، مثل أن الآلهة تهز المحيط مثل سجادة لتُكَوِّن الأمواج. قصتي المفضلة كانت عن فتاة جميلة وسحرية تتجول في الأرض، وتبتسم فتنتثر حبات الخرز. عندما كانت موكامانا تروي لي هذه القصة، كانت تسألني: «ماذا تظنين حدث بعد ذلك؟» وأيًّا كان ما قلته، أيًّا كان المستقبل الذي تخيلته، كانت موكامانا تجعله حقيقة في القصة.

موكامانا تلف شعرها الطويل المجعد بقطعة قماش رائعة، وتنام في غرفتي معي، كل منا في سريرها الخاص. علمتني أغاني تساعدني على أداء طقوسي الصباحية: الاستيقاظ، والدعاء من أجل يوم جديد جيد، وترتيب سريري، وتنظيف أسناني، وغسل وجهي، وتمشيط شعري، وارتداء ملابسي، وإلقاء التحية على الجميع.

كنت أرفض فِعْلَ أي شيء حتى تحكي لي قصة، وكانت موكامانا تستغل رغبتي في القصص لتكسب السيطرة: «حسنًا، إذا أخذتِ قيلولة، سأحكي لك قصة. وإذا لم تنامي، فلن أحكي لك قصة».

حين كنت أكبر، رغبتُ أن أكون مثلها. كنت أريد أن أحكي القصص وأرقص للآخرين كما كانت تفعل لي. كل قصص موكامانا كانت تتضمن الغناء والرقص، وتوقيع الإيقاعات بأقدامها. قصصها لم يكن لها نهايات محددة. دائمًا كانت تسألني: «ماذا تعتقدين حدث بعد ذلك؟ هل يمكنكِ التخمين؟» كانت الوحيدة التي تساعدني في فهم لماذا السماء عالية جدًّا، أو من أين جاء الماء لأول مرة؟

كان أبي يعمل في صيانة السيارات. بنى عمله تدريجيًّا، ومثل أي رائد أعمال جيد: بدأ بسيارة واحدة، ثم سيارتين، ثم أسطول صغير من الحافلات الصغيرة، وبحلول ولادتي كان لديه مرأب تجاري كبير في شارع مزدحم تفوح منه رائحة زيت السيارات والغبار.

كان أبي رجلًا صلبًا، صدره عريض وكتفاه قويتان، ولديه جبهة عريضة وابتسامة واسعة، وأذنان تبرزان قليلًا، مما كسر إلى حد ما مظهره المهيب. كان يعمل لساعات طويلة. لم أكن أراه كثيرًا. في الأمسيات التي كان يتواجد فيها في المنزل، كنت أتشاجر مع كلير حول من سيحضر له نعاله الجلدي. كانت كلير تعلم أن هذا هو أفضل وقت لطلب المال أو الحصول على أحذية نايكي جديدة. أما أنا فكنت أريد استبدال النعال برشفة لتذوق البيرة.

لقد عمل أبي بجد لبناء هذا المنزل الذي ينتمي إلى الطبقة المتوسطة. عندما تزوج والداي، لم يكن لديهما المال الكافي لإقامة حفل زفاف. الآن، في بعض الأوقات ما بعد الظهيرة، إذا كان الجو حارًّا أو كان العمل قليلًا، كان أبي يعود إلى المنزل لأخذ قيلولة. كنت أعلم أن عليَّ أن أكون

هادئة في أثناء نومه، وأن أتوقف عن اللعب والصراخ في الحديقة، وبخاصة بالقرب من نافذته المفتوحة. ولكن في أحد الأيام، بدأت ألعب أنا وبودي عند شجرة المانجو ونسيت.

كانت والدتي عادة هي التي تعاقبنا. صارمة وتعمل بهدوء. عندما نسيء التصرف، تجعلنا نركع في الزاوية ونواجه الحائط، وأحيانًا نرفع الحجارة فوق رؤوسنا. كان ذلك عذابًا. وعندما يكذب أحدنا –وعادة كنت أنا– كانت أمي تغلي الماء وتجعلنا نجلس حول القدر. تقول: «إذا كنت غير صادق ووضعت يدك هناك، ستحترق. وإذا كنت صادقًا، لن يصيبك شيء». كان أحدنا يعترف دائمًا.

كرهت كلير عقوبات أمي أكثر منًّا جميعًا. كانت تشعر بالغضب والعار. كانت تسأل والدتنا: «لماذا لا تضربينا مثل الجميع؟».

ولكن في ذلك اليوم، عندما عاد أبي إلى المنزل لينام ونسيت أن أكون هادئة، لم تكن أمي هي من عاقبتني. كان أبي. فتح النافذة، ناداني إلى غرفة المعيشة، وصفعني على وجهي. ما زلت أشعر بحرارة الضربة. وتبولت على نفسي.

كان هذا أقسى موقف رأيته في حياتي.

عندما بلغت الخامسة من عمري، التحقت بالروضة. بحلول ذلك الوقت، كان لدي أخت صغيرة جديدة. شعرت بالتهديد، مثلما يشعر جميع الأشقاء الأكبر سنًّا، وكنت أتوسل يوميًّا إلى أمي أن تعيدها من حيث أتت. وفكرت في الهرب.

كانت روضة الأطفال امتيازًا. لم تذهب كلير أو بودي إليها، لأن والديَّ لم يكن لديهما المال عندما كانا صغيرين. كانت مدرستي جميلة، تقع على سفح التل، وكانت معلمتنا ترتدي كعبًا عاليًا يصدر صوتًا وهي

تمشي في الممر. كانت المدرسة تفوح برائحة أقلام التلوين. كنا نغني، ونصنع أوعية وأكوابًا من الطين، ونتناول الغداء في الظل.

في كل يوم، كنت أحمل معي سخانًا أخضر مملوءًا بشاي مع الحليب. اعتبرت نفسي الطفلة الأكثر تميزًا هناك، وربما الطفلة الأكثر تميزًا في كل رواندا، لأن موكامانا في أحد الأيام جاءت لاصطحابي وهي تحمل المظلة الخضراء، والمعطف، وحذاء المطر لكلير. كان موسم الرياح الموسمية، وكان الطقس دافئًا ماطرًا. لبست حذاء كلير الأخضر، وتوسلت إلى موكامانا أن تسلك الطريق الأطول للعودة إلى المنزل، عبر التل من خلال البلدة، وليس عبر الجسر مباشرة. أردت أن أكون الفتاة المتفرِّدة وأستعرض ملابسي الفاخرة.

لكن موكامانا أخبرتني أن الطريق الأطول كان مغلقًا بسبب الفيضانات. لقد شعرتُ بغضب شديد.

لم أسامحها إلا عندما وجدت بودي في انتظاري للعب. كانت مياه الأمطار تتدفق من سقفنا الأحمر إلى الفناء المرصوف. سرق الصابون من المطبخ وجعل الساحة زلقة. ركضنا وتزحلقنا حتى غضبت أمي وطلبت منا الدخول إلى المنزل.

بعد فترة وجيزة، اختفت موكامانا. سألت أمي: «لماذا؟» فقالت لي: «**إنتمبارا**» (**intambara**)– أي الصراع. لم يكن لهذه الكلمة أي معنى بالنسبة لي، إذ لم تكن مرتبطة بأي قصة.

ثم جاءت مربية أخرى، اسمها باسكازيا، لكنها لم تكن موكامانا، لذلك كرهتها. لم تكن باسكازيا تحكي لي القصص كما كانت تفعل موكامانا. لم تكن تلف شعرها بقطعة قماش أنيقة مثل موكامانا. في أحد الأيام، جاءت باسكازيا لاصطحابي من الروضة في المطر، لكنها لم تحضر حذاء المطر الأخضر والمعطف.

في طريقنا إلى المنزل، مررنا بمجموعة من الرجال يغنون ويرقصون في الشارع. كانوا يتصببون عرقًا، ويحملون أعلامًا خضراء وذهبية وحمراء. كان المشهد يبدو احتفاليًّا جدًّا، مثل مهرجان. كنت مفتونة بالطبل الكبير. كانت هناك عشرات الشاحنات الصغيرة متوقفة على جانب الطريق، وكانت الحشود تتجمع خلفها للمشاهدة. كنت أريد التوقف والغناء والرقص مع الرجال، وفي العادة كانت باسكازيا سعيدة بالتباطؤ، لأنها كانت تحب التحدث إلى صديقاتها. كانت تحب إطعامي **الماندازي**[1] (mandazi) – أي الفطائر، ولذلك كنت دائمًا أصبر عليها حين تتحدث إلى صديقاتها. ولكن في ذلك الموقف توسلت إليها أن تأتي لي **بالماندازي** على أمل أن نحظى ببعض الوقت مع الحشد ونشاهد ما يجري، لكنها رفضت.

في الأسبوع التالي، قبل أن نعبر الجسر ونبدأ في الصعود إلى منزلنا، رأينا حشدًا مشكِّلا حلقة. الناس قالوا إن شخصًا ما يتعرض للرجم بالحجارة بتهمة السرقة. لم أفهم ما كان يحدث. كانت هناك المزيد من الأعلام الحمراء، والسوداء، والصفراء، والخضراء، والمزيد من الغناء والمسيرات. كنت مبهورة. كانت موكامانا قد أخبرتني ذات مرة قصة قديمة عن رجال كانوا يتقاتلون بالرماح في التلال. تلك الرماح تركت العديد من القلوب والأجساد مكسورة. قالت لي إن الرجال المكسورين ما يزالون يعيشون في الخفاء. سألت باسكازيا: هل نحن الآن بين هؤلاء الرجال، في تلك التلال؟ جذبت ذراعيَّ بقوة وأجبرتني على المغادرة.

عندما عدت إلى المنزل، أخبرت أمي ما رأيته. لم أعرف ماذا رأيت بالضبط، لكنني كنت مسحورة، وكنت أعلم أن مشاهدته كانت خطأ.

(1) وجبة خفيفة شعبية في رواندا وكينيا وتنزانيا وأوغندا، وتتكون من العجين المقلي، وغالبًا ما يُشار إليها باسم الكعك الإفريقي، وهي حلوة قليلًا، وتُصنَع من عجينة بسيطة من الدقيق والسكر وحليب جوز الهند. (المترجم).

قالت أمي لباسكازيا: «أين كنتِ؟ لماذا مررتِ من هذا الطريق؟». كان توبيخًا حادًّا. كانت شفتيها مشدودتين بإحكام على الفجوة في أسنانها. نادرًا ما كانت ترفع صوتها. ثم أكملت: «لم يكن ينبغي لكِ أن تسيري من هناك».

بعد بضعة أيام، اختفت باسكازيا. ولم أذهب إلى الروضة مرة أخرى.

هل تعرفون تلك الكُرَيَّات الصغيرة التي حين تسقطونها في الماء تتمدد لتتحول إلى إسفنجات كبيرة؟ حياتي كانت عكس ذلك تمامًا. كل شيء بدأ يتقلص.

أولًا، مُنعت من اللعب عند شجرة المانجو. حاول بودي تسليتي في المنزل، بقراءة القصص لي متظاهرًا أنه يقرأ باللغة الفرنسية. كان من المفترض أن يتعلم بودي الفرنسية في المدرسة، لكنه لم يكن يدرس قط. لذلك، كنا فقط ننظر إلى الصور في كتاب تن تن (Tintin)، وكان بودي يخترع القصص. كنا نسافر معًا إلى الأدغال مع كلب تن تن، ميلو. كان يخرج لنا أسد، فنهرب إلى الكهوف.

ثم مُنعت من اللعب مع صديقتي نيجليتا. كانت صديقتي الأقرب، وهي واحدة من الصديقات القليلات اللواتي كُنَّ في سني، وكنت أعتقد أنها مثالية. كنا نخترع عوالم خيالية. كانت تسمح لي بوضع القواعد. كنا نجمع بتلات الزهور وقطع الطحالب، وكانت الجنيات يرتدين البتلات فساتين، ويعشن في الطحالب.

قبل وقت قصير من حادثة الرجم، كانت أمي قد أخذتني إلى منزل نيجليتا للعب. في الطريق جمعنا بعض البذور، وفي فناء منزل نيجليتا وضعناها على الصخور الساخنة وانتظرنا أن تنفجر. قضيت الليلة في منزل نيجليتا، وعندما جاءت أمي في الصباح لم أرغب في المغادرة. فاقترحت أمي، باعتباره شكلًا من أشكال الوعد، أن أعير نيجليتا سترة

لي وآخذ سترة منها إلى المنزل. وبهذه الطريقة سيكون لدينا سبب لرؤية بعضنا بعضًا قريبًا لإعادة سترتينا. كانت سترة نيجليتا زرقاء وتفوح منها رائحة الكافور. كنت أرغب في استعادة سترتي، لكنني لم أرَ نيجليتا مرة أخرى.

أصبح الراديو يعمل طوال الوقت، وكان يصدر هسهسة مروعة. أخذني بودي لمشاهدة فيلم **رامبو**، الذي عُرض على ملاءة سرير في منزل أحد الجيران. لم أرَ من قبل إطلاق نار أو قتالًا حقيقيًّا. كنت خائفة للغاية لدرجة أنني ركضت إلى المنزل وحدي دون حذائي. بعد ذلك، أصبح جميع الأطفال في الحي مهووسين **برامبو**. قصُّوا قمصانهم لتحويلها إلى قمصان بلا أكمام وارتدوا عصبات على جباههم. أحضر الأولاد عِصِيًّا واختبؤوا خلف الأشجار وتظاهروا بإطلاق النار.

كانت البيوت تتعرض للسرقة، ليس لسرقة ما فيها، بل لإثبات أن سرقتها ممكنة. كان اللصوص يتركون ملاحظات تطالب بالزيت أو السكر أو التلفاز. كنت أطلب من الكبار تفسير ما يحدث، لكن وجوههم أصبحت حجرية، وكانوا يدفعونني للعودة إلى مشاغل الطفولة. في بعض الأحيان كان الرجال يتركون القنابل اليدوية في تلك المنازل -هكذا سمعت- رغم أنني لم أعرف حقًّا ما القنبلة اليدوية. كنت أعلم فقط أنها يمكن أن تقطعك إلى مائة قطعة. كنت أعتقد أن هناك مئات من الحرائق الصغيرة بداخلها. كيف يمكن لشيء صغير أن ينفجر بهذا الشكل؟ ذلك الشيء الصغير، كيف يمكن أن يكون بهذه القوة؟

في بعض الأيام كان العالم يبدو أخضرَ، وأحيانًا كان يبدو أصفرَ، ولكن لم يكن أصفرَ سعيدًا على الإطلاق.

عادت جميع الفتيات اللواتي كنَّ يعشن مع عائلتي إلى بلداتهن الأصلية. الشخص الوحيد الذي كان يعمل في المنزل الآن كان حارسًا

أمنيًّا. كان يقف في الحديقة الأمامية ويدخن السجائر في المساء حين كان والدي في العمل. عندما كان والدي يعود إلى المنزل، كنت ما أزال أحضر له نعاله وكان ما يزال يعطيني رشفة من البيرة. لكنه كان يستمع إلى الراديو ولم تظهر على ملامحه ابتسامة واسعة. كان لا يزيد على قول: «**إليك رشفة، كوني هادئة**».

ستائرنا، التي كانت أمي دائمًا تفتحها عند الساعة الخامسة كل صباح، ظلت مغلقة فجأة. بدأ صوت الطبول مرة أخرى، بصوت عالٍ ومن بعيد. ثم أصوات أبواق السيارات. توقف والدي عن العمل بعد حلول الظلام. رأت أمي رجالًا؛ ليسوا أولادًا، يرتدون أحذية مثل تلك التي يرتديها **رامبو** ويسيرون بالقرب من الكنيسة. توقفت عن الذهاب إلى الكنيسة. بدلًا من ذلك، بدأت تصلي في غرفتي، حيث كان ينام إخوتي أحيانًا، لأنها احتوت على النافذة الأصغر.

لم يعد أحد يأتي لتناول العشاء. كانت أمي تقدم الجزر والعدس، الكثير من الجزر والعدس. البطاطا التي كانت تستخدمها سابقًا للحساء كانت تأتي من السوق، ولم يعد أحد من عائلتي يذهب إلى السوق بعد الآن.

كانت الكهرباء تُفصل. المياه توقفت عن العمل. كان هناك الكثير من التهامس، الكثير من الضغط لكي نبقى هادئين وثابتين. **شيكيكا** (**Checkeka**) -اصمتي، ابقي ساكنة. كان والداي يقولان لي **شيكيكا** مئات المرات في اليوم.

أصبح الليل أطول من النهار. كنت أبكي عندما تغرب الشمس. ترك شخص ما قنبلة يدوية عند منزل جارنا. بحلول ذلك الوقت كنت في السادسة من عمري.

بعد ذلك بوقت قصير، مات خالي. هذا ما قالته أمي: «**لقد مات**». سألتها إن كان قد دُعي من الرب فقالت لا. سمعت محادثات لم أفهمها حول قدومهم. **هم** –دائمًا **هم**، بصيغة الجمع–، ويُتَحدَّث عنهم بصوت هامس. كان الضيوف دائمًا مهمين. كان الضيوف مميزين. عندما يأتي الضيوف، كانت أمي تقدم المكسرات المحمصة وزجاجات الكولا. «**هم**» لم يكونوا ضيوفًا.

جلسنا في المنزل. الأضواء مطفأة. الجميع كان يُصَلِّي، لكن لم يتحدث أحد. لم يعد هناك مزاح من كلير وبودي بأنني كنت متبناة، ولم يعد هناك تخويف بأن سني الذي سقط لن ينمو من جديد. لم يكن هناك شيء –لا حكاية عن العالم الذي ينغلق على نفسه، ولا قصة خيالية مثل السماء التي تُقَبِّلُ الأرض لتُنتِجَ ندى الصباح.

لم يحاول أحد تفسير أي شيء على الإطلاق، باستثناء بودي، الذي كان يُخرِج خيالاته المتعلقة برامبو ليخترع قصصًا سخيفة: «**هناك طائر يأخذ الدجاج والأطفال الصغار، ولهذا السبب لا يمكنك أن توجد في الخارج خلال الظهيرة. وإذا كان الجو عاصفًا، فلا يمكنك ارتداء اللون الأحمر، لأن الرعد سيأكلك إذا ارتديته**».

كان الرعد يدوي كثيرًا في تلك الأيام. في كل مرة كنا نسمع انفجارًا، كان بودي يقول: «**هذا هو الرعد**»، وعندما كنت أنظر إليه ويبدو عليَّ الارتباك، كان يضيف: «**ألم تسمعي الرعد عندما لا يكون الجو ممطرًا؟**». كان يخبرني أنه إذا حدث أي شيء أسوأ من الرعد، يجب أن أتسلق إلى المساحة بين السقف والسطح. سيستغرق الأمر وقتًا طويلًا ليعثر عليكِ أي شخص هناك.

تحول وجها والديَّ إلى وجهين لم أرَهما من قبل. سمعت أصواتًا لم أفهمها –ليست صراخًا، بل أسوأ. بكت أمي مرة أخرى. راح والداي

يتحدثان همسًا وتلصصت على حديثهما. سمعتهما يقولان إن بعض اللصوص قد نهبوا منزل جار آخر. سرقوا أموالهم، ومزقوا صورهم عن الجدران، ودمروا أثاثهم وأشعلوا فيه النار. ثبَّتوا ملاحظة على الباب الأمامي قائلين إنهم سيعودون قريبًا من أجل بناتهم.

وفي يوم من الأيام، أخبرتنا **أمي** أنا وكلير أن نحزم بعض الأشياء للذهاب إلى مزرعة جدتي في بوتاري، التي تقع على بُعد بضع ساعات جنوبًا، بالقرب من الحدود مع دولة بوروندي. أحبَّت كلير ذلك المكان، وأنا أيضًا أحببته، وكنا نحترم جدتنا. كانت تعيش في منزل من الطوب الطيني ذي نوافذ صغيرة وسقف من القش، وخلفه صفوف طويلة من زهور عباد الشمس –منزل يشبه البيوت الخيالية. كنت أشعر بالحرية هناك، ولم أرتدِ الأحذية قط. بعد الحرب السابقة، عادت جدتي إلى أرضها مع أطفالها الخمسة، بما في ذلك أمي، الابنة الثانية. أما جدي، فقد بقي في أوغندا.

وصل صديق والدي في شاحنة صغيرة في وقت مبكر من صباح اليوم التالي. كان الظلام ما يزال مخيمًا. كنت أرغب في أن أُرِيَ جدتي كوبًا خزفيًّا صنعته في المدرسة. طلبت من أمي أن تنزله عن الرف حيث كانت تحتفظ بأعمالنا الفنية، لكنها أصرت على أن أتركه في المنزل. كنت غاضبة، ولكن أمي لم تكترث. سلمتني كيسًا من الملابس ووضعتني في الشاحنة بجانب كلير وطلبت مني أن أعدها بأني سأتصرف بشكل لائق. وعندما غادرنا، قالت: «أرجوكِ، لا تتحدثي».

في طريقنا للخروج من كيجالي، توقفنا لالتقاط اثنتين من بنات خالي؛ فتاتين في عمر كلير. كان والدهما خالي هو الذي مات ولم يُدعَ من قِبَل الرب. طرق السائق الباب، ولم يخرج أحد. توقفنا عند بيوت أخرى؛ دخلت فتيات أخريات إلى الشاحنة.

جلسنا جميعًا متكدسات في وسط المقاعد، بعيدًا عن النوافذ. في بعض الأحيان كنا نتكوم على الأرض. مررنا فوق التلال، وكانت المنحدرات المتعرجة ناعمة مثل جسم الإنسان، ومررنا عبر بساتين الأشجار، وحقول الأرز، وأزهار الكركديه، والمنازل ذات الأسقف الحمراء، والمنازل ذات الأسقف المعدنية، والجامعة.

استغرقت الرحلة وقتًا طويلًا جدًّا. أصرت كلير على أن نلعب لعبة الصمت كلما طرحت سؤالًا. لم نأكل الكباب، ولم نشترِ الصابون الذي كنا دائمًا نحضره هدية لجدتي. لم نتوقف حتى لاستخدام الحمام.

عندما وصلنا إلى بوتاري، كانت بعض بنات خالي بالفعل في مطبخ جدتي، والفتيات الأكبر سنًّا يقشرن البطاطا مثل الفتيات المدنيات – ولكن ليس بطريقة جيدة. كنت أُبجِّل بنات خالي هؤلاء، بنمشهن الأسود وملابسهن الأنيقة. كانت جدتي تحوم حولهن مثل أسد غاضب، مصممة على حماية عائلتها وجمعها معًا. في وقت سابق من ذلك اليوم، تسللن من منزلها وسِرن على الطريق الترابي الأحمر لاستعارة لوشن للبشرة الجافة من الجيران.

في كل ساعة كنت أطلب تحديثًا عن موعد قدوم والديَّ أو على الأقل أخي، بودي. كنت أفتقده. كانت جدتي، وبنات خالي، وأختي يرددن جميعًا: «قريبًا». لم يلعب أحد معي. شعرت بالغضب بسبب هذا الإهمال. توقفت عن الأكل والاستحمام ورفضت السماح لأي شخص بلمس شعري. بعد بضع ليال، أخذتنا جدتي، أنا وكلير وبنات خالي، إلى منزل آخر للنوم.

في الليلة التالية، أخذتنا جدتي إلى الخارج وطلبت منا أن ننزل في حفرة عميقة في الأرض كانت مخصصة لدفن برميل الخشب الذي كانت

تستخدمه لصنع نبيذ الموز. بدأت الألوان والأصوات تتفتح، ثم انفجرت من حولي. لم أنم.

عندما حدث الأمر، سمعنا طرقًا على الباب. أشارت جدتي إلينا بأن نكون صامتين -**شيكيكا، شيكيكا، شيكيكا**. ثم أشارت إلينا بالزحف على بطوننا للخارج عبر حقول دوار الشمس المتألقة وعبر حقل البطاطا الحلوة.

كنت أحمل بطانية قوس قزح، والتي اتضح أنها منشفة. كانت كلير تسحب ذراعي. كانت الأرض تبدو لينة ووعرة، مثل دلو مملوء بالطباشير المكسورة. عندما وصلنا إلى الأشجار الطويلة، بدأنا نركض حقًّا، خارج المزرعة، بعيدًا عن الصفوف المنظمة، وعميقًا في بستان الموز الكثيف، حيث رأينا أشخاصًا آخرين، معظمهم من الشباب، وبعضهم ملطَّخ بالدماء بسبب الجروح.

كان لديَّ الكثير من الأسئلة. الجروح تبدو كبيرة جدًّا، من الصعب أن تُحدثها الأيدي، مثل أفواه مفتوحة على الجلد الداكن. انطفأت كلير فجأة. ربما كان لثانية، وربما كان ذلك إلى الأبد.

سرنا لساعات، حتى بدأ كل ما فينا يؤلمنا، ليس باتجاه أي شيء، بل بعيدًا عن كل شيء. كنا نضع الطين البني المُحمَرَّ وأوراق الكافور على أجسادنا للتمويه. الأشواك تحتك بكاحلي. سرنا صعودًا ونزولًا ومن حولنا الكثير من التلال. كنا نسمع الضحك والصراخ والتوسل والبكاء، ثم الضحك القاسي مرة أخرى.

لم أعرف كيف أُسَمِّي تلك الأصوات. كانت بشرية وغير بشرية. لم أتعلم قط الكلمات الصحيحة لوصفها في اللغة الكينياروادية. آمل ألا تكون تلك الكلمات موجودة. ولكن دون كلمات، لم يكن لدى ذهني طريقة

لتحديد أو فهم تلك الأصوات الرهيبة، ولم يكن هناك مكان لتخزينها في عقلي. كان الجو باردًا وأخضرَ ورطبًا، ثم كانت الأدغال، وساقاي كانتا ترتعشان، وكانت هناك أعين؛ الكثير من الأعين.

تداخلت أفكاري وحواسي. شعرت بحرارة الوقت. كان الصمت يُدوِّخ. خوفي كان أزرق ساطعًا.

كنا بحاجة إلى تركيز أسماعنا، لذلك تجنبنا الطرق وسرنا فقط عبر المسارات الصغيرة التي تستخدمها الحيوانات للمرور عبر الشجيرات. وحين نسمع أي صوت، نركع ونتجمد في أماكننا.

وجه كلير -لم أرَ مثل هذا الوجه من قبل. لم أستطع النظر في عينيها. توقفنا وركعنا بجانب مجرى مائي لنشرب. بدأت أرتجف، على الرغم من الأجواء الحارة. قلت لكلير: «أريد أن أعود إلى المنزل». وقَفَتْ، وجَذَبَتني من معصمي، وقالت: «لا يمكننا البقاء هنا. سيأتي آخرون».

تمسكت بقميص كلير. كنتُ منهكةً جدًّا لدرجة لا تمكنني من الإمساك بيدها. مررنا ببعض الناس. حاولت امرأة أن تقدم لنا طعامًا، لكننا كنا خائفين جدًّا من أخذه. كان بإمكانك معرفة من كان يركض من أقدامهم المتورمة، وملابسهم الممزقة، وركبهم النازفة.

قال لنا رجل إنه يعرف الطريق إلى الأمان. تبعناه إلى الحدود البوروندية، إلى نهر أكانيارو. كانت هناك جثث تطفو فيه. لم أكن أدرك معنى القتل بعد. بالنسبة لي، كان الناس في النهر نائمين. أشخاص في الماء ينامون ويواصلون النوم. هذا كل ما كنت أعرفه.

سرنا حتى وقت متأخر من بعد الظهيرة، وكاد الغسق أن يحل. لم نكن نعرف إلى أين كنا ذاهبين -فقط إلى التل التالي، ثم التل الذي يليه، ثم التل الذي يليه، ثم نعبر نهرًا آخر. رأينا المزيد من الجثث نائمة. توقفت عن التفكير في قدمي وبدأت أقلق بشأن إيجاد مكان للراحة.

في تلك الليلة، انقسم العالم إلى نصفين. انفتحت السماء وانهمر المطر بغزارة وبشدة لدرجة أنه لم يكن هناك جدوى من محاولة الاحتماء منه. هز الرعد الأرض وجعل أرجلنا تتمايل. ثم صرنا نتلقى ضربات البَرَد.

لفترة من الوقت، استمعت إلى كلير وهي تسأل الرب لماذا يجب أن يحدث هذا، ولماذا يختبرنا بهذه الطريقة. ولكن بعد ذلك توقفت عن الكلام. كانت أمي قد أخبرتنا أن الجحيم هو نار لا تنتهي، وأن تلك النار الجهنمية تُغذى بالحطب والفحم الناتج عن كل خطيئة نرتكبها. كان هذا هو الجحيم، بشكل واضح، ولكنه الجحيم الخطأ. توقفت كلير عن مخاطبة الرب بصوت عالٍ.

قرب الفجر، وجدنا منزلًا نُزِعَ بابه الأمامي. كان مظلمًا وفي حالة فوضى عارمة كأنقاضٍ لعاصفة ضربته. اختبأنا تحت السرير طوال اليوم.

سقطت جميع أظافر قدمي. كنا نعيش على الفاكهة. كان النهار مخصصًا للاختباء، والليل للمشي. كنت أشعر أنني بلغت مائة عام. كنت أعتقد أنني ابنة الرعد. دائمًا ما كنت أرغب في أن أكون في عمر كلير أو أمي. كنت أعرف أن عمري ست سنوات، ولكن لم يعد للعمر معنى.

تمسكت بمنشفتي. كنت أراقب الكلاب الضالة. وجدنا مدرسة، وهي مبنى طويل ضيق مع صف من النوافذ الصغيرة المفتوحة عبر واجهته. كانت المدرسة تحتوي ساحة لعب –كان ذلك مطمئنًا. كان هناك آخرون يختبئون داخل المدرسة. وجوه الناس كلها أعين واسعة، خائفة، وحشية، حادة. لم تكن النوافذ تحتوي على ألواح زجاجية ولا مصاريع، وكنت أتمنى لو كانت كذلك.

بقينا في المدرسة طوال فترة ما بعد الظهيرة. بدأت امرأة تبكي من الألم. لم تستطع التوقف. عند الغسق، تحول لون السماء إلى البرتقالي الساطع. كان بودي قد أخبرني أن السماء تتحول إلى هذا اللون عندما يموت راهب أو راهبة. غادرنا عند حلول الظلام لنواصل السير. كانت صراصير الليل تصدر أصواتًا عالية جدًّا.

بعد أيام، أو ربما أسبوع –لم أستطع متابعة عد الأيام –وجدنا حقل ذرة حيث سمعنا الأطفال يلعبون. أصبحت صرخاتهم الآن غريبة عليَّ، كما تغير العالم بأسره. لم نتبادل أنا وكلير أي كلمات. كانت أفواهنا وأجسادنا قد أصبحت عاجزة عن الكلام. كنا نتواصل بأعيننا فقط، وحتى ذلك، كان يتم بشكل متقطع. كنت أرى، ثم يتوقف ذهني عن الرؤية، كأن الأضواء تومض في ذهني وتخبو. اختبأنا بين سيقان الذرة العملاقة. كل منًّا قشرت بضعة أكواز وحاولنا تناول الحبوب. كان طعمها يشبه طعم صلصة المدرسة.

قررت كلير أنه ينبغي لنا أن نجد والدي الأطفال الذين كانوا يلعبون في الحقل، لذلك غادرنا الحقل وبدأنا نسير في طريق ترابي بني مُحمَر. رأينا بعض الفلاحين. اقتربت كلير من امرأة، وكان جلدها المتقشر مرتخيًا ومطويًّا فوق ذراعيها القويتين. أخبرتها كلير أننا أتينا من وراء التلة.

سألت المرأةُ كلير عن عائلتنا. لم ترف عينا كلير. قالت: «ستأتي عائلتنا قريبًا».

قبلت المرأة هذا الجواب الغامض. شعرت أنها لن تتلقى إجابة صادقة. ثم صفَّرت لبعض الرجال الذين كانوا يقطعون قصب السكر عبر الطريق. أعطونا عيدانًا سميكة وحلوة وزجاجات بلاستيكية تحتوي الماء، وحدقوا إلينا وكأننا قد بعثنا من الموت.

شعرت وكأنني قد انتُزِعت من جذوري –لم أكن جاهزة للزراعة من جديد، بل دُمِّرت فقط.

همست كلير لي: «لا يمكنكِ الوثوق بأحد. لا تخبريها أي شيء».

اقتادتنا المرأة إلى كوخها الذي يتألف من غرفة واحدة، حيث كانت تنام مع زوجها وأطفالها الأربعة على سرير من القش. كانوا فقراء جدًّا. لديهم حقولهم من الذرة، وقليل من البطاطا الحلوة، وصف من أشجار الأناناس. كانوا يزرعون ويحتفظون بجزء من الطعام لأنفسهم، ويبيعون الباقي–رغم أنه لم يكن كثيرًا– إلى الوزارة أسفل الطريق.

شعرت بالحكة طوال الليل. وفي الصباح استيقظت وعلى جلدي بثور، وضحك أطفال المرأة مني لأنني لم أكن أعرف ما هو القمل.

بقينا هناك، نعمل في الحقول ونأكل الذرة المسلوقة والبطاطا الحلوة دون زيت أو ملح –أسوأ طعام مطبوخ تناولته في حياتي. كنا ننام عندما ينام أطفالهما، ونأكل عندما يأكلون. الحقول في وادٍ، والكوخ على تلة، لذلك عندما ننتهي من العمل في الزراعة، كنا نركض صعودًا إلى الكوخ لنراقب الطريق. كنت أتخيل أمي أو أبي أو جدتي قادمين. كنت أبكي حتى لم أعد أستطيع البكاء بعد ذلك. كنت أعرف أن حياة مثل هذه موجودة في القصص فقط –حياة بلا فِراش، حياة مع الجرذان. كنت جاهزة ليُعثَر عليَّ، جاهزة للرحيل، لا لأعيش هكذا.

بعد بضعة أسابيع، رأينا الناس يسيرون في الطرق، بالمئات، ربما بالآلاف، يحملون الحقائب والأطفال والسلال. كان رجلًا يحمل كلبًا. قررت كلير أنه ينبغي لنا الانضمام إليهم.

قالت الأم صاحبة الكوخ: «ماذا لو ذهبتِ ولم تجدي شيئًا؟». ولفَّت بعض البطاطا الحلوة في سترة وسلمتها لكلير.

قالت كلير: «علينا الذهاب».

إنه لأمر غريب، كيف تتحولين من شخص بعيد عن منزله إلى شخص بلا منزل على الإطلاق. المكان الذي يفترض أن يرغبك ووجودي فيه قد طردك. ولم يقبلك أي مكان آخر. لم يعد هناك أحد يرغب فيك. أصبحتِ لاجئة.

واصلنا السير الآن مع هذا الحشد الكبير. عبر الغابات وصعودًا فوق التلال التي كانت تشبه الجبال. كان صوت المجموعة هو صوت الأطفال الذين يبكون من أجل أمهاتهم. **ماما. ما-ما. ماما ماما ماما**. لم أقلها بنفسي. لم أجرؤ على ذلك. كان هذا الصوت يملأ عقلي ولا يغادره أبدًا.

لقد سرنا حشدًا طافحًا باليأس، لم نعد أشخاصًا مميزين. كنا نسير حتى نتوقف ثم ننام. في أثناء محاولتي النوم، كنت أسمع الناس يسألون: «هل رأيت ابنتي؟» «هل تعرف أموتوني؟» كان الصوت مرتفعًا جدًّا.

سرنا فوق تلة عبر غابة إلى مساحة واسعة، أو ما أصبح مساحة واسعة عندما دفعت حشودنا الأشجار الصغيرة الرفيعة. توقفنا هناك. قرر الكبار أن هذا سيكون منزلنا. يمكنك أن تسير ميلًا وتجد مجرى ماء. يمكنك أن تسير نحو البلدة وتطلب من الفلاحين أن يشاركوك ما لديهم، رغم أن ما لديهم كان قليلًا أيضًا. إذا لم يكن الفلاحون موجودين، كان بإمكانك أخذ البطاطا الحلوة أو بعض الذرة، وفي المقابل تترك لهم كرمة بطاطا حلوة أو قميصًا، في إشارة إلى أنك تعترف بأن أخذ طعامهم كان خطأ، ولكن الخيارات أمامنا قد نفدت.

كان الحشد صاخبًا بالبكاء، والأنين، والوجوه، وتعابير الألم. لم أطرح أسئلة. كنت سعيدة لأننا لم نملك مرآة. كنت أريد أن أعتقد أن وجهي ما زال كما هو.

أصبحت تلك المساحة الواسعة مستعمرة، وبدأ الناس يموتون. لم أرَ هذا العدد من الذباب والحشرات من قبل، يومًا بعد يوم. الكوليرا،

والزحار[1]، والجروح المصابة. بدأ الناس يتجمعون في مجموعات من أجل الأمان. «**لديك بنات، ولدي بنات**»، «**أنتم صغار السن، ونحن كذلك**» لم يتحدث أحد عن الماضي أو المستقبل. الزمن بُرم وعُقِدَ؛ لقد توقف.

بقينا مع الشباب الذين لديهم بنات، وانتقلنا عبر المنطقة الخالية عندما تحولت رقعتنا إلى طين.

في إحدى الليالي، استيقظت. كانت النجوم والقمر يشعان كما لو أن شيئًا سيئًا لم يحدث قط. كانت الأجساد مبعثرة في كل مكان بلا حياة، لكنها حية.

تسللت على أطراف أصابعي بعيدًا للتبول، وعندما عدت لم أتمكن من العثور على كلير. كانت دائمًا تنام على جانبها، ومرفقها مطوي تحت أذنها. لم أستطع العثور عليها من خلال شكلها. تحركت من جسد إلى آخر، وأنا أنحني، وأربت على الوجوه.

أيقظت امرأة كان رأسها مستندًا إلى رداء كانجا[2]، وترتدي بلوزة قطنية بلون الأرض. لديها طفل صغير. طلبت منها مساعدتي في العثور على أختي.

---

(1) عدوى معوية تسبب إسهالاً شديدًا يرافقه الدم. غالبًا ما يكون مصحوبًا بألم البطن وحمى وجفاف، وعادةً ما يحدث بسبب العدوى البكتيريا أو الطفيلية، وينتشر عن طريق الأغذية أو المياه الملوثة أو سوء النظافة. (المترجم).

(2) لباس تقليدي شائع في شرق إفريقيا، ترتديه النساء عادة، ويتكون من قطعة كبيرة مستطيلة من القماش القطني الملون، وله حدود مميزة، وغالبًا ما يحمل مَثَلًا أو مقولة باللغة السواحيلية. يمكن لف هذا اللباس وارتداؤه فستانًا أو حجابًا أو حامل أطفال. (المترجم).

ربتَتْ على ردائها **الكانجا** وقالت: «**نامي هنا، دعينا ننتظر حتى طلوع النهار**».

هززت رأسي، ورفضت.

وقفت المرأة، وحملت طفلها، وسارت معي بين مجموعات الأجساد. لم نعثر على كلير. بكيت حتى شعرت بالفراغ، وبدأت أفكر في كل الأمور السيئة التي قد تحدث لي إذا لم أجد أختي. سأصبح يتيمة. سأكون ضائعة إلى الأبد. لن يعرف أحد أنني كنت أريد رداء الحمام ذا الأزرار. لن يعرف أحد أن موكامانا كانت تضطر لغناء أغنية لكي تجعلني أنظف أسناني.

كانت المرأة التي ترتدي القميص الأحمر الموحل وطفلها هادئة ومنهكة جدًّا. حاولت جاهدة مساعدتي على فهم أنني سأرى كلير مرة أخرى. جلسنا –أنا، وتلك المرأة الهادئة، وطفلها– حتى بزوغ الفجر.

عندما رأيت كلير تسير نحوي، كانت تبدو متحيرة وحزينة. ركضت نحوها. أمسكت بي وصرخت بألا أذهب أبدًا إلى أي مكان دونها. هززت رأسي موافقةً.

2000

2

أكاد لا أملك أي صور، ولا حتى تذكارات أو بقايا تُخلِّد بشاعة وجمال الأيام والشهور والسنوات التي قضيتها أنا وكلير نحاول النجاة. عندما وصلنا إلى الولايات المتحدة، في مطار أوهير الدولي، لم يكن بحوزتنا شيء. أضاعت شركة الطيران حقيبتنا الوحيدة. حدث هذا كثيرًا: فقدنا كل شيء. كنا قد تعرَّينا، مرارًا وتكرارًا، حتى الجلد.

تلك الحقيبة –الكبيرة، السوداء، ناعمة الجوانب– ما زالت تطاردني. كانت نتيجة الكثير من الكفاح، واحتوت كل ما عملت كلير جاهدة لتوفيره: ملابس أطفالها، وسترتي الحمراء المفضلة، وتنورتي ذات الأزرار الأمامية، وألبوم الصور البلاستيكي الذي بدأت كلير تجميعه في جنوب إفريقيا عندما كانت مارييت ابنة أختي طفلة صغيرة، وحين شعرنا لفترة وجيزة أننا أثرياء. تضمنت عدة صور في الألبوم حفلات أعياد ميلاد مارييت، والتاريخ الذي كنت أقيس به الزمن، حيث لم

يعد أحد يحتفل بعيد ميلادي. تظهر إحدى الصور في الألبوم ونحن في متنزه مائي في ديربان، في جنوب إفريقيا. روب، العامل السابق في منظمة كير (CARE) وزوج أختي، يحمل مارييت، ويمكن رؤية النوافير في الخلفية، وقطرات الماء تتلألأ تحت ضوء الشمس. نبدو كأننا عائلة سعيدة.

الفَقْدُ، والأضواء -الألوان الأمريكية النيونية غمرت حواسي، بما في ذلك حواسي للواقع والتاريخ، وبدأت ألوان إفريقيا تتلاشى. تراجع ماضيَّ، وأصبح باهتًا، ومشوَّشًا، ومشوَّهًا. لم أعد أستطيع تمييز ما هو حقيقي وما هو مزيف. كل شيء، بما في ذلك الحاضر، بدا مُبالَغًا فيه. وفي الوقت ذاته، بدا كأنه لا شيء على الإطلاق. الزمن، مرة أخرى رفض أن يتحرك بطريقة منتظمة؛ صفحات الكتاب كانت مبعثرة غير مرتَّبة. ما زال هذا يحدث لي: حياتي لا تبدو منطقية، أو متسلسلة، أو محتومة. لا يوجد إحساس بالفعل ورد الفعل؛ لا عواقب ولا تداعيات، لا حبكة. إنها مجرد شظايا عائمة.

لأفهم حياتي، ولأعيد تأسيس خط زمني متسلسل، فإنني أجمع المصادر الأولية. أُوَثِّق نفسي، وأجمع وأصنف الحطام والخردة: خرزاتٍ متناثرةً، وخرائطَ قديمةً، وألعابًا ضائعة، وأكياسًا بلاستيكية جميلة، وتذاكر، وأزرارًا، وكتبًا ورقية ملأى بهوامش الملحوظات. غالبًا ما أسافر ومعي **الكاتوندو**[1]، وأغراضي: وسادتي، وبطانيتي الزرقاء، وشمعة لجعل الغرفة تفوح برائحة المنزل.

أتمنى لو أنني ما زلت أحتفظ بالكوب الذي رفضت أمي أن تسمح لي بأخذه إلى منزل جدتي. بدلًا منه، غالبًا ما أنظر إلى قلادة القلب الماسية

(1) بالسواحيلية تعني الأمتعة أو الممتلكات، وهي تشير إلى الممتلكات الشخصية أو الأشياء التي يحملها الشخص، وبخاصة عند السفر أو التنقل. (المترجم).

التي أهدتني إياها السيدة توماس في عيد ميلادي الحادي والعشرين. إنها إرث عائلي؛ الإرث الوحيد الذي أملكه. ورثتها السيدة توماس من جدتها. عندما وضعتها السيدة توماس لأول مرة حول عنقي، بَكَتْ وشعرتُ بالحُبِّ والراحة بسبب بكائها. قلتُ في نفسي: هذا هو الانتماء. أنا لست مجرد شخص يعيش مع أحدهم. إنني أنتمي إلى هنا.

أحتفظُ أيضًا بهدية اشترتها لي أمي من متجر الدولار الواحد في الحي الذي تسكن فيه، بمناسبة عيد ميلادي الخامس والعشرين: مرآة صغيرة مستطيلة محفور عليها مسبقًا قصيدة للابنة. تقول:

سأحبك دائمًا
للأبد وما بعدَه
أنتِ معنى حياتي
وستظلين أغلى ما لديَّ

أحتفظ بنسخ مصورة من صفحات ألبومات صور الآخرين: صور لي وأنا أرتدي ملابس مستعارة ضيقة جدًّا، وصورتي وأنا أقف بجانب ابن العائلة الأمريكية التي استضافتنا أولًا. كان يرتدي، بلا أي سخرية، قميصًا كُتِبَ عليه: «نجوت من معسكر كرة السلة». أحتفظ أيضًا بكتيِّبات المتاحف، مثل الذي أملكه حول نسج السلال الرواندية. أحتفظ بلعبة «ماي ليتل بوني» التي كانت ملكًا لابنة كلير الصغرى؛ حيث وضعتها مرة في حقيبتي بالخطأ عندما كنت أنظف منزل كلير.

حقيبتي **الكاتوندو** الخاص بي هي ما تثبتني وتجعلني متوازنة، وهي ذاكرتي الخارجية، وعزائي وأملي. جزء مني يؤمن أنه إذا تمكنت

من العثور على الترتيب الصحيح للأجزاء –إذا استطعت تجميع الخرزات كلها بالترتيب المناسب، ووضعتها تحت الإضاءة المناسبة– فسأتمكن من بناء سردية لحياتي تبدو جميلة بالنسبة لي وذات معنى.

كان هناك أشخاص يحملون لافتات كُتِبَ عليها: «مرحبًا بكم في أمريكا» يسيرون باتجاهنا. كنت في الثانية عشرة. كانت كلير في الواحد والعشرين. وقفنا منتصبتَيْن ومذهولتَيْن في حين احتضننا هذان الزوجان البيضاوان نحن الخمسة: أنا، وكلير، وروب، وماربيت ذات الأربع سنوات، وفريدي، الطفل الثاني لكلير وعمره عامان. كان الزوجان يحملان بالونات لماربيت، وفريدي، ولي، باعتبارنا الأطفال المفترضين. في حين قدَّما لكلير وروب بطاقات هدايا بقيمة 100 دولار لمتجر أولد نيفي.

عشتُ أنا وكلير في سبع دول مختلفة منذ مغادرتنا رواندا. كانت الولايات المتحدة هي الثامنة. كنت قاسية وساخرة. لم أثق به اللُّطف والطِّيبة؛ كنت أعتقد أن ذلك له ثمن. ظننت أنني أستطيع خداع الناس ليعتقدوا أنني لم أتعرض لجروح عميقة.

لقد كنا نحدق فقط إلى مضيفينا –هذه المرأة الجرمانية متوسطة العمر ذات الشعر الأشقر المجعد القصير وزوجها النحيف. كانا يحملان ورقة كُتِبَت عليها أسماؤنا. كانت تفوح من سيارتهما رائحة جديدة. كان الشامبو الذي يستخدمانه برائحة زهرة البلوميريا (الياسمين الهندي). كان هناك الكثير من منازل الأسمنت. لقد مضت ست سنوات على آخر مرة رأيت والدتي فيها.

السيارة المتحركة، يداي –كان كل شيء يبدو غريبًا خفيفًا، كأننا ما زلنا في الجو، ننجرف دون مسار طيران واضح. فقط قبل ثلاثين ساعة، كنا نعيش في حي فقير في زامبيا، فقير لدرجة أنه عندما عدت إلى ذلك

المكان لزيارته مع كلير بعد سبعة عشر عامًا، قفزت من سيارة الأجرة ساخطةً.

أرادت نفسي البالغة الحاصلة على الشهادات والقيمة المعترف بها، أن تمنح الأطفال الحفاة شعورًا بأنهم ذوو قيمة أيضًا. لذا، رغم احتجاج كلير، قفزت من سيارتنا المُكَيَّفة إلى الأجواء الحارة ووزعت بعض العلكة من حقيبتي.

كانت تلك فكرة سيئة للغاية. كلير كانت تعلم ذلك، وأنا كنت أعلم أيًضا، رغم أنني حاولت إبعاد الفكرة عن ذهني. عندما رأى آباء هؤلاء الأطفال شخصًا غريبًا أسود يبدو ثريًّا يوزع الحلوى على أطفالهم، أمسكوا بأطفالهم، ووبَّخُوهم، وساروا بهم مبتعدين، معتقدين أن هديتي كانت الخطوة الأولى في لعبة السيطرة. كنت واحدة من هؤلاء الأطفال، فقيرة وأعيش في ذلك المكان، ولم أقبل الحلوى قط، ولا لمرة واحدة. كانت الحلوى باهظة الثمن للغاية.

لكننا الآن هنا، في شيكاجو، مع بالوناتنا والمباني الأسمنتية من حولنا. كنا سعداء، أو على الأقل عرفنا أنه كان من المفترض أن نكون كذلك. لقد شاهدنا الأفلام. إنها أمريكا المتألقة.

ما زالت كلير تحتفظ ببشرتها الناعمة اللامعة، وابتسامتها العريضة، وعينيها اللتين تبدوان أكثر حيوية من الجميع، وقدرتها على التواصل مع الغرباء في ثلاثين ثانية فقط، وموهبتها في إبعاد المقربين منها. كانت قد سمعت أن شيكاجو باردة، لذلك قبل مغادرتنا لوساكا اشترت لنا جميعًا سترات منتفخة. كانت قد أتقنت التعامل مع السوق الزامبية. يمكنك أن تطلب منها في الصباح الحصول على أونصة من الذهب، وستحصل عليها في غضون ثلاث ساعات.

ولكن الآن كان شهر آب في إلينوي، والجو حار، وبحلول الوقت الذي أوصلتنا فيه ميشيل بيكر، المرأة الجرمانية ذات الشعر القصير، إلى منزل القسّ في شارع مرصوف مملوء بالأشجار في ضاحية جلينفيو[1]، كنا نغرق في العرق.

القسّ وزوجته أعدًّا لنا أَسِرَّة مرتبة ومريحة في الطابق السفلي -«**ستنامين هنا، وأنتِ ستنامين هناك، وهذه هي المناشف**». ملؤوا مائدة الطعام بالدجاج المشوي، والبيتزا بالجبن والفطر، والبيتزا بالبيبروني، والسلطة، وأضلاع اللحم، وأطباق الفاكهة. كان الجميع لطيفين للغاية، تغمرهم روح السعي بالغاية والهدف الواضح. لكنني كنت مجروحة جدًّا وفاقدة الثقة بالآخرين لدرجة أنني لم أفهم السبب.

لاحظت أن رعاتنا الجدد في أمريكا يتعانقون كثيرًا. أنا وكلير لم نتعانق. لم أعانق مارييت أو فريدي أيضًا، رغم أنني أحببتهما واعتبرتهما بمنزلة أولادي وفعلت كل ما بوسعي لإبقائهما على قيد الحياة. كان الاهتمام بالأحباء في عالمي لا يعتمد على العاطفة، وإنما كان قائمًا على الخوف من فقدانهم.

عشنا مع عائلة بيزلي في جلينفيو لمدة ثلاثة أشهر. حملت كلير مرة أخرى. رغم كل ما حدث معها، كانت زوجة شابة ساحرة، بشعرها المربوط على شكل عقدة فوق رأسها كالتاج الناعم. مارييت فتاة بريئة صغيرة، وفريدي طفل صغير. أما أنا ... فماذا كنت؟ كنت مراهقة.

لعائلة بيزلي ابنة تدعى سارة، تبلغ من العمر ثلاثة عشر عامًا. ابتسمت لي وأعطتني حقيبة صفراء مزينة بزهور عباد الشمس وفي

---

(1) قرية في الضواحي، وتقع في مقاطعة كوك في ولاية إلينوي، وهي خارج شيكاجو مباشرة. (المترجم).

داخلها غسول للجسم وصابون استحمام. استخدمت كمية قليلة فقط في كل مرة. أردت أن يدوم الغسول والصابون.

عائلة بيكر، التي استقبلتنا في المطار، لديهم أيضًا ابنة، جوليا، وتبلغ من العمر إحدى عشرة سنة. لم أفهمها ولم أفهم سارة. لم أفهم الطريقة التي تضحكان بها –كانتا تضحكان على كل شيء، وتسمحان لأمهما بالقيام بالأعمال المنزلية. كانتا تنفقان أموالهما على بلسم الشفاه من ماركة سماك. كانتا تتحدثان مع والدَيْ بعضهما بعضًا بسلاسة، وبالحد الأدنى من الحدود. سارة كانت تقول: «مرحبًا ميشيل!» لأم جوليا، دون استخدام ألقاب احترام؛ لم أستطع التواصل معهما.

لسارة غرفة خاصة بها. هي وجوليا أرادتا أن تجعلاني أشعر بالراحة، وهي مهمة عديمة الجدوى. خططتا لإقامة حفلة مبيت، ونَفَشَتا الوسادة الأفضل وقدمتاها لي، وبطريقة ما، ذلك التصرف –نفش الوسادة– جعلهما في عينيَّ ضعيفتين وسخيفتين. كنت شديدة الاحتقار، وشديدة الدفاعية، ومن السهل إعطائي ولكن من الصعب إرضائي.

لم أتمكن أنا وكلير من الاسترخاء. لم تكن لدى أي منا القدرة على الاستمتاع بهذا العالم المترف الجديد. لقد عملنا بجد وهربنا بعيدًا، فقط لندور في دائرة عملاقة معاكسة. والآن نحن هنا. سمح لنا آل بيزلي بغسل الأطباق. كان ذلك العمل الوحيد المسموح لنا به. كنا نشعر أننا نفقد قوتنا في الاقتصاد غير المعلن، أو هكذا ظننا. كلير لم تكن تكسب المال؛ كانت دائمًا تكسب المال. الآن، كلير بعينيها النابضتين بالحياة كانت تراقب السيارات تمر.

في منتصف تلك الليلة الأولى في منزل القسّ، عندما استيقظت للذهاب إلى الحمام، صعدت السلالم، وفتحت الثلاجة، وحدقت. لم أرَ ثلاجة بهذا الحجم إلا في المجلات والتلفاز. كنت أشعر بالدهشة

والانبهار، ولم أستطع التوقف عن التفكير في أنه لو رأى جيراننا في الحي الفقير في زامبيا هذا، لشعروا بالفزع. كيف يمكن لمكان واحد أن يمتلك هذا القدر من الفائض، في حين أنه في مكان آخر على بعد رحلة طائرة فقط، يجوع الناس؟ كانت ذراعا فريدي نحيفتين وبطنه كبيرًا مستديرًا من سوء التغذية. جسمه هنا الآن، سيُطعَم ويُعالَج. هناك الكثير من الأطفال مثل فريدي في هذا العالم.

بدأ ذهني يتأرجح: **هذه حياتي ولكنها ليست حياتي. إنني أستحق هذا الآن لأنني عانيت.** لكن بعد ذلك توقف ذهني فجأة. هل جميع الناس الذين يأكلون من ثلاجات كهذه عانوا أيضًا؟

كان الجميع يريدني أن أسترخي، أن أتوقف عن القلق بشأن أطفال كلير، أن أكف عن التنظيف المهووس، وأن أتصرف أخيرًا كطفلة وأعوض كل ما فقدته. كنت في الثانية عشرة من عمري، لكنني شعرت بأنني في الثالثة والخمسين، ومع ذلك كنت أعلم أن عليَّ أن أندمج. كانت الفتيات الأخريات في عمري يرتدين شورتات قصيرة، لذا ارتديت شورتات قصيرة أيضًا. لكنني لم أتمكن من أن أكون مثلهن، مرتاحة ولا هَمَّ يشغل بالي. لم أدرك مفهوم الراحة الجسدية، ولا بأي لغة. كنت أغلي بالحسد والغضب، وغالبًا ما كنت أخلط بينهما.

في أحد الأيام، حين كنت جالسة على العشب، أراقب السيارات تمر، فتحت السيدة بيكر التي تعيش في الجهة المقابلة من الشارع مرأبها. كان المكان مليئًا بالغبار وتتكدس فيه المعدات الرياضية، بالإضافة إلى كراسي قابلة للطي، وأدوات الحديقة، وعلب طلاء، وسلالم، وصناديق كرتونية.

أخرجت كل شيء ووضعته في الممر، ثم كنستُ أرضية المرأب، ومسحت جميع الأسطح، وأعدت تكديس الصناديق، ونظمت المعدات. وجدت خطافات لتعليق السلالم والكراسي. طوال الوقت كانت السيدة بيكر تقول: «كليمينتين، **لا**[1]». لم أعرف الإنجليزية تقريبًا ولا الفرنسية كثيرًا، لكنني استطعت استنتاج أنهم أغنياء، فقط من خلال البقايا التي استغنوا عنها.

كان اللطف وتقديم الهدايا هائلَيْن. كان أفراد من جماعة الكنيسة يحضرون لنا ملابس مستعملة، وكتبًا، وألعابًا لأطفال كلير. كان الجميع يريد مساعدتنا. جعلهم ذلك يشعرون بالرضا. الآن أفهم وأحترم ذلك، لكنني في ذلك الوقت كنت قد خرجت للتو من حي زامبيا الفقير منذ أسابيع قليلة. كان الكرم مشبوهًا، ولم يكن أي شيء يبدو منطقيًّا.

في أحد الأيام بعد الإفطار، رسمت السيدة بيزلي صورة لمنزل على ورقة. ثم دفعتها عبر طاولة المطبخ نحوي، مع علبة من الأقلام الملونة، لكي أريها كيف كان منزلي في رواندا.

لم أتعاون معها. لم أستطع. لم أشعر بعد بأنها تعرف ما كانت تطلبه مني. لم أرغب في الحفر داخل ذاكرتي لاسترجاع الماضي. لم أعرف حقًّا كيف أستعيد ذلك المكان الآمن سابقًا، مع المطبخ الخارجي، والسقف الأحمر، وزهور عصفور الجنة. كان الحنين ممارسة مدمرة، ونكأً لجراح ما تزال مفتوحة، خِيطت بشكل سيئ.

لم أتحدث أنا ولا كلير عن أي شيء، قط. كان قولي إنني أشتاق إلى منزل طفولتنا سيبدو غريبًا، كأنني أخبرها أنني أفتقد ارتداء أحذية الأطفال. كان التنازل الوحيد لكلير إلى ماضٍ تتوق إليه هو رغبتها في

(1) «لا» بالفرنسية في الأصل. (المترجم).

تناول **الأوجالي**[1]، عصيدة الذرة التي كنا نأكلها كثيرًا في السنوات الست الماضية. قالت كلير لنفسها إن الأوجالي لم تكن مجرد ذكرى، بل هو غذاء. كان **الأوجالي** مصدر قوة بالنسبة لنا: **كسبنا القليل من المال، حسنًا، لن نجوع اليوم.** أخذتنا السيدة بيزلي إلى المدينة، إلى وورلد ماركت (World Market)، الذي يلبي احتياجات المهاجرين الأفارقة واللاتينيين في شيكاجو. بدا أن البفرة ومسحوق الفول السوداني هناك جعلا كلير ولو للحظة تشعر بالكمال.

في جلينفيو، طبخت كلير **الأوجالي**. وَقَفَتْ أمام الغاز ببطنها الكبير وهي تقلب. قالت لي باللغة السواحيلية عندما قدمته لي: «إذا لم تأكلي **الأوجالي**، فإنك لم تجربي الطعام الحقيقي».

(1) الغذاء الرئيسي في العديد من البلدان الإفريقية، وبخاصة في شرق وجنوب إفريقيا. وهو نوع من العصيدة الصلبة المصنوعة من دقيق الذرة الممزوج بالماء، ويُطبَخ حتى يشكِّل قوامًا سميكًا يشبه العجين، ويُقَدَّم عادةً باعتباره طبقًا جانبيًّا مع اليخنة أو الخضار أو اللحوم. يُعرَف الأوجالي أيضًا بأسماء مختلفة حسب المناطق، مثل بوشو في أوغندا، وسادزا في زيمبابوي. (المترجم).

1994

3

لا بدَّ أن المزارعين في بوروندي اشتكوا. كنا في حالة احتياج شديدة. أصبحنا نسرق الطعام ولا نترك لهم شيئًا –لم يكن لدينا ما نقدمه أصلًا.

في أحد الأيام، وصلت شاحنة تابعة للصليب الأحمر. شعرت السلطة بالاطمئنان. دعا السائق النساء الحوامل والجرحى للجلوس في الخلف. وأمر بقيتنا أن نتبعها سيرًا على الأقدام. كنا مجرد حشد؛ قطيع من الناس. مشينا ليوم كامل تقريبًا قبل أن نصل إلى انجوزي، عند تلَّتَيْن مغطَّاتَيْن بالخيام البيضاء والزرقاء.

انضممت إلى الهتافات غير المتزنة، أنادي وأصرخ بأسماء «**بودي! بو –دي!**»، متأكدةً من أن أخي سيكون هنا. كان هناك العشرات من الرجال الذين يعملون حراسًا، وجروني للعودة إلى الطابور بجانب كلير. هؤلاء الرجال كانوا يشبهوننا تمامًا، لكننا كنا بائسين، أما هم فلم يكونوا كذلك. فعلنا كما قيل لنا.

عندما وصلنا إلى مقدمة الطابور، أمسكت امرأة بيدي وغمرتها في دلو من الحبر الأرجواني. الصبغة على يدي كانت تعني أنَّني أُحصِيتُ. لم يسألني أحد عن اسمي –كان هناك الكثير من الناس لدرجة أن الأسماء لم تكن هامة. لم يهتم أحد بأنني كنت في السادسة من عمري. أعطوني أنا وكلير خيمة، وجرتين من الماء، وبطانيتين خشنتين، وكيسًا بلاستيكيًّا كبيرًا، ووعاء.

أشار رجل إلى جزء من التل حيث كان من المفترض أن ننصب خيمتنا هناك، ثم أشار إلى الوادي بين التلال حيث كان من المفترض أن نقف في طابور، مرةً شهريًّا، لملء كيسنا البلاستيكي بالذرة والفاصولياء. كان حمام المخيم قريبًا من الخندق الذي حفره عمال الإغاثة للبحث عن الجثث. كنت أخاف الذهاب إلى هناك، أما كلير فلم تكن تخاف.

لبضع ساعات، كنت أشعر بالنشوة. كنت أقول لنفسي: «بالطبع سنجد والدينا هنا». ثم نظرت حولي. مئات المرضى على الأرض يتألمون، عشرات الجرحى يصرخون. كانت خيمتنا واحدة من مجموعة مكونة من اثنتي عشرة خيمة أخرى. وفي الوسط، كان هناك موقد، إذا جازت تسميته كذلك. امتدت مربعات الخيام مثل خيمتنا –وحدات– في جميع الاتجاهات.

فقدت إحساسي بنفسي. أصبحتُ سلبية؛ مجرد متلقية للاحتياجات. كنت جائعة، وعطشى، وبحاجة إلى حمام، وإلى مكان للنوم. كنت مشوشة للغاية. كنت أدور في حلقة مفرغة. **كيف وصلت إلى هنا، حيث أصبحت لا شيء؟ أَمَشينا هذه الطريق كلها من أجل هذا؟!**

حيثما تلتفت، ستجد الناس وقد تحوَّلوا إلى حجارة. إذا لمستهم سيتحولون إلى رماد. لذا بقوا ساكنين وصامتين، يحاولون ألا يتحطموا.

لا يمكنك أن تحكي القصة: **فقدت أطفالي، وزوجي، وعائلتي بأكملها –وليس لدي فكرة عن مكاني في هذا العالم.**

كان البقاء على قيد الحياة يتطلب جهدًا هائلًا. انتظرنا خمس ساعات في الطابور من أجل الذرة، وخمس ساعات أخرى من أجل الفاصولياء. كان علينا جمع الحطب. لم يكن لدينا أعواد ثقاب، لذا كان إشعال النار مهمة شاقة. كان علينا البحث عن الدخان، وعندما نراه، نذهب إلى هناك ومعنا بعض الحطب لنحمل النيران إلى وحدتنا.

كان علينا تذكر رقم وحدتنا –وهذا لم يكن سهلًا على فتاة في عمر السادسة.

علينا أن نحاول الاحتفاظ بأسمائنا، رغم أن أحدًا لم يكن يهتم بها. علينا أن نحاول البقاء بشرًا. أن نحاول ألا نصبح غير مرئيين. إذا استسلمت وسقطت في الفوضى ستُمحى، ستصبح مجرد رقم في وحدة، والتي هي أيضًا مجرد رقم. إذا مت، فلن يعرف أحد. إذا ضعت، فلن يعرف أحد. إذا استسلمت وانهرت داخليًّا، فلن يعرف أحد.

بدأت أقول للناس: **أنا كليمينتين، أنا كليمينتين، أنا كليمينتين! لا أريد أن أضيع. أنا كليمينتين!**

اعتقدت أنني إذا كررت اسمي بما يكفي، ستعود هويتي كما كانت. كتبت اسمي في التراب. كتبته على الغبار. لكن الاسم مجرد غلاف، مجرد عنوان، وليس القصة بأكملها. الاسم هو وعاء مثقوب، تحتاج إلى ملئه باستمرار. إذا لم تملأه، فإنه يفرغ ويصبح مجرد قشرة جافة وفارغة.

فقدت نفسي على أيَّة حال، حتى التفاصيل الصغيرة التي كانت تعنيني. كنت دائمًا أحب الصابون الفاخر في منازل خالاتي. كنت أحب الصابون الذي يفوح منه رائحة إبرة الراعي والليلك أكثر من غيره. الآن لم يكن لدينا ورق تواليت. لم يكن أحد في المخيم لديه ورق تواليت.

يبدو أن مفوضية الأمم المتحدة لشؤون اللاجئين قررت أن الكرامة الإنسانية ليست أولوية، وقابلة للاستغناء عنها. كنا كثيرين جدًّا على محاولة أن نحظى بها ويُهتَمَّ بنا.

كنت أبحث عن أوراق أشجار ناعمة –مثل أوراق الكافور الطرية الزاهية الألوان. كنت أنعمها وأخفيها في زاوية من خيمتنا. كل من لم يستسلم تمامًا كان يحتفظ بمخزون سري. كنا جميعًا نسير ونحمل أوراقًا في جيوبنا ونتظاهر بعدم ملاحظة بعضنا بعضًا.

شعرت بالقمل وهو يزحف على رقبتي، من شعري نحو أذني. رأيت الناس جالسين بجانب خيامهم لساعات، يلتقطون الحشرات من أطراف ملابسهم. القمل في الملابس أصغر وأصعب قتلًا من القمل في الشعر. كنت أفحص أطراف ملابسي –حزام تنورتي البنفسجية وأكمام سترتي الحمراء. وجدت المئات، ربما الآلاف، ممالك كاملة بائسة.

عندما كان الجو باردًا ليوم أو يومين، كنت أنسى القمل لبضع لحظات. لكن عندما كان الجو حارًا، كنت أُجَنُّ تمامًا. حتى جسدي لم يكن ملكي. شعري كان مُداهَمًا ومحتلًا. سريري كان مغزوًّا. الأمر ذاته ينطبق على ملابسي. البيوض كانت في كل مكان. المزيد كان قادمًا. كانت قادمة. لم تكن هناك فرصة للانتصار في هذا المعركة.

لذا استسلمت، وغرقت مرة أخرى في بحر الإذلال. قادتني كلير إلى رجل في المخيم يمتلك موس حلاقة، وحلق لي شعري. تقريبًا جميع الأطفال في المخيم كانوا صلعًا. لم أرد أن أكون مثلهم. أردت أن أكون مميزة، فبكيت لأيام.

كان كل سطح وكل جزء من جسدي ساحة معركة في النضال من أجل البقاء إنسانًا. كنت أفتقد أمي أكثر عندما أستحم. لم تكن كلير تساعدني. لم أتمكن من الوصول إلى جميع البقع في ظهري. بالإضافة

إلى القمل في رؤوسنا، كانت هناك نوعية أخرى من الحشرات تحفر في أقدامنا. خضنا حربًا يائسة ضدها. كانت استراتيجيتنا الوحيدة الممكنة للفوز مستحيلة: أن نحافظ على أقدامنا نظيفة.

وجدت كلير صخرة مسطحة كبيرة ووضعتها بجانب خيمتنا. كل صباح كنا نتناوب للوقوف على تلك الصخرة ونستخدم الماء المتبقي من غسل الأطباق في الليلة السابقة لفرك أقدامنا. وكنا، إذ ما نزال واقفتين على الصخرة، نرتدي أحذيتنا. ثم نقضي بقية اليوم نحاول إبقاء أقدامنا بعيدًا عن التراب المليء باليرقات. كنا نفشل في ذلك يوميًّا. كيف لنا ألا نفشل؟ حياتنا كانت مُعَدَّة للإخفاق. أحذيتنا كانت ممزقة. كنا نعيش في العراء. وعندما تحفر الحشرات في أقدامك، تصبح عاجزًا عن المشي لأيام. كان علينا استخدام دبوس -إن وجدناه- لاستخراجها. وإذا لم نتمكن من الوصول إليها أو إذا تركنا رأس الحشرة في اللحم بالخطأ، كان علينا نقع أقدامنا في الرماد والماء المالح، إن استطعنا إيجاد الملح.

إذا بقيت الحشرات، فإنها تتكاثر. تحفر في أجزاء أخرى مجاورة من الجلد. وعندما يحدث ذلك، ترتفع حرارتك. حظًّا سعيدًا لأي لاجئ يصاب بالمرض.

كانت الذرة رمادية اللون، وصلبة كالحصى. طبخها شبه مستحيل.

كان موقدنا يتكون من ثلاث كتل خرسانية، بُنِيَت حولها أسطوانة طينية. كنا نضع الحطب في الفتحات الداخلية. كنت أصغر فرد مسؤول في وحدتنا، لذا أُوكِلَت إليَّ مَهَمَّة مُهِمَّة وبائسة: مراقبة القدر على الموقد وإضافة الماء للذرة والحطب للنار، لأربع أو ست أو حتى ثماني ساعات متواصلة. كان الموقد ينبعث منه الكثير من الدخان، لدرجة أنني كنت أخشى فقدان بصري.

لكن لم أرغب في رؤية الأعين المليئة بالألم والغضب وهي تحدق إليَّ. كنت حذرة ولم أحرق الطعام قط. لم يكن لدينا أطباق. كنا نأكل من أغطية القدور كأطباق. كل الخيارات المتاحة لتناول الذرة كانت سيئة. إذا أكلتها فورًا، فستحرق أصابعك. وإذا تركتها لتبرد، ستؤلم فكك عند مضغها. كانت تتصلب تمامًا في غضون خمس عشرة دقيقة، كما لو أنها لم تُطبَخ قط. لم يكن للذرة أي رائحة أو نكهة. كنت أكرهها وأرغب في مقاطعة الوجبات، لكن إن لم أتناولها ستظل معدتي تقرقر طوال اليوم.

أعددتُ قائمة بالأشياء التي سأبكي بشأنها، حتى إذا سألني أحدهم: «لماذا تبكين؟» سيكون لدي شيء لأقوله: **بطني يؤلمني، أو حلمت بكابوس، أو أشتاق إلى أمي، أو ذلك الصبي الأكبر يسخر مني.**

لم أعرف في الغالب لماذا كنت أبكي. لم أدرك أنني لن أعود إلى المنزل. معظم الناس في المخيم كانوا من المزارعين الفقراء من جنوب رواندا وبوروندي. كانوا يعلمون أنهم لن يعودوا إلى ديارهم قريبًا. كنا محظوظين –كنا **الأثرياء**. في كيجالي، كنت أملك تلفازًا. كان لدى أبي سيارات. هنا، كان لديَّ أخت لا تُقهَر، حتى وإن كانت مستاءة مني. مصيرهم لم يكن مصيري.

لم يحبنا الناس كثيرًا. كنا الفتيات الغنيات، وكان لدينا الكثير لنتعلمه. كل الكماليات الصغيرة للحياة في المدينة، وآداب المائدة، والزهور المقطوفة، وحلم كلير بالذهاب إلى جامعة ماكجيل –كل هذا أصبح بلا فائدة.

لم نكن نرغب في إخبار الناس أن والدينا ليسا معنا. عندما سُئلنا، كانت كلير تقول: «ليسا معنا في الوقت الحالي». وكان الجميع يردون بالقول: «**Mana yanjye we!**» –يا إلهي، إنكم مساكين، يا له من أمر مُفجِع! لم يكونوا ينظرون إلينا مباشرةً، بل من أعلى إلى أسفل.

عندما لم أكن أطهو الطعام، كنت أجلس على صخرة وأراقب الناس وهم يدخلون المخيم، وجوههم متراخية من الهزيمة والارتياح. لم يعد لدي أي أمل. لم أعد أتوقع رؤية شعر أمي الناعم المتموج. لم أعد أتوقع رؤية ذراعَيْ بودي النحيلتين. بالكاد كنت أتذكر بقية شكل جسده وملامحه.

لكنني رغم ذلك انتظرتُ. كنت أخبر الأطفال الآخرين بأنه إذا جلسوا معي في أثناء انتظاري سأعطيهم حلوى أو بالونات. وكان الأطفال الصغار يصدقونني. لم أشعر بالندم بسبب ذلك.

في غضون شهر، أصبح لدي طبقة صلبة رفيعة في أقدامي. كنت أمشي في كل صباح لمدة ساعتين أو ثلاث لجلب الماء. ثم كنت أنتظر في الطابور عند المضخة، حاملةً جرتيْن بلاستيكيتين، كل واحدة بِيَدٍ لمدة ساعة أخرى. النساء الأخريات، اللاتي كن ربما في السابعة عشرة من أعمارهن فقط، كنَّ يحاولن التنمر عليَّ لإخراجي من الطابور.

«هل تستطيعين حمل هذه الجرة؟ إنها أكبر من رأسك. إنها أكبر من جسمك كله».

كنت أوجه لهن نظرة التحدي التي أتقنتها حديثًا، والتي تقول: «لا تتجرأن على العبث معي». طورت تلك النظرة بإقناعي لنفسي أنني أكبر سنًّا منهن بضعفين وأقوى بخمس مرات من هؤلاء النساء البائسات، اللاتي لم يكن بإمكانهن التعامل مع حياتهن إلا بجعل طفلة في السادسة من عمرها تشعر بأنها صغيرة. لم يكن تصرفي مُرَحَّبًا به دائمًا، ولم يكن متقنًا في العادة أيضًا.

أخذت على عاتقي الاهتمام بالأطفال الآخرين في المخيم، وكانوا يثيرون في داخلي الاحتقار والغضب. كثير منهم كانوا يسيرون عراة. كنت أراهم بائسين وضعفاء. كنت قد أصبحت خبيرة في شيء واحد

فقط خلال حياتي القصيرة: كنت أعرف ما يعنيه أن تحظى برعاية الآخرين. وكان ما يتلقونه من معاملة لا يرقى إلى ذلك.

في أحد الأيام، جاء عمال المفوضية السامية للأمم المتحدة لشؤون اللاجئين (UNHCR) بأكياس ملابس: قمصان قديمة، وسترات، وملابس داخلية، وسراويل. أخذت مجموعة من الملابس ملء ذراعيَّ، وعدت بها إلى خيمتنا، وجمعت كل الأطفال الصغار العراة لأعطيهم شيئًا يرتدونه. عندما نفدت الملابس، كنت أصرخ: «أين والدتك؟ اذهب واطلب منها أن تلبسك ملابس».

اشتكى الآباء لكلير: «**أختك الصغيرة ترعب أطفالنا**». لم أستطع السيطرة على نفسي. لم أتحمل رؤية الأطفال الصغار في عمر الثانية والثالثة عراة. كانوا يبدون لي كأنهم كلاب ضالة –قذرون، غير محبوبين، يسيل لعابهم، والحشرات تزحف على وجوههم، والذباب يحوم حول أعينهم دون أن يكلف أحدهم نفسه عناء صفع الذباب.

في أحد الأيام، حاولت أن أغسل طفلًا صغيرًا على صخرتنا. فاندفع بعيدًا، كما لو كان يحاول الهرب، فأمسكت بمعصمه وصرخت: «اجلس».

بعد فترة قصيرة، بدأت في توبيخ الآباء: «قيدوا أبناءكم بالسلاسل». وبعد فترة وجيزة، مُنِعتُ من دخول مناطق معينة في المخيم.

تعمدت تجنب الذهاب إلى الحمام قدر الإمكان. أكبر مخاوفي هو السقوط في حفرة المرحاض الملوثة المقززة. في أحد الأيام، سقط طفل فيها. واضطر رجل يحمل دلوًا إلى إنقاذه من هناك.

عندما كنا نسمع صوت شاحنات برنامج الأغذية العالمي، كنا نحن الأطفال نركض حُفاةً ودون قمصان، ندفع بعضنا ونتعثر في المسارات غير المستوية. أما الكبار فلم يكونوا يهرعون، كانوا يسيرون ببطء، يجرون أنفسهم على مهل فوق التل حاملين أكياسهم البلاستيكية

الممزقة. وعندما يُسألون، كانوا يظهرون بطاقاتهم الحمراء التي تحدد حصصهم من الذرة.

بعد فترة، بالكاد كنا نستطيع أكل الذرة. كانت تسبب الإمساك لعدة أيام. في الليل، أحد الشبان من وحدتنا يخرج سرًّا من المخيم ليجد طحَّانًا في البلدة يقوم بطحن الذرة إلى دقيق.

دقيق! لقد جعل هذا حياتي أسهل بكثير. استطعت الآن الطبخ بإضافة الدقيق إلى الماء المغلي وتركه ليُنقَع لمدة خمس عشرة دقيقة. أو أضيف ما يكفي من الماء لصنع عجينة كثيفة، ثم أضع هذه العجينة في أوراق الموز وأبخرها فوق الماء المغلي. أو أعجن الدقيق والماء لصنع عجينة وأطهوها على نار جافة، بوضع قدرنا على أحجار ساخنة.

كان هناك شخص ما، في منصب ما داخل مفوضية اللاجئين، يهتم بما يكفي، أو هكذا بدا لي، ليدرك أن الذرة وحدها لا يمكن أن تغذي جسمًا ما زال ينمو. لذا مرة في الشهر، كان عمال الإغاثة ينادون جميع الأطفال إلى مركز الأطفال، الذي كان في الواقع مجرد قماش مشدود مُعَلَّق لتوفير الظل، بأرضية ترابية، ودون جدران. كنا نحصل على نصف حبة فيتامين حمراء –نصف حبة فقط، لا حبة كاملة.

وأيضًا، مرة في الشهر، في يوم آخر، كان كل طفل يحصل على بسكوتة. البسكويت مصنوع من زيت فول الصويا ومسحوق البروتين، وطعمها مثل الكرتون المنقوع في السكر.

مرة في الشهر: نصف حبة فيتامين. ومرة في الشهر: بسكوتة. كان الأمر أشبه بمزاح سيئ وإغاظة مروِّعة.

حاولت أن أظلَّ يقظة بشأن الحشرات. حاولت أن أبقى نظيفة. حاولت أن أتذكر من كنت **قبل** هذا كله. حاولت ألا أبكي. لكن كانت الحشرات دائمًا في أقدامي، وفي ملابسي، وفي فراشي. حاولت التظاهر

بأن هذا الوضع كان مقبولًا، بأنني لم أشعر بالاشمئزاز، بأن عالمي لم يصبح لونًا ضارًّا مؤذيًا من الأصفر والأخضر، بأنني لم أشعر أنني مدفونة، بأنني لم أشعر أنني لا أساوي شيئًا سوى أن أكون طعامًا. كنت أنجح في التظاهر بهذه الخدعة للآخرين. عندما كنت أصقل درعي، كنت أتمكن من إعطاء انطباع أنني: **أنا كليمينتين. أنا ذات قيمة. أنا مقاتلة. أنا إنسان.**

لكنني لم أستطع خداع نفسي.

كانت لحظة الرقة الوحيدة التي سمحت لنفسي بها هي الغناء قبل النوم. علمتني أمي أغنية:

اقتربي من الرب وأخبريه
عن كل ما يؤلم قلبكِ
عن كل ما يُحزِنكِ
عن كل ما يجعلك تشعرين بالوحدة...
ناجيه همسًا
الرب معك دائمًا لم يتخلَّ عنكِ ولن يتركك.

علمتني أمي هذه الأغنية كي تبهجني عندما أشعر بأنني مظلومة أو في مزاج سيئ –مثلًا، إذا لم يرغب بودي في اللعب معي أو إذا كسرت لعبة مفضلة لدي. كنت أغني هذه الأغنية لمدة عشر دقائق كل ليلة، ولكن الآن، كنت أشعر بالألم طوال الوقت.

2003-2000

4

في الليلة التي سبقت دخولي المدرسة، بقيت مستيقظة وأنا أتدرب: «صباح الخير. سُرِرتُ بلقائكم. اسمي كليمينتين. شكرًا».

كنا قد انتقلنا إلى شقة مستأجرة في شارع نورث وينثروب، في الجهة الشمالية من شيكاجو، قرب محطة ثورنديل على الخط الأحمر. كانت الشقة في الطابق الرابع، وتتكون من غرفة نوم واحدة. بدت الشقة فاخرة بالنسبة لنا. الكنيسة جمعت التبرعات لشراء المفروشات من أجلنا، وأصبح لدي سرير نهاري في غرفة المعيشة، مغطى بغطاء أبيض ومليء بالوسائد. في كل مرة كنت أدخل الشقة، كنت أقول في نفسي: «**هذا سريري، هذا سريري**».

شاركت السرير مع ماربيت، لكنني اعتبرته ملكًا لي.

رن المنبه عند الساعة الخامسة صباحًا. كويت ملابسي الجديدة المخصصة للمدرسة الإعدادية الأمريكية، وهي الجينز والسترة التي

اخترتها من متجر أولد نيفي، وارتديت العقد الذي أهدتني إياه جوليا بيكر هديةَ وداع. بحلول الساعة السادسة صباحًا، كنت قد انتهيت من تصفيف شعري وتنظيف أسناني، وعند الساعة السابعة، اصطحبتني كلير إلى مدرسة سويفت الواقعة على بعد شارع واحد. كانت مدرسة جورج بي سويفت مدرسة متخصصة بثلاثة طوابق، بها نوافذ طويلة عالية تطل على الشارع وساحة مربعة تحوي ألعابًا للأطفال. لاحظتُ الأطفال يدخلون إلى الكافيتيريا لتناول وجبة الإفطار المجانية، لذا، كَوْنِي لاجئة سابقة جيدة، دخلت الكافيتيريا وتناولت الإفطار المجاني أيضًا.

كان عمري أكبر من أن أُلحق بأي صف أدنى من الصف السادس، لذا وُضِعتُ في الصف السادس. كانت معلمتي، السيدة جارسيا، تضع أحمر الشفاه وترتدي نظارات مربعة سوداء وتبدو في حالة جيدة جدًّا. كانت تحتفظ بالنعناع على مكتبها. عندما قدمتني إلى الصف، نطقت اسمي بطريقة صحيحة تمامًا.

جلست في الصف الثالث بالقرب من النوافذ. قضيت أيامي في الرسم على الورق والتلوين بأقلام التلوين. لم أعرف ما الذي كان يحدث.

في أيام الآحاد، كانت ماري آن من كنيسة المُخَلِّص تأتي إلى شقة كلير لتعلمني اللغة الإنجليزية. كانت تُميلُ شعرها البني خلف أذنيها، وتبدو كما لو أنها لم تشعر بالخوف في حياتها. كانت تحضر معها مجموعة من بطاقات المراجعة. على أحد جانبي البطاقة صورة لحذاء أو سيارة أو أنف، وعلى الجانب الآخر الكلمة التي تعبر عن الصورة، مثل حذاء أو سيارة. كان واجبي هو تلوين الصور. وجدت هذا الأمر طفوليًّا للغاية ومريحًا.

كان الناس يسألونني عمَّا إذا كنت سعيدة. لم أفهم معنى السعادة بعد. أشرب الحليب بالشوكولاتة في المدرسة كل يوم جمعة. أهل الكنيسة يقيمون حفل استقبال لمولود كلير ويغدقون عليها بالملابس المريحة للوالدات حديثًا، وأكياس الحفاضات الضخمة، وعربة أطفال مزدوجة.

بذلت قصارى جهدي في دوري الجديد: أظهر الامتنان، والتصرف كالمراهقات. ومع ذلك، غالبًا أشعر بالإرهاق والتعاسة وأحلم بالقفز عن سطح مدرسة سويفت والطيران بعيدًا. دعونا آل بيكر في عيد الشكر، وكنا أكثر من يمثل الصورة النمطية للاجئين. همست كلير في أذني بأنها تود أن تأخذ كل الطعام المتبقي من البوفيه للمنزل من أجل بيعه.

الأمر ذاته في عيد الميلاد: حمل زائد. ديك رومي ولحم خنزير. كل الألوان، وكل الروائح، وكل الأصوات كانت تجعلني أشعر بالدوار. نحفت بشكل مقلق. رفضت الأكل والشرب.

لم أستطع تصديق شيء من هذا، لكنني أجبرت نفسي على تصديقه. كنت بحاجة لرؤية العالم أمامي بوضوح حتى أتمكن من أداء دوري على أكمل وجه. كنت بحاجة لفهم الأمور. في كثير من الأحيان، في حياتي السابقة، كان عليَّ أن أتحول إلى شخص آخر حتى أتجنب مخيم اللاجئين أو السجن، لأبقى على قيد الحياة. لعبت دور الأم، ولعبت دور الأخت الصغيرة المطيعة. جعلت نفسي شخصًا لا يُرى، غير موجود. والآن تحولت إلى هذا المخلوق الغريب: مراهقة أمريكية.

ومع ذلك، لم أكن مثل المراهقين في مدرستي. أمي وأبي كانا... من؟ لا أحد في حياتي كان يحضر الاجتماعات المدرسية للآباء والمعلمين. لا أحد كان يأخذ لي مواعيد عند الطبيب. لا أحد كان يتحقق إذا كنت أنجزت فروضي المدرسية.

وفي النهاية تدخلت السيدة بيكر. قرب نهاية العام، تحدثتْ مع معلمتي. كنت بحاجة إلى المزيد –المزيد من الموارد، والمزيد من الإرشاد، وبيئة منزلية أكثر استقرارًا؛ بيئة يمكنني فيها أن أكون طفلة حقًّا. كنت بحاجة إلى الالتحاق بمدرسة أفضل.

المرأة التي أصبحت أسميها أمي الأمريكية كانت قصيرة، وشقراء، وجنوبية ومهذبة، وكل ما كنت أعرفه عنها قبل أن تأتي لِتقِلَّني من منزلنا بسيارتها المرسيدس ذات اللون البيج هو أنها كانت ترتدي الملابس ذات الياقات الحمراء والمجوهرات في الكنيسة.

تحدثت السيدة بيكر مع السيدة بيزلي، زوجة القس، التي تدرس في مدرسة تدعى أكاديمية التراث المسيحي. السيدة بيزلي، بدورها أقنعت المدرسة بقبولي لأعيد الصف السادس. كانت أكاديمية التراث المسيحي في نورثفيلد، الضاحية المجاورة لجلينفيو، على بعد عشرين ميلًا شمال المدينة، وكان من المستحيل أن أتنقل من شقتنا في إدجووتر إلى تلك المدرسة يوميًّا. لذا كنت بحاجة لمكان أعيش فيه، من الاثنين إلى الجمعة.

هنا جاء دور أمي الأمريكية الجديدة؛ السيدة توماس. كان أبناء السيدة توماس الكبار قد التحقوا بالجامعة، وكان لديها غرف شاغرة في منزلها في كينلوورث القريبة. كنا في أواخر حزيران، وكان عمري ثلاث عشرة سنة، وقد مضى على وجودي في الولايات المتحدة سنة واحدة.

خرج روب، وتحدث مع السيدة توماس، ليتظاهر بأنه يؤكد لها أن عائلة توماس لم تدعُني للعيش في منزلهم لأكون خادمة. وضعت حقيبتي الزرقاء وحقيبة صغيرة حمراء في صندوق سيارة السيدة توماس. أحضرت معي بضعة غيارات من الملابس فقط.

المكيف في السيارة يعمل، وشعرت بالبرودة الشديدة. جلست كولي، ابنة السيدة توماس البالغة من العمر ستة عشر عامًا، في المقعد الأمامي. لم يسألني أحد إذا كنت أرغب في الانتقال. لم أنتقل بمفردي من قبل. بصوتها الجنوبي العذب، بدأت السيدة توماس بتعريفي على المشهد الجديد من حولي: «**هذه بحيرة ميشيجان. هذه جامعة نورث وسترن. هذا هو الشاطئ الذي نذهب إليه للسباحة**».

وصلنا إلى منزل مغطى بألواح خشبية خضراء وأرضيته عشبية، مع شرفة كبيرة أمامه ومرأب منفصل خلفه. كان المنزل من الداخل مليئًا بالكراسي الخضراء والسجاد الأخضر. اصطحبتني كولاي طابقين للأعلى إلى غرفة نوم كبيرة بها سريران مفردان، ومكتب، والعديد من الأرفف الملأى بالكتب، وراديو، وصندوق لأشرطة الكاسيت، وحمام خاص، وسقف مائل.

لدى عائلة توماس كلبان، كوتون وجينجر. يعاملون الكلاب كأنها بشر. هذه التجربة جديدة بالنسبة لي. فالكلاب في رواندا تحولت إلى كابوس خلال الحرب؛ فقد كانت الكلاب تأكل الجثث.

أتذكر أنني أردت أن أسأل: «**هل هذا كله لي؟**» في تلك الليلة الأولى، لم أطفئ الأنوار. انتقلت من سرير إلى آخر ثم أعدت ترتيب الأول. تصفحت الأشرطة والكتب.

كانت هذه تجربة للصيف. كنت سأعيش مع عائلة توماس وألتحق بدورة فنية في أكاديمية التراث المسيحي، وإذا نجحت، أي إذا اجتزت اختباري، فسأعيش مع عائلة توماس طوال العام الدراسي وسألتحق بأكاديمية التراث المسيحي.

لم أرد إفساد شيء. في الصباح، رتبت السرير الثاني، وأعدت كل الكتب والأشرطة إلى أماكنها، وارتديت ملابسي ونزلت عندما سمعت

خطوات كولاي. تناولت الحبوب على الإفطار لأن كولاي كانت تأكل الحبوب على الإفطار. أعدت لي السيدة توماس شطيرة زبدة الفول السوداني لآخذها معي إلى المخيم الفني لتناول الغداء، وأخبرتها أنني أحب زبدة الفول السوداني والشطائر، رغم أنني لم أحب أيًّا منهما.

بدأت مهاراتي باعتباري لاجئة تتنشط. أردت أن أكون الشخص الذي يُتوقع مني أن أكونه لأحصل على ما أريد. كانت هناك حلقة تغذية راجعة أراها الآن بوضوح: إذا كنت أؤدي دوري باعتباري طالبة بشكل جيد، سيستجيب الناس بالسعادة والفخر ويرغبون في ضخ المزيد من الموارد من أجلي. كان الأمر أشبه بتعبئتي من جديد مرارًا وتكرارًا.

في أول يوم لي في مدرستي الجديدة، ألصقت سارة بيزلي نجمة كبيرة مصنوعة من ورق الكرتون على خزانتي مكتوب عليها **تينا**. كانت السيدة بيزلي قد لاحظت أن الناس غالبًا ما يخطئون في نطق اسمي –إنه «**كليمن – تين**» وليس «**كليمن – تاين**»، رغم أن الجميع كانوا ينطقونه بالشكل الأخير. لذا قرَّرَتْ أن يكون اسمي في المدرسة تينا. لن يُنطَق اسم تينا بشكل خاطئ. وسيكون هذا الاسم أقل ثقلًا عند الصراخ به في أثناء ممارسة الرياضة.

في فترة ما بعد الظهيرة، بعد أن أنهي تمرينات الجري أو بروفات الرقص، كانت السيدة توماس تأتيني لتقلني دائمًا من المكان نفسه. كانت تفهم خوفي من الضياع أو الهَجْر. في المنزل، كنت أصعد إلى الطابق العلوي وأؤدي فروضي المدرسية في غرفتي. كنت أحب مساحتي –الهدوء، والنظام. كل شيء كان تحت سيطرتي.

وفي كل عطلة نهاية أسبوع، كنت أعود من كينلوورث إلى إدجووتر. في كل مرة كانت السيدة توماس تنزلني، كنت أعطيها ابتسامة كبيرة

وأقول: «شكرًا!» ثم أسرع بالخروج من السيارة قبل أن تمد يدها لتعانقني. كنت ما أزال مرتبكة من فكرة المودة الجسدية.

كانت حياة كلير على عكسي تمامًا: الكثير من الناس، والكثير من الفوضى. تعمل في وظيفتين في الفنادق، وزواجها يتفكك، وتربي ثلاثة أطفال باعتبارها أمًّا عزباء. وُلدت طفلتها الثالثة، ميشيل، في أمريكا. ما يزال ذلك يبدو غريبًا بالنسبة لي.

من الجمعة إلى الأحد، كنت أطبخ، وأنظف، وأعتني بالأطفال. لم أتحدث عن حياتي في كينلوورث، ولم تسألني كلير عنها. لم تكن تعلم أن في غرفتي سريرَيْن، أو أن هناك حمامًا بجدران حمراء رائعة، وفيه طبق للصابون يشبه بيض طائر «أبو الحناء» تحت السلالم في الطابق الأول من منزل عائلة توماس. لم تكن تعرف أنني كنت أشعر بالفخر عندما كانت كولاي تقدمني على أنني أختها.

ردَّدنا عهد الولاء. ثم ذهبت إلى الحصة الأولى في صف دراسي ذي نوافذ زجاجية كبيرة تطل على ساحة اللعب. بعد وقت قصير، بدأ الجميع بالذعر. أغلق المديرُ المدرسةَ لبقية اليوم. جاءت السيدة توماس لتقلني إلى المنزل.

في المنزل، شاهدنا عبر التلفاز انهيار برجي مركز التجارة العالمي مرارًا وتكرارًا. كل خمس دقائق، كانت السيدة توماس تحاول الاتصال ببراد، ابنها الأكبر الذي يعيش في نيويورك، وزوجها السيد توماس، الذي لم يكن يرد على هاتفه في مكتبه القانوني. كانت السيدة توماس تتنفس بصعوبة، أما أنا فلم أشعر بشيء.

قلت لها بعد ساعات عديدة من قلقها: «هذا يحدث للناس في كل مكان». ظهرت على وجهها ملامح الذعر. لم تكن هذه الكلمات هي ما كانت تتوقع سماعه من اللاجئة الفقيرة التي استضافتها في منزلها.

كنت مريعة، قاسية ومتعجرفة. لماذا يغلقون المدرسة؟ عادت كوابيسي لتلاحقني. كنت أحلم في كل ليلة بالسقوط في مجرى غسيل عائلة توماس وانتهائي في قبوهم، حيث كنت أجد نفسي عالقة في متاهة مليئة بالوجوه التي رأيتها في رواندا. كنت أسمع أصوات الأرواح المُدَمَّرة.

لم أستطع فهم لماذا كان الناس يرتدون دبابيس تحمل العلم الأمريكي بدلًا من حزم أمتعتهم. كنت أملأ حقيبتي بأحذية إضافية، وسترة، وكتابي المقدس، ومقلمة، ووجبات خفيفة.

كنت أقص نعي القتلى من صحيفة **شيكاجو تريبيون** وأحتفظ بقائمة بأسماء الموتى. كنت أشعر بالامتعاض والحسد تجاه هذا الاعتراف بموتهم. كان هؤلاء الموتى محظوظين بما يكفي ليُذكَروا ويُبكى عليهم. كانوا هنا، مذكورين بالاسم في الصحيفة، كل منهم بوظيفته الخاصة وعائلته ومسقط رأسه.

في كينلوورث، أراد الناس معاملتي كبَيْضة، اللاجئة الهشة التي تحتاج إلى الحماية. كانوا يقولون، بنوايا حسنة: «دعونا نفعل شيئًا خاصًّا من أجلك. فلنشترِ لك شيئًا جميلًا».

كنت أشعر بالاحتقار والبرود. كانت نظرتي للأمر: **حسنًا، إذا كان هذا يجعلك تشعر بالتحسن. إذا كانت هذه هي طريقتك في العطاء، وإذا كان سيساعدك على النوم ليلًا -نعم، لنفعل شيئًا خاصًا من أجلي، لا بأس.**

كنت واحدة من بين ثلاثة طلاب سود فقط في مدرستي. وكان الشخص الأسود الوحيد البالغ هو عامل النظافة الإريتري. عندما كان الجيران يحدقون إليَّ، كانت السيدة توماس تقول لي: «عزيزتي، فقط ابتسمي. أنت جميلة».

كان الناس يريدون المساعدة بالطريقة التي يعرفون بها كيفية المساعدة. في أحد الأيام، جاءت إحدى صديقات السيدة توماس لتقلني من المدرسة في سيارتها المكشوفة، وأعطتني نظارة شمسية وقالت: «اليوم سنذهب للتسوق. ناديني خالة ويلما». أصبحت ويلما كلاين عرابتي في التسوق. قادتنا إلى متجر مارشال فيلدز. كان من الواضح أنها زارته مئات المرات.

قالت لي: «كليمنتين، نحتاج إلى حذاء شتوي جيد»، ثم أخذتني إلى قسم الأحذية، حيث كانت تعرف العديد من البائعات بالاسم. سألتهنَّ: «هل لديكم من هذه الأحذية بخصم؟ هل تعرفون متى ستكون عليها تخفيضات؟ هل لديكم مجموعة رالف لورين؟».

كانت تعرف كل شبر وكل طابق من ذلك المتجر. كانت أشبه ببطل خارق بالنسبة لي. أدركت فيها القدرة على التحرك في مكان مربك بثقة تامة وإتقان. لقد اعتمدت حياتي وحياة كلير لسنوات على تلك المهارة: قراءة المساحات المعقدة وغير المألوفة، وتحديد من سيكون صديقك ومن سيكون عدوك، وكيف تتحرك بسهولة، وكيف تنجو، وكيف تهرب.

ما زلت أسأل نفسي تلك الأسئلة طوال الوقت. إذا حدث شيء ما، إلى أين أذهب؟ من هو القوي في هذا الموقف؟ هذا الشخص يبذل جهدًا كبيرًا جدًّا –لماذا هذا الشخص ودود للغاية؟– هل يريد شيئًا؟ مالًا؟ معروفًا؟

قالت السيدة كلاين: «حسنًا، إليكِ كيف تسير الأمور. ستشترين أشياء يمكنك أن تدمجيها مع أشياء لديك بالفعل. الأمر لا يتعلق فقط بالموضة، ولكن بما سيدوم لفترة أطول».

بعد شراء الأحذية، جربنا الملابس، أزياء يمكن ارتداؤها في المدرسة وأخرى لعطلة نهاية الأسبوع.

كانت السيدة كلاين ترغب في تعليمي كيفية التعامل مع جسدي، لتساعدني في الشعور بالراحة فيه. كان الحفاظ على جسدي عملًا شاقًّا، ومكلفًا للغاية. حمايته كانت معركة لا تنتهي. لم يكن مصدرًا للبهجة. كنت أجره معي طوال ثلاثة عشر عامًا، محاولةً إبقاءه بعيدًا عن الأذى. شعرت وكأنه يعترض طريقي.

في متجر مارشال فيلدز، سحبت السيدة كلاين فستانًا أحمر منقطًا من الرف وقالت: «هذه قطعة استثمارية». ثم جمعت ملءَ ذراعيها قمصانًا بيضاء، وقمصانًا داخلية، وسراويل قصيرة، وسترات، وجينز –كل شيء– وأخذتني إلى غرف تبديل الملابس الخاصة لتجربتها. كانت للسيدة كلاين آراء. كانت توجهني لتجربة الجينز أولًا مع قميص واحد، ثم آخر. ثم جربي السترة مع الحذاء. بعض الأزياء نالت إعجابها، والبعض الآخر لم يعجبها.

قالت لي وهي تؤكد رفضها للجينز منخفض الخصر: «لا تريدين مظهر فتاة مبتذلة».

لم أفهم تمامًا مشروعها في ذلك الوقت. لم أدرك كم كنت أبث ألمي، ومدى وضوح ذلك للسيدة كلاين، التي كانت تدرك حاجتي إلى المساعدة في حب نفسي. كنت أظن أنني أكثر خبرة بالعالم من هذه العرابة المتخصصة في التسوق. لذا كنت أجرب الملابس وأفكر بشكل غير متسامح: «**هذا جميل، ولكن لماذا أهتم؟**».

لكن الحقيقة هي أنني كنت بحاجة إلى السيدة كلاين. كنت بحاجة إلى الثقة والإيجابية التي كانت تحاول غرسها بي. لم تتحدث كلير معي قط عن جسدي. كنت أعرف الأساسيات عن كيفية عمله داخليًّا من خلال التنصت. عندما كنا هاربين، كنا نرى فتيات خلال دورتهن الشهرية،

يقطرن دمًا. لكن لم يكن هناك حديث أو احتفال، بل كان الأمر كله مجرد محرمات وخوف.

ما زلت أعاني حتى اليوم. لا أعرف إذا كنت أريد إنجاب أطفال. في رواندا، إذا كنتِ فتاة، فإنك تولَدين بقيمة عظيمة لا تكمن في شخصيتك أو عقلك، بل في جسدك. بسبب جسدك، عندما تتزوجين، ستحصل عائلتك على الأبقار. بسبب جسدك، عندما تتزوجين، ستحصل عائلتك على الأرض. وحتى لو كنتِ فتاة مدنية في كيجالي، يظل هذا الأمر صحيحًا. ومع ذلك، في أي لحظة قد تُسرق قيمة جسدك.

يمكن أن تُدَمَّري -**كونونا**، هذه هي الكلمة في لغة الكينياروآندية التي تعني الاغتصاب. عرفت هذه الكلمة عندما كنت في الرابعة من عمري. لم تقلها أمي أمامي، لكنني سمعتها في الحي. كانت الأم تصيح بابنتها الصغيرة التي خرجت للعب: «لا تُدمَّري. لا تسمحي لحياتك أن تُدَمَّر».

الكلمة نفسها مليئة بالعنف. لأنك بمجرد أن تُدمَّري، هذا ما هو عليه الأمر، هكذا تشير الكلمة. الضرر دائم. ستفقدين قيمتك ولن تستعيديها أبدًا. الشر الذي ألحق بجسدك أصبح الآن جزءًا من كيانك. الماء الصافي لجسدك قد تلوث. أصبحت أسيرة لهذا المفهوم.

أعمل كل يوم الآن لأمحو تلك اللغة الخاصة بالتدمير، لأدمرها وأستبدلها بلغة خاصة بي. مع كلمة «كونونا»، يُقال لكِ إنه لا يوجد ترياق، ولا عامل تطهير. لن تحصل عائلتك على الأبقار. لن تحصل عائلتك على الأرض. أصبحتِ ملوثة، أصبحتِ بلا قيمة -هذا هو واقع الحال.

جسدي دُمِّرَ، وجسدي مقدس. لن أعيش في تلك القصة عن الدمار والعار.

اشترت لي السيدة كلاين فستان تخرجي من الصف الثامن. أحببت كيف رأتني في ذلك الوقت –كانت تقرأ ما بين سطوري، كانت ترى مستقبلًا جميلًا. كان الفستان من الستان الأسود، دون حمالات، مع زخرفات زرقاء سماوية على الجانبين. قالت: «هذا فستان يمكنك ارتداؤه إلى الأبد».

أخذتني للتسوق لشراء صندل لأرتديه مع الفستان. كانت تعرف جسدي جيدًا، مثلما عرفه أي شخص حينها، معصماي النحيلان، وقدماي النحيفتان. عندما أخبرت البائعة مقاسي، طلبت منها أن تحضر نعلًا لتثبيت قدميَّ في الصنادل كي لا تنزلقا.

كنت أعتبر قدميَّ نقطة ضعف. كانت تشبه قدمي والدي: داكنة، وضيقة، وأظافرها صغيرة، وعندما أقف تبدو عروقي مثل جذور الأشجار. كثيرًا كنت أقول لنفسي: «**قدماي قبيحتان جدًّا ومخجلتان لعرضهما أمام العالم. كانت الحيوانات تعيش فيهما. قدماي تكشفان أنني ضعيفة**».

لم أخبر السيدة كلاين هذه القصة. كنت ما أزال أحتفظ بتلك القصة لنفسي. كانت البائعة تحضر الصناديق واحدًا تلو الآخر –صنادل ذات أربطة، صنادل بكعب عالٍ، وأخرى مفتوحة من الخلف. كنت أجربها وأنظر إلى قدميَّ.

كانت السيدة كلاين والبائعة تفضلان زوجًا من الصنادل الجلدية اللامعة بحزام عند الكاحل وشريط واحد يمر عبر مشط قدمي. حاولت أن أرى قدميَّ في المرآة كأنها قدما شخص آخر، وقررتُ أنهما تبدوان جيدتين.

في كينلوورث، كان النجاح يعني البهجة. تبتسم، فقد حصلت على أعلى الدرجات، وتجمع أكبر عدد من الأصدقاء، وتؤدي أعلى قفزات التشجيع.

كنت أخفي طبيعتي الشرسة. كانت الحياة أسهل بهذه الطريقة. لم تظهر هذه الشخصية الشرسة إلا في مواجهة سوزان، الفتاة التي كانت معي في الصف نفسه، وهي متنمرة، وجميلة بما يكفي لتفلت من العقاب.

في بداية العام الدراسي، قررت سوزان إقامة حفل بجانب المسبح، وذهبتْ في يوم ما إلى الكافتيريا تدعو جميع الفتيات على الطاولات ما عدا جين، التي كانت تجلس بجانبي. كانت عائلة جين من أوروبا الشرقية، وكانت فتاة صغيرة وهادئة؛ كانت هدفًا سهلًا للتنمر.

لاحقًا في ذلك اليوم، عندما كنا نصطف في حصة التربية البدنية – كان المعلمون في أكاديمية التراث المسيحي يجبروننا على الاصطفاف لكل شيء؛ كنا جميعًا نتحلى بالطاعة والخضوع للرب –كانت سوزان في دورة المياه، فاستأذنت من الصف ودخلت دورة الفتيات وأغلقت الباب. كانت سوزان تغسل يديها عند المغسلة. بعد انتهائها، بدأت في استخدام المعقم الخاص بها، ومرطب الشفاه، وكل المستحضرات التي تحملها في حقيبتها.

وقفت هناك، قريبًا من المغسلة، ثم قلت: «مرحبًا، سوزان».

لم أستخدم صوتي اللطيف المعتاد في المدرسة، بل استخدمت صوتي الحازم، ذلك الصوت الذي لم أدرك أنه سهل الظهور إلى هذه الدرجة. لم أرد أن أُطرَدَ من منزل عائلة توماس أو أُطرد من المدرسة، لذا كنت قد دفنت تلك الشخصية الشرسة.

فتحت سوزان فمها لتتكلم، لكنني قاطعتها.

قلت لها: «إذا كنتِ ستسيئين معاملة جين مرة أخرى، فسوف تدفعين الثمن. مجرد كوني لطيفة وألعب اللعبة بلطف وأختار ألا أشارك في ألعابكِ اللئيمة لا يمنحكِ الحق في التنمر على الآخرين».

تحوَّل وجه سوزان من اللون الوردي إلى الأحمر الفاتح. الصوت الذي خرج مني كان جامحًا، وغرزيًّا، وعدوانيًّا، مثل صقر يدافع عن طيور الطنان في أرضه من طيور الزرياب الزرقاء والرمادية السيئة. أعادت سوزان ترتيب أغراضها في حقيبتها وسحبت مقبض الباب لتغادر، لكنه كان مغلقًا.

استمتعتُ بمشاهدة خوفها أكثر مما توقعت، أكثر مما كنت أرغب في الاعتراف.

فتحتُ القفلَ وخرجتُ.

انضممت إلى فريق المشجعات. كنت قد رأيت مشجعات أكاديمية التراث المسيحي وهن يتمددن في الصالة الرياضية. كنَّ يبدين سعيدات جدًّا، ومفعمات بالحيوية، مع ابتسامات بهيجة متطابقة وتنانير زرقاء وبيضاء. لم أفكر يومًا في مجرد الابتسام والشعور بالسعادة. بدت لي تلك مهارة مفيدة. أردت تعلمها وممارستها.

التحدي البدني كان يناسبني. كان يساعدني في الهروب من التفكير. إذا أغمضت عينيَّ وتوقفت للحظة، كنت أرى الحمم البركانية والدمار. لذا، كنت أمارس التدريبات في كل لحظة فراغ. في الحمام، كنت أؤدي الحركات ذهنيًّا. لم أكن معتادة على الإيقاعات الأمريكية، لكنني كنت أحب إجبار جسدي على التحرك كما أريد. كنت أحب التحكم.

دعتني الفتيات إلى مركز تسوق «أولد أورشارد». كن يدعونني إلى ماكدونالدز لتناول الميلك شيك ويضحكن عندما كنت أشكو من أنه شديد الحلاوة. كما دعينني إلى حفلات المبيت، لكن بعد حضور حفلتين،

توقفت عن الذهاب. طوال الليل، كانت الفتيات يتحدثن عمن يحب من، ومن هم أفضل الأصدقاء. كن يرغبن في تبادل الأسرار والارتباط.

لكنني لم أرغب في الارتباط. كان من السهل تأدية طقوس الصداقة السطحية، لكن هذا لم أرده. هؤلاء الفتيات اللواتي كنَّ يعتقدن أنهن زميلاتي لم يكنَّ في الحقيقة زميلاتي على الإطلاق. كنت أفكر: «**يمكننا أن نعيش هذه اللحظة معًا، لكننا لن نكون أبدًا أفضل الأصدقاء. لقد رأيت هذا من قبل. هكذا يبدأ الأمر: كل شيء لطيف ورائع. يشترون لك الصودا والحلوى، وفي المرة القادمة يرغبون بقتلك**».

مكتبة
t.me/soramnqraa

1995

5

علمتني كلير ألا أقبل الهدايا أبدًا. لقد تعلمَتْ هذا من والدتنا. كانت كلير تقول: «لا هدايا. ولا حلوى، ولا خبز، وبخاصة من الرجال». كانت تصر على تعلم كيفية البقاء دون أن تدين لأحد، لذلك كانت تجتهد.

كانت مفوضية الأمم المتحدة لشؤون اللاجئين تحظر على اللاجئين مغادرة المخيم. لكن كلير لاحظت أن هناك أناسًا بالقرب من حافة المخيم يتاجرون مع البورونديين الذين يعيشون بالقرب منهم. السكان المحليون لم يكن لديهم أي شيء تقريبًا. كانوا يعيشون مثل العائلة التي أخذتنا إلى كوخها. كانوا يريدون مقايضة الحاويات البلاستيكية الرخيصة التي قدمتها لنا المفوضية لحمل المياه. كما كانوا يريدون مقايضة مسحوق الصويا الذي قدمته لنا المفوضية لكي نحصل على البروتين.

أشعل هذا كلير فتحمست، كانت تحمل كل ما لم نتمكن من استخدامه إلى السياج، كانت تسأل وهي تعرض سترة رجل على فتى في السادسة عشرة من عمره: «هل تريد هذه؟ إنها جميلة جدًّا، وستبدو رائعة عليك. سآخذ كيس البطاطس هذا بدلًا منها».

في يوم ما، بالقرب من خيمتنا، لاحظتُ كلير وهي تغني. كان أحد مديري المخيم كنديًّا ولديه السلطة لمنح بعض اللاجئين وظائف. كانت كلير تعلم أنه لكي تحصل على وظيفة هنا، في مثل عمرها، وسط هذا المكان الشاسع المدمَّر، كان عليها أن تثبت جرأتها وذكاءها ودافعها. لذلك كانت تتدرب على الأغنية الإنجليزية الوحيدة التي تعرفها، بعنوان: «العودة إلى الوطن»، مرارًا وتكرارًا. «**العودة إلى الوطن! العودة إلى الوطن! متى سأرى وطني... العودة إلى الوطن! العودة إلى الوطن! سأراك عندما أعود... إلى الوطن مرة أخرى!**».

لم تكن لديها أدنى فكرة عما تعنيه الكلمات، ولا أنا، لكنها كانت تغني أمام مدير المخيم كما لو أن هذا الوضع لم يكن غريبًا تمامًا. كلير لم تكن لتتخلى عن كرامتها. لم تكن لتسمح لأحد بأن يظن أنها أصبحت فارغة من الداخل. لم تقل اسمها بصوت عالٍ، كما فعلت أنا، وأنا أغرد كالحمقاء، محتجةً بشدة. كلير قالت اسمها لنفسها. لكنها كانت تفهم أنه لكي تحصل على الحياة التي تريدها، لكي تحتفظ بهويتها، لم تكن بحاجة إلى أن يراها الآخرون بنظرة معينة؛ كانت بحاجة إلى الاحتفاظ بذلك النور الداخلي. علاوة على ذلك، كانت بحاجة إلى المال، وبالتالي كانت بحاجة إلى وظيفة.

استمع إليها مدير المخيم. ثم سأل: «ما المهارات المفيدة التي تمتلكينها في مثل هذا العمر؟»ز قالت كلير إنها يمكن أن تساعد في رعاية الأيتام في المخيم، وتنظم لهم مباريات كرة الطائرة وكرة السلة، وتؤسس نوادي مثل الكشافة، وتقودهم في الرقص والأغاني.

حصلت كلير على الوظيفة. كانت تدرب الفتيات في الرياضة وتسحبهن جانبًا وتقول لهن: «لا تأخذن الحلوى أو الخبز من الرجال». أما أنا فلم أنضم إليهن.

كنت أغسل ملابسنا في النهر، كان هذا يعني مغادرة المخيم في وقت متأخر من الصباح، حتى أكون هناك عند الظهيرة. كانت مياه أعلى النهر للشرب، وأسفل النهر للغسيل.

على ضفاف النهر، كانت هناك صخور عملاقة وأشجار صنوبر كبيرة، كانوا بمنزلة سفراء غريبين للديمومة في عالم ينهار. لغسل الملابس، كما تعلمت من مراقبة النساء الأكبر سنًّا، يجب أولًا صنع حلقة من الصخور في النهر، ثم تضعين ملابسك، مع إبر الصنوبر المكسرة، داخل تلك الحلقة. ثم تدقين كل قطعة ملابس على صخرة للتخلص من الأوساخ والحشرات.

في الأيام شديدة الحرارة، وفي أثناء نقع الملابس، كنت أسبح وأشاهد الحرارة تتصاعد من التلال. بدت الأودية عن بعد وكأنها مياه، كنت أريد اللعب، كنت أريد أن أعود إلى شجرة المانجو مع بودي، ونتظاهر بأننا في حافلة متجهة إلى بوتاري. سألت النساء الأكبر سنًّا: «هل ترونه؟ هل ترون المحيط؟» لم تكن لديهن الطاقة للاندماج في ألعابي.

في قرابة الساعة الواحدة بعد الظهر، كنت أعصر ملابسنا وأضعها على الصخور الساخنة. بحلول فترة ما بعد الظهيرة، كانت الحجارة تمتص الكثير من الحرارة لدرجة أن التنانير، والقمصان، والملابس الداخلية كان يبدو عليها ألسنة الحرق بعد نشرها. كنا نأمل أن تحرق حرارة الصخور القمل والصيبان. كانت هذه الطريقة تنجح أحيانًا مع القطن الرقيق، ولكنها لم تنجح قط مع البطانيات، حيث كانت البيوض

تتغلغل بعمق كبير في النسيج لدرجة أن الصخور لا تصل إليه. كان عليك غلي البطانيات في قدرٍ عملاق لإزالة القمل منها.

في الليل، كنت أستمع إلى الناس يتحدثون حول النار في وحدتنا. كانت الدعابات بذيئة، وكانت تَنفيسًا للكبار، لكن الضحك والقصص كانا يشعرانني بالتشتت. كنت أتوق إلى الحماية، ولم أكن محمية. كنت أنجرف في كل ليلة، نصف نائمة، ونصف مستيقظة.

في أحلامي، كنت أتجول في المخيم، وأجمع كل ما أستطيع العثور عليه، كنت أجمع شوك الطعام، والمفارش، والأواني، والكراسي، كل الممتلكات التي خلَّفها الآخرون. كنت أحمل تلك الأشياء كلها إلى خيمتي وأبني كومة ضخمة؛ برجًا خياليًا من الخردة؛ الملابس كلها، وجِرار الماء، وأكوام المواقد. وعندما أنتهي من بناء البرج، كنت أتسلقه إلى السماء للبحث عن والديَّ. لم أُرِد الموت لأجِدَهما. كنت أريد أن أراهما وأنا حيَّة، وأخبرهما أنني بخير. لذا، بنيت برجي المهتز، وتسلقت، وبدأت البحث حولي. في تلك الأحلام، كنت أقترب من والديَّ، كنت أعلم أنهما هناك، لكنني لم أكن أراهما قط. ولم أسأل الرب حتى عن مكانهما.

في كيجالي، كانت والدتي تصر على أن نتفقد جيراننا المسنين. أصبحت كلير تصر على ذلك الآن.

كان هناك زوجان مسنان في وحدتنا –ربما في الثمانين من عمرهما، قصيران جدًّا، وأقدامهما سوداء. لم ينتعلا الأحذية قط. كانا من الباتوا[1]، إحدى القبائل الأصلية في رواندا. كانت المرأة التي كنت

(1) قبيلة من السكان الأصليين، وموطنهم منطقة البحيرات الكبرى في وسط إفريقيا، وهم يوجدون في المقام الأول في بلدان مثل رواندا وبوروندي وأوغندا وجمهورية الكونجو الديمقراطية. هذه القبيلة تُعَد من أقدم سكان المنطقة، وهم معروفون بارتباطهم العميق بالأرض، ولكنهم واجهوا قدرًا كبيرًا من النزوح والتهميش بسبب إزالة الغابات والاستبعاد الاجتماعي وفقدان الأراضي؛ وما زالوا يعانون إلى اليوم من الفقر. (المترجم).

أناديها **موشيشورو** –الجدة، ترتدي عباءة برتقالية وتلف قطعة قماش حول رأسها. كانت تجادل زوجها حول طهيه. لم أرَ امرأة تقف في وجه رجل بهذه الطريقة من قبل.

أما زوجها، الذي كنت أناديه **موسازا** –الجد، فقد كان يبصق في أثناء حديثه. كان يرتدي قبعة بنية ممزقة ذات حافة عريضة، مثل قبعة راعي البقر. أما عيناه فغائرتان، وأسنانه سيئة، والشعر المجعد على ذقنه كان رماديًّا. كان يرتدي في أيام الآحاد بنطالًا أسود وقميصًا أبيض، ويستخدم الحبل حزامًا.

كنت أعشقهما. بدأت أقضي وقتًا أطول عند خيمتهما لتجنب الذهاب إلى الحمام. كان لديَّ خوف كبير من الانزلاق والسقوط في البراز، وكنت خائفة من الإصابة بمرض. لذلك كنت أقف هناك، وأقفز من مكان إلى آخر، وأطلب من موشيشورو وموسازا أن يرويا لي القصص لأصرف نفسي عن الحاجة إلى التبول. كنت أتوق لسماع قصة، وبخاصة في ذلك الوقت حيث لم يعد أي شيء يبدو منطقيًّا وذا معنى.

روى لي موسازا قصة شعبية عن قِدر طيني عملاق لم ينكسر قط رغم المحاولات الحثيثة للناس بالحجارة، والبرق، والمطارق –لا شيء يمكن أن يحطمه. كان القدر يحتوي على كمية كافية من الحساء لإطعام العالم. أردت العثور عليه. تعلمت حبس بولي لفترة طويلة جدًّا.

كان موسازا وموشيشورو دائمًا يعيشون في كفاف. أخبراني أن الرب عندما كان يوزع الهدايا، أعطى بعض الناس الأرضَ. وأعطى البعض الآخر الطولَ. وعندما جاء دور الباتوا، لم يتبقَّ لدى الرب شيء محدد ليعطيهم إياه، لذا أمرهم بتقاسم الغابة.

في أحد الأيام، موسازا وموشيشورو دعياني للانضمام إليهما في البحث عن الطعام في الغابة. كانا يبحثان عن أوراق نبات القطيفة لتحسين طعم الذرة وجعلها أكثر قابلية للأكل دون زيت.

سرنا في مسارات باهتة صعودًا إلى التلال وسط أشجار الصنوبر. كانت أرضية الغابة مغطاة بإبر الصنوبر ونبات البرسيم، وكان موسازا يوبخني إذا خطوت على البرسيم. كان يقول: «إذا عاملت النباتات بقلة احترام، فإنها ستغضب، والنباتات الغاضبة يكون طعمها سيئًا».

وجدنا الفطر مدفونًا بين النباتات الكثيفة –كان موسازا يسميه لحم الغابة. وفي الأدغال وجدنا طماطم خضراء –كانت معجزة بالنسبة لي؛ إذ لم أرَ الطماطم منذ شهور.

كانت حركات يدي وقدمَي موسازا وموشيشورو تمتاز باللطف الذي جعلني أشعر بالحنين. كان لطفهما مماثلًا للطف موكامانا حين كانت تعتني بي وهي تُزَرِّرُ لي رداء الحمام. عندما يجدان نبتة طماطم، كانا يضعان بعض أغصان الصنوبر حول الساق والأوراق لإخفاء هذا الكنز.

لم يعد أحد في عالمي الآن حنونًا عليَّ وحاميًا لي. بالتأكيد ليست كلير. كانت كلير ترفض الوقوف في الطابور للحصول على حصة الذرة الصغيرة عندما كان من المفترض أن تُمنَح لنا أربع مغارف. ماذا يعني أن موسازا وموشيشورو كانا يحميان الطماطم من أجل المستقبل؟ هل سنظل هنا؟

كنا نتضور جوعًا بالطبع، لذا علمني موسازا وموشيشورو كيف آكل الحشرات: الجراد الأخضر. أما الجراد الأسود، فكما قال موسازا، إنه يحاول بشدة أن يبقى على قيد الحياة. أما الجراد الأخضر فبإمكاننا أكله بما أنه يطير نحونا. كان ذلك يعني أن الجراد سعيد بكونه قد عاش ومستعدًّا لتقديم نفسه طعامًا.

كنا أيضًا نبحث عن الطعام في مزارع الناس. كانت هذه سرقة، نعم، ولكن كان لدى موسازا وموشيشورو قواعد. أخبرتني موشيشورو أنه عندما تقطفين الخضروات من مزرعة أحدهم، عليك أن تتركي شيئًا لينمو من جديد -اقطعي غصنًا وضعيه في التربة أو ازرعي بذرة.

مع اقتراب عيد الميلاد، استيقظت كلير وهي تعاني الزحار. كنت قد رأيت ذلك يحدث عشرات المرات. شخص ما يستيقظ مصابًا بالحمى، ويتقيأ، ثم تنفجر أمعاؤه؛ يظل يصرخ حتى يصبح ضعيفًا جدًّا على الصراخ، بالإضافة إلى أنه يتبرز دمًا. وبحلول الليل، تكون المياه كلها قد استُنزِفَت من جسمه وفقد سبعة أرطال.

العديد من الأطفال في المخيم الذين أصيبوا بالزحار ماتوا. أجسادهم الصغيرة، التي كانت تعاني بالفعل سوء التغذية، لم تكن قادرة على تحمل هذا الهجوم الوحشي. مات الكثير من البالغين أيضًا. كانت الدورة هي نفسها دائمًا: الصراخ، والتقيؤ، والتبرز، والنزيف، ثم يُلَفُّ الشخص في بطانية ويوضع بجوار المرحاض ليُدفن أو يُحرق.

في صباح اليوم الذي استيقظت فيه كلير بأعين زجاجية، وهي تهذي وتتألم، ركضت لأجد موسازا وموشيشورو. نقلا سرير كلير -وهو حصير من العشب- بالقرب من باب خيمتنا، حتى تتمكن من التنفس في الهواء النقي. صنع لها موسازا مشروبًا من الفحم وصبغة خضراء زاهية من الأوراق. لكن كلير استمرت في الصراخ والتقيؤ والتبرز بالدم. قضيت اليوم كله أُصَلِّي، إن جاز تسميتها صلاة. في الواقع، كنت أتوسل: «**من فضلك، لا تدعها تمُت**». لم يكن هناك بديل، ولا مساحة لقول **ماذا لو...؟** كان على كلير أن تنجو. كنت في السابعة من عمري.

على مدار ثلاثة أيام، كانت كلير تئن وتغيب عن الوعي ثم تعود. كنت أنام في الخارج مع موشيشورو ونراقب القمر. كانت تلك هي المرة الوحيدة التي أنام فيها بعيدًا عن كلير.

أخيرًا، انخفضت حرارتها. وجدتُّ بعض الفحم وخلطته بالماء والأوراق وحاولت إقناع كلير بشربه. لكنها رفضت.

الآن أصبحت أخاف المرحاض أكثر من ذي قبل. لساعات، كنت أقف خارج خيمة موسازا وموشيشورو، وأطلب منهم أن يرويا لي القصص.

روى لي موسازا قصة عن فتاة كانت تظن أنها أجمل طفلة في العالم، وكيف خدعتها زوجة أبيها وأخبرتها أن تجلس على حصيرة، لكن الحصيرة كانت تغطي حفرة عملاقة في الأرض وسقطت الفتاة داخلها. حاولت الفتاة التسلق والخروج من الحفرة ولكنها فشلت. صرخت ولكن لم يأتِ أحد لإنقاذها.

أخبرَني عن اللحظة التي تغرب فيها الشمس على شاطئ المحيط –تلك اللحظة التي يمكنك عندها رفع البحر والمشي تحته وزيارة أي مكان تريده.

أخبرني أنه إذا مشيت في ضوء القمر، يمكنني دخول **تيرا**، وهي أرض الماضي.

سألته: «هل هناك حيوانات هناك؟».

أجابني: «نعم، بالطبع».

- ما نوع الحيوانات؟
- ما الذي تعتقدينه؟
- أسود؟ هل هناك أسود؟

- نعم! الأسود جميلة هناك، إنها كبيرة ورائعة ولا تؤذي أحدًا.

- هل هناك نمور؟

- نعم، هناك نمور رائعة، سريعة ولطيفة جدًّا، يمكنك الركوب على ظهرها.

- ماذا تأكل الأسود والنمور؟

- إنها تأكل الخضار. مثلنا تمامًا.

- أين تنام؟

- تنام على الأرض وتحرسنا.

النباتات، والحيوانات، والمحيط، والناس -كل شيء في تيرا كان حيًّا، تمامًا كما كنت أتمناه. رسم موسازا لي عالَمًا وسمح لي بتلوينه بالألوان: الذهبي، والفضي، والنحاسي، والبني.

التفتُّ إلى الأطفال الآخرين وقلت: «مرحبًا، هل تريدون أن تعرفوا ما الذي أخبرني به موسازا اليوم؟ أخبرني أنه منذ زمن طويل، كنت تستطيع أن تنادي التماسيح، وكانت تأتي إليك، ويمكنك أن تستلقي عليها».

بعد قضائنا شهرين في المخيم، أعلن عامل في منظمة كير، وسيم، من زائير أنه يحب كلير. كانت كلير، بطريقة ما؛ كما كانت دائمًا، جذابة. عيناها الداكنتان مُشِعَّتان لا تُقهَران. كان روب في الخامسة والعشرين من عمره، وكان يبدو متطورًا للغاية ومهندمًا بشعره المشذب جيدًا، وسرواله الجينز النظيف، وقميصه المخطط، وحذائه اللامع.

أخبرت كلير روب أنها صغيرة جدًّا لتدخل في علاقة، وأن آخر شيء تحتاجه هو أن تكون لاجئة في السادسة عشرة من عمرها دون والدين وتعتني بأخت صغيرة وطفل. لكنه استمر في المحاولة.

كان يقول يوميًّا: «أنا أريد الزواج منكِ. يمكنكِ الذهاب إلى المدرسة».

قالت له: «ألا تراني أعاني في هذا المخيم؟ أتعتقد أنني سأكون بحال أفضل وأنا حامل؟».

ومع ذلك، كان روب يلاحق كلير يوميًّا ويخبرها أنه وقع في حبها منذ اليوم الذي دخلنا فيه المخيم. وعدها أنها إذا تزوجته، سيكون بإمكاننا الانتقال إلى زائير والعيش مع والدته.

كانت كلير تعلم أننا كنا أهدافًا؛ فتاتين بلا وصيٍّ يرعانا. كل امرأة كانت هدفًا هناك. حياتنا كانت مستحيلة، وميؤوسًا منها. كانت هناك امرأة في المخيم تبكي طوال اليوم، كل يوم. كان الناس يصرخون عليها: «ألا تعتقدين أننا جميعًا نريد أن نبكي؟ نحن جميعًا نريد أن نبكي». كنا جميعًا نعلم أن الفاصل بيننا وبينها لا يكاد يُذكَر.

هذه هي الحياة في مخيم اللاجئين: إنك لا تتقدم نحو أي هدف. أنت فقط عالق في مكان رهيب. تتعلم مهارات تتمنى لو لم تضطر إلى تعلمها: كيفية إشعال النار، وكيفية طهو الذرة، وكيفية غسل الملابس في النهر وحرق القمل على الصخور. إنك تنتظر، وتأمل أن تحمل الشاحنات شيئًا آخر غير الذرة والفاصولياء.

لكن لا شيء يتحسن. لا يوجد مسار للتحسن –لا جهد يمكنك بذله، ولا شيء يمكنك القيام به، ولا شيء يمكن لأي شخص آخر القيام به من أجلك أيضًا، إلا أن تضع الحرب أوزارها في بلدك، ويضع القَتَلَةُ أسلحتهم جانبا حتى تتمكن من العودة إلى منزلك.

كان الزواج هو المخرج الوحيد. كان الزواج مصحوبًا بالأوراق. وهذا جعل روب بابتسامته الوسيمة مهرَبًا، وتذكرة للخروج. عندما تُنهي كلير عملها، كانت ترى روب بملابسه النظيفة في مكتب المخيم. وفي كل مرة كان يسألها: «هل تريدين العودة إلى المدرسة؟» **المدرسة**. الآن، بدلًا

من الدوران في دوامة من الرعب، أصبح لعقل كلير مكان يذهب إليه، وجهة بعيدة عن الوجوه التي كانت هي أيضًا تتمنى ألا تراها والأصوات التي كانت تتمنى ألا تسمعها.

وحالما سنحت الفرصة لكلير، حصلت أنا أيضًا على فرصة. لم أفهم لماذا علينا البقاء في هذا الكابوس لمجرد أننا نفتقر إلى الأوراق، لكنني تقبَّلت أن هذه هي الحقيقة. بالإضافة إلى ذلك، كان لديَّ كلير لرعايتي، وكلير لم يكن لديها من يرعاها، ورفضت تصديق أن هذه الحياة، هنا في بوروندي، هي ما تستحقه. وأمام الحشرات، والقذارة، والجوع، والموت. قالت كلير «نعم» لروب.

تزوج كلير وروب في المخيم، محاطين ببعض اللاجئين الحاسدين وبضعة من أصدقاء روب وزملائه في العمل. ارتديت تنورتي الخضراء المفضلة. أفضل ما في اليوم كان **الماندازي** المقلية الحلوة والمشروبات الغازية.

أوفى روب بوعده. بعد الزفاف، أخذ كلير إلى بوجومبورا، عاصمة بوروندي، للحصول على أوراق الزواج الرسمية. الخطة كانت أن تمضي كلير بعد ذلك إلى عائلة روب في مدينة أوفيرا في زائير، وأن يعود روب إلى المخيم ليأخذني.

لذلك ذهبت كلير، والآن رحل روب أيضًا، لمدة ثلاثة أيام. قضيت كل ساعة من تلك الأيام وحدي، مذعورة، وبطني يؤلمني. قلت لنفسي: إذا لم تعد كلير أو روب، فسأعود إلى رواندا سيرًا على الأقدام. لم أتحدث إلى أي شخص، كنت أخشى أنني إذا تحدثت، فقد أفصح عن خططنا، وحينها سيصبح الناس قساة بسبب الغيرة. ثم عاد روب. وجدني أمام خيمتنا صامتةً، وشعرت بالخوف من الرحيل.

كنا قد أمضينا عامًا في انجوزي. كان موسازا وموشيشورو، بروحيهما الزاهدتين، الشخصين الوحيدين في عالمي إلى جانب كلير. تركنا لهما كل ما نملك، لكنني لم أودعهما. فقط ارتديت أفضل ملابسي –تنورتي الخضراء وقميصي الأبيض اللذين يُغسَلان بسهولة ويجفان بسرعة في الشمس– وجمعت مقتنياتي القليلة: بضع كنزات، وحجرًا أملس وجدته على ضفاف النهر، ونعالًا أصلحتها بالخيط، وعدة ألعاب قيل لي إنها هدايا من أطفال في كندا.

قادني روب إلى شاحنته التابعة لمنظمة **كير**. في الداخل، على المقعد، كان هناك كيسان بلاستيكيان، أحدهما يحوي فستانًا جديدًا وصندلًا ملونًا، والآخر مليء بالمأكولات الشهية. لم أكن مهذبة. حشوت فمي **بالماندازي** الحلوة والحلوى، وشربت الفانتا دفعة واحدة. لم أقل شكرًا، شعرت بالغثيان.

كانت الطريق طويلة ووعرة. تقيأت، كنت مرهقة أكثر بكثير مما كنت أدرك، وسقطت في نوم عميق. عندما استيقظت، شعرت بالذعر، لم أعرف أين كنت، لم أستطع إيجاد طريقي للعودة إلى المخيم.

إذا لم أستطع العثور على طريقي للعودة إلى المخيم، فلن أتمكن من العودة إلى بوتاري ثم إلى كيجالي للوصول إلى المنزل. كنت أعلم أنه كان من المفترض أن أشعر بالارتياح، لكنني شعرت باليأس. لم أرغب في النظر من النافذة. الخسارة هي الخسارة. لم أرغب في رؤية المزيد من الأميال التي نقطعها. لم أرغب في المرور بالمزيد من التلال المتكدسة.

في المساء، وصلنا إلى المدينة. كانت بوجومبورا تبدو أكثر إشراقًا وأصغر من كيجالي. قادنا روب إلى منزل بعض الأصدقاء الذين يعيشون

في أطراف المدينة، في مجمع كبير. صرَّت البوابة بصوت عالٍ عندما فتحها روب.

في الداخل، في الفناء، كانت تجلس عائلة كبيرة –أجداد، أبناء عمومة، عمات. التقت عيناي امرأة كانت في عمر كلير تقريبًا. كانت جميلة، بابتسامة عريضة، وأسنان بيضاء، ولثة سوداء، وشعر لامع للغاية مما جعلني أدرك أنها قد عاشت حياة جيدة. اقتربت مني وعانقتني، وبكيت.

نادت على الأطفال الآخرين. ركض أربعة أو خمسة منهم، ثم وقفوا قريبين، يمسكون بيدي، يتصرفون وكأننا أصدقاء، شعرت بالخدر والانفصال عن الواقع، لقد نسيت الدفء العفوي، نسيت حتى الثقة الضمنية. أحضرت لي المرأة ذات الحالة الممتازة كوبًا من الشاي الدافئ، حلوًا وغنيًّا بالحليب.

اللذة، بالكاد كنت أتذكر كيف أستمتع باللذة. كنت مشغولة جدًّا على مدار عام بالبقاء –على الرغم من أنني لم أكن منشغلة حقًّا. كنت مشغولة بشيء أصغر وأكثر تفاهة: **تجاوُز أحداث اليوم.** كانت هذه عقليتي. **فلنتجاوز اليوم، ثم سيأتي الغد. فلنصنع غده أيضًا.**

اختفت الشابة مرة أخرى وعادت بوعاء من الكعك المصنوع من دقيق الأرز. التصق الزيت بيدي، سألتني إذا كانت تستطيع أن تحممني، رفضت.

في اليوم التالي، أخذتني إلى السوق. كان الجو حارًّا وجافًّا، أكثر حرارة من أي يوم في المخيم. في الطريق رأينا رجلًا عاريًا يسير في الشارع. لم يحاول أحد أن يوقفه أو يسخر منه. فقط تركوه يمشي، كما لو كان جزءًا شرعيًّا من عالمهم.

اشترت لي الشابة ذات الحالة الممتازة فستانًا أصفر مزينًا بكشاكش من الدانتيل الأبيض على الظهر. كنت أرغب في فستان مزين بالكشاكش

مثل هذا منذ أن كنت في الرابعة من عمري. شعرت أن الفستان يشبه طبق الأرز المزخرف الذي يقدمه المسلمون في نهاية شهر رمضان. كما اشترت لي أربعة أزواج من الملابس الداخلية. مر عام منذ أن ارتديت ملابس داخلية بلا حزام خصر مطاطي مكسور.

أقمنا مع الأصدقاء لمدة يومين. ثم استقللنا الحافلة غربًا إلى أوفيرا، على ضفاف بحيرة تنجانيقا، للقاء كلير. في الطريق، نمت، وعندما استيقظت، كنا في وادٍ. كانت الشمس قوية جدًّا. بعض الأشجار كانت مورقة، لها ظلال واسعة وملمس مطاطي، وكانت هناك أشجار النخيل والصبار أيضًا. أُمرنا بالنزول من الحافلة للمرور عبر نقطة تفتيش حدودية. كانت الرياح ساخنة. امتلأت عيناي وفمي بالغبار. قرأ الضابط أوراق روب ونظر إلى أوراقي، ثم سمح لنا بالمرور.

عدنا إلى الحافلة وكنت أحاول إبقاء نفسي مستيقظة. كنت أتأمل وجوه الناس الذين يسيرون على الطريق، الأطفال الذين يلعبون كرة القدم، والمنازل الكبيرة، وباعة البرتقال، والأسماك، والحلوى، والخبز. كنت أريد كل شيء. حدَّقتُ إلى تلك المناظر وحاولت تخزينها في ذاكرتي حتى أتمكن من معرفة طريق العودة إليها. مررنا بمنازل جميلة، وحدائق مليئة بأزهار البوجنفيليا[1] الوردية، والبنفسجية، والبيضاء.

في النهاية توقفنا عند جسم مائي أزرق شاسع. ظننت أنه نهر أو المحيط –لم أرَ المحيط من قبل– لكن روب قال إنه بحيرة. كان الماء بلون أزرق داكن مشع. لم أستطع الانتظار حتى غروب الشمس. عند غروب الشمس، كنت سأتمكن من رفع الماء مثل بساط والتلويح به، وزيارة جميع الكائنات الموجودة في الكون تحته.

(1) يُطلَق عليها في الدول العربية: الجهنمية، أو المجنونة. (المترجم).

من البحيرة، استقللنا دراجة نارية صعودًا إلى تلة، إلى منزل خال روب –مبنى من الطوب الأحمر مكون من طابق واحد مع نوافذ زجاجية في المقدمة، ومصاريع خشبية على الجانبين، وسقف من الصفيح. كانت كلير بالداخل، ترتدي فستانًا طويلًا مطرزًا بالألوان الوردية والصفراء. شعرت بالارتباك التام، إذ ارتدت في السابق ملابس صبيانية دائمًا.

رائحة المنزل تشبه الثوم والبصل. أولاد خال روب الخمسة، الذين تتراوح أعمارهم بين خمس سنوات وسبع عشرة سنة، يلهون حول المنزل، ممتلئين حيويةً وصفاءً، وكأنهم عالم متكامل. كانت والدة روب وخالته تُعِدَّان أطباقًا كبيرة من الأرز، والباذنجان، وحساء السمك.

ركضت إلى الأريكة وبكيت. أردت العودة، لكن لم أعلم إلى أين. لم يتحدث أحد عن المنزل.

الأولاد ينامون في غرفة واحدة والبنات في غرفة أخرى، لذا نمت في غرفة مع مواسيتي التي كانت في الحادية عشرة من عمرها، ودينا التي كانت في الرابعة عشرة، كلنا في سرير واحد، وأنا في الوسط لأنني كنت خائفة.

كلير، لأنها أصبحت الآن متزوجة، كان لها غرفة في الجهة الأخرى من المنزل، مع روب. خلال الأسابيع القليلة الأولى، كنت أقف باستمرار على فراشنا وأحاول لمس السقف. كنا ننام في العراء لمدة عام ونصف.

حاولت أن أتصرف كطفلة عادية؛ الطفلة التي كنت أو التي أردت أن أكونها –بلا قلق، مرتاحة، ألعب لعبة اركل العلبة[1]، وأجري في الشوارع

(1) هي لعبة كلاسيكية للأطفال، وتُلعَب عادة في منطقة مفتوحة مع وضع علبة أو شيء مشابه في مكان مركزي. يحرس أحد اللاعبين العلبة في حين يذهب الآخرون للاختباء. يهدف المختبئون إلى ركل العلبة دون أن يُمسَكوا، فإذا نجح أحدهم في ركل العلبة، يُحَرَّر اللاعبون الذين أُسِروا. (المترجم).

وأدخل وأخرج من منازل الناس. حاولت أن أتخيل ما كان سيفعله بودي. كان واثقًا، ماتعًا، ومتمردًا بعض الشيء. أما أنا، فكنت خجولةً غير مستقرة، ولم أنسجم مع الآخرين.

خلال العام الماضي، تعلمت كيفية قضاء الساعات في خمول منفصل عن الواقع، لأن كل ما يمكنك فعله في مخيم اللاجئين هو قتل الوقت. الآن، كنت أراقب مواسيتي وهي تنظف الأواني بعد الغداء. كانت تعمل بكفاءة جنونية. في غضون دقيقتين، كانت أعمق وأكثف بقايا الدخان الدهني تختفي وتصبح الأواني كأنها جديدة. كانت مواسيتي ودينا تضحكان بسبب بطئي، لكنهما كانتا تفعلان ذلك بحنان ومودة، وكأنني طائر صغير مكسور الجناح، مشروعهما الحزين واللطيف، يعرج هنا وهناك.

بكيت لأيام، ربما لأسابيع. ثم لملمت شتات نفسي. عدت إلى السؤال الوحيد في حياتي: «**كيف أستطيع النجاة هنا؟**».

عائلة روب، مثل باقي الناس في أوفيرا، كانوا يتحدثون بمزيج من السواحيلية، والكيبمبية[1]، والفرنسية، وفي كل صباح عند الساعة الخامسة، كانت خالة روب، ماما دينا، تستيقظ للصلاة بصوت عالٍ. كانت صلواتها تختلف كثيرًا عن الصلوات الكاثوليكية التي كانت أمي تحفظها وترددها. كانت ماما دينا أحيانًا تدعو الملائكة، وأحيانًا كانت توبخ الأرواح الشريرة. لم تكن ماما دينا تتحدث إلى يسوع أو مريم فقط. لم تقل أي شيء عن ظهر قلب. كانت تتحدث إلى الرب مباشرة.

---

(1) هي اللغة التي يتحدثها شعب بمبي، وهم مجموعة عرقية توجد بشكل أساسي في شرق جمهورية الكونجو الديمقراطية، وأجزاء من غرب تنزانيا. هذه اللغة هي جزء من عائلة لغات البانتو المستخدمة في منطقة البحيرات الكبرى في إفريقيا. (المترجم).

كانت تقول باللغة السواحيلية غالبًا: «يا إلهي، هذا بيني وبينك فقط. ما الذي يحدث؟». وأحيانًا كانت تناديه «أبي»، كما في: «أبي، لدينا أطفال جائعون، وأناس متعبون. لطالما اعتنيت بنا. أبقنا بصحة جيدة. احمنا من الشر. أنهِ هذه الحرب. ليس لدينا دواء. ساعدنا».

اختفى والد روب، وزوج ماما دينا كان يعود في المناسبات فقط، لكنها لم تشتكِ أبدًا. كلما طهت ماما دينا أو تحدثت أو تحركت، كانت تفعل ذلك بجسدها كله بطريقة مدهشة، وشعرها مشدود بإحكام إلى الخلف على فروة رأسها. إذا طلبت منك القيام بشيء ما، فينبغي أن تطيعيها. كانت مصدر أخباري، كنت أعرف ما يحدث في العالم من خلال صلواتها.

بالطبع، كنا نستيقظ حالما تبدأ في الصلاة، لكننا نبقى في الفراش ولا ننهض حتى الساعة السادسة.

أما والدة روب، التي كنا نسميها ماما نيبيلي، فكانت أصغر حجمًا، وبشرتها أفتح، وعظام وجنتيها كانت بارزة، كما كان لديها حضور ألطف وأكثر هدوءًا. كانت تلف شعرها المجعد بإحكام في قطعة قماش وتمسك بيدي عندما تتحدث.

حالما تمكنت من اجتياز يوم دون بكاء، سجلتني ماما نيبيلي في الصف الثاني. أجرت بعض التعديلات على زي مواسيتي الأزرق الملكي القديم كي يناسبني. في أول يوم كنت متحمسة جدًّا للعودة إلى المدرسة مرة أخرى، ولكن اتضح أنها كانت أكاديمية مسيحية صارمة وعقابية، وكانت التعليمات فيها باللغتين السواحيلية والفرنسية.

لم أعرف تقريبًا أي شيء من السواحيلية، أما الفرنسية فلا أعرف سوى بضع كلمات – **«Maison» (منزل)، و«Voiture» (سيارة)** – وكلما أخطأت في نطق مفردة، كانت الراهبة تأتي وتضرب ظهر يدي.

إذا تأخر أحد الطلاب، كانت تُضرَب يده. إذا رد طالب بشكل غير لائق، كانت تُضرَب يده. بعد ثلاثة أيام فقط، حاولت إقناع ماما نيبيلي بأن تسمح لي بترك المدرسة. أجلسَتني بجانبها، وأمسكت بيدي، ورفضت.

ولجعل الأمر أكثر إغراءً، اشترى لي روب بالمال الذي يكسبه من عمله في منظمة **كير**، زوجين من الأحذية الرياضية –أحدهما أزرق بأربطة صفراء، والآخر نايكي بلاصق فيلكرو. وجدت كلير لي زيًّا مدرسيًّا جميلًا –مريلة زرقاء ملكية بأشرطة كتف تشبه تلك الموجودة في السراويل وتتقاطع في الخلف. ومع ذلك لم أرغب في الذهاب إلى المدرسة.

في وجبة الإفطار كل صباح، كنا نتناول خبزًا طازجًا يُشتَرى من رجل يمر بجانب المنزل حاملًا أرغفة الخبز، وكنا نشرب الشاي مع الحليب والسكر. لا أحب الشاي، لكنني تظاهرت بأنني أحببته. كنت أغمس خبزي المُضَفَّر فيه، وعندما يبدأ الخبز بالتفتت ويملأ فتات الخبز كوب الشاي، أعلن أنه أصبح فوضويًا جدًّا ولا أستطيع شربه. في تلك اللحظة، كانت مواسيتي تقول: «دعيني أساعدك في ذلك»، ثم تشرب شايي.

في فترة ما بعد الظهيرة، بمجرد أن تفرج الراهبات عنا، كنا نركض إلى المنزل ونلعب البلي ونتجول في الشوارع. مع مرور الوقت بدأت أسترخي، وعرّفتني مواسيتي ودينا على العشرات من النساء اللاتي كن يناديهن «خالة»، وجميعهن أخذنني تحت جناحهن. كان شعري قد نما. كان كثيفًا وفوضويًّا.

يوميًّا، كانت إحدى الخالات تقول: «ما هذه الفوضى؟» ثم تجلسني لغسل شعري وتجديله. كنت أشعر أنني مميزة. كان الجميع مميزًا. كان يُقال لكل واحدة: **«لديكِ الشعر الأطول»**، **«لديكِ الشعر الأقصر»**، **«شعركِ هو الأكثر كثافة»**.

كانت النساء يهدينني فساتين الأحد المكوية التي لم يعد باستطاعة بناتهنَّ ارتداؤها. كُنَّ يعرضن عليَّ قص أظافري وطلاءها، وفرك قدمي. وخلال ذلك كله، كن يستمعن إلى الراديو ويتفاخرن بالطعام الذي كن يخططن لطهيه -نخاع العظام والفاصولياء. كن يتفاخرن بمودة بما اشترينه من السوق. يتحدثن: «**هل تريدين أن تعرفي ماذا اشتريت من السوق؟ اشتريت هذه البصلات الطازجة والثوم. هل حصلتِ على الثوم؟ أوه، ألم تشتريه؟ سأريكِ. انظري كم هو جميل!**».

لأن أوفيرا كانت على البحيرة، كان جميع سكان البلدة يأكلون السمك من الاثنين إلى الخميس. كثيرًا ما كان الناس في السوق يقولون: «لديَّ الكثير من السمك، خذوا بعضًا منه». الأطفال أيضًا كانوا يغنون أغاني سخيفة عن ذلك: «**لا تكن بخيلًا. هناك ما يكفي من السمك في البحيرة لتجفيفه، وقليه، وشَيِّه**».

كانت عطلات نهاية الأسبوع احتفالًا. لحم البقر، والدجاج، والصلصات المُعَدَّة بإتقان، وأوراق البفرة المهروسة والمطبوخة في زيت النخيل مع الثوم والمكسرات -بالإضافة إلى الملابس الأكثر روعة. كان رجال ونساء زائير يرتدون أفضل ما لديهم. لم أرَ شيئًا مثل ذلك من قبل، مزيجًا معقدًا من الأنماط الأوروبية والإفريقية -البلوزات التي تبدو فرنسية وإيطالية، ومعاطف بأسلوب شانيل، وأغطية رأس من السنغال، وملابس مستعملة مستوردة من فرنسا، وإسبانيا، والولايات المتحدة.

في رواندا، كان ارتداء الملابس يعني أن تبدو محترمًا، ومهذبًا، ونظيفًا. كانت الملابس تهدف إلى إخفاء الشخص. الكاثوليكية الصالحة كانت تعني أن تحجب المرأة جسدها دون احتفاء وتستره.

لكن زائير لم تكن كاثوليكية فقط –كان فيها المسلمون أيضًا، والبروتستانت، والشرق أوسطيون وأفارقة، وهنود، وأوروبيون، كانت مزيجًا نابضًا بالحياة. الملابس كانت أشبه بالأزياء التنكرية –وسيلة للتعبير عن الذات، وتصريحات مبهجة عن الجمال. كانت كلير تعشق ذلك. في يوم ما ارتدت فستانًا طويلًا مزينًا بنقوش زاهية، وفي اليوم التالي ارتدت بلوزة وتنورة مفصَّلَتَين بشكل أنيق. النساء كُنّ يرتدين لأنفسهن ولإثبات أن أزواجهن، وآباءهن، وإخوتهن كانوا يوفرون لهن ما يكفيهنَّ. أنشأت كلير عملًا تجاريًّا، وبدأت تبيع حقائب اليد. كانت الحقائب جميلة جدًّا.

في ظهيرة أيام الجمعة، كان الرجال يقفون في طوابير طويلة عند محلات الحلاقة، وكانت النساء يملأن الصالونات، وبعضهن يشعر بالذعر إذا لم يكن شعرهن قد غُسل وجُفف قبل غروب الشمس. في أيام السبت والأحد، كان الرجال يرتدون بدلات وربطات عنق. كانت الشوارع تعج بالموسيقى، وأصوات أجهزة الراديو عالية في غرف المعيشة ومداخل المنازل.

عندما كانت تُذاع أغنية جديدة، كان الكبار يدفعون الأطفال للرقص. لم أعرف كيف أرقص، وكنت خجولة، لذا كنت أقف بعيدًا، خلف ماما نيبيلي إن أمكن وأراقب. ثم كنت أتدرب على الرقص حين لا ينظر إليَّ أحد.

بعد فترة قصيرة، بدأت أنسى. بدأت أنسى المخيم وأنسى رواندا. في معظم الليالي كنا نجتمع لتناول الطعام باعتبارنا عائلة، عشرة أو اثنا عشر منا، بما في ذلك خال غير متزوج كان يأتي غالبًا لتناول الغداء ويبقى حتى العشاء. بدأت ماما نيبيلي تلمح أنه إذا كان سيأكل في المنزل كل يوم، فعليه أن يحضر معه بعض السمك.

كنا نجلس حول قِدْر مشترك من حساء البطاطا الحلوة والخضروات، والفاصولياء، أو السردين المشوي. إذا كنت بطيئة –وقد كنت كذلك– ستفوتين الطعام. لذا بدأت ماما نيبيلي في تخصيص طبق لي؛ وجبة صغيرة محفوظة في المطبخ. أحببتها بسبب هذا التصرف. شعرت بالاحتواء، والحنين. كانت دائمًا تتحدث إليَّ بلطف وتربِّت على يدي، فكنت أشعر بالراحة.

بدأت أتعلم المزيد من اللغة السواحيلية أيضًا. الكلمات في السواحيلية تشبه الرقص. عندما أغضب، أفكر بالسواحيلية لأن هذه هي اللغة التي تعلمت فيها التعبير الكامل عن مشاعري.

في الصباح الباكر، في الظلام قبل أن تشرق الشمس، كنت أضحك مع مواسيتي ودينا في السرير خلال صلوات ماما دينا الطويلة المجنونة. في عطلات نهاية الأسبوع، كنا نُخرِجُ التلفاز إلى الشرفة الأمامية ونرقص معًا في الفناء الكبير، ثمانية أو عشرة أطفال، ونحاول تقليد جميع حركات الرقص في فيديوهات أغاني بابا ويمبا.

في إحدى الليالي، حلمت حلمًا غريبًا جدًّا. كان يدور حول قطة سوداء ترتدي أقراطًا، وتتحول إلى إنسان. بعد بضعة أيام، جاءت امرأة إلى المنزل. اعتقدت أنها كانت السيدة القطة. لم يكن أحد يحبها ولا أعرف السبب. ذكرت حلمي وتلك المرأة لكلير، فقالت إن الحديث بهذه الطريقة قد يسبب المتاعب. الرواندِيون يأخذون عالَم الأحلام بجدية. عندما تستيقظ، يسألك الناس: «ماذا حلمت الليلة الماضية؟» إنه يشبه قول «صباح الخير».

ربما كانت هذه الحياة هنا في زائير، هي حياتي الحقيقية وكل ما كان قبلها مجرد حلم.

شعرت كلير أنها محاصرة. كانت تريد الذهاب إلى المدرسة كما وعدها روب، لكنها لم تستطع لأنها أصبحت الآن حاملًا. لذا قضت وقتها في منزل عائلة روب، وتخبرني أننا سنعود إلى المنزل قريبًا.

كنت أعرف أنها تكذب، ولكنها كانت لا تعرف، وأنا كنت أعرف أنها لا تعرف، وكنت أشعر بالاستياء تجاهها بسبب ذلك. لم يكن لدى أحد هواتف. لم يكن أحد يتحدث حتى عن الاتصال بوالديَّ –كان الأمر مستحيلًا. لم يعد أيٌّ من أحذيتي التي جلبتها من رواندا يناسبني. فقدت العديد من أسناني وكرهت الأسنان الجديدة التي حلت محلها.

كانت كلير تقضي أيامها في التأنق –فساتين الكيتنجي[1]، والنسخ المقلدة من الأزياء الأوروبية الأنيقة. ماذا كان بإمكانها أن تفعل غير ذلك؟ روب كان يغيب عن المنزل لمدة أسبوعين أو ثلاثة في كل مرة للعمل في المخيم. كانت وظيفته جيدة، وكان ابنًا بارًّا وزوجًا مخلصًا. عندما كان يعود إلى أوفيرا، كان يجلب الهدايا: مستحضرات تجميل فاخرة لوالدته، ومستحضرات تجميل لكلير، وقمصان كرة قدم متطابقة لكأس العالم النيجيري للأطفال، كل قميص في أنبوب بلاستيكي خاص به، كنا جميعًا نعتز ونحتفظ بها. كان يشارك راتبه مع الأسرة الممتدة، واشترى قطعة أرض صغيرة على تل عالٍ، تطل على البحيرة، وكان يخطط لبناء منزل لكلير، وله، وللطفل، ولي.

مع تقدم كلير في الحمل، بدأ سكان أوفيرا كلهم ينادونها **دادا**، وهي الكلمة السواحيلية التي تعني الأخت. كان ذلك يخيفني. كانت جدتنا

(1) نوع من الأقمشة المنقوشة ذات الألوان الزاهية التي تُرتَدى عادةً في شرق وغرب ووسط إفريقيا. تُصنَع عادة من القطن، وتصميماتها جريئة ونابضة بالحياة. (المترجم).

قد أخبرتنا: «**إذا فقدتِ لغتكِ، فستختفين**». لم ينبغِ لكلير أن تفقد اسمها.

في عيد الميلاد، بعد أن بلغت الثامنة، أعطتني إحدى صديقات كلير حقيبة ظهر عليها رسومات ميكي وميني ماوس. كانت حقيبة زهرية زاهية مع حمالات كتف برتقالية وحزام برتقالي يُغلق بإحكام على الخصر مع صوت طقطقة جميل. كانت ميني ترتدي فستانًا أحمر منقطًا بالأبيض، وكان لكل من ميكي وميني أحذية بيضاء ضخمة. كنت أعشقها.

كانت ماما نيبيلي تمتلك حقيبة يد ملأى بالكنوز: كريمات لليدين، وأقلام، وإنجيل صغير. داخل حقيبة الظهر الجديدة، احتفظتُ بالصخرة التي أخذتها من المخيم والبِليِّ المفضلة لدي، لأعرضها على بودي يومًا ما.

بعد بضعة أشهر، في آذار، دخلت كلير، التي كانت تبلغ حينها سبعة عشر عامًا إلى المستشفى في وسط مدينة أوفيرا، مثل أي امرأة حامل في المجتمع، وأنجبت مارييت. بذلك أصبحت كلير نجمة صغيرة في منطقتنا، ملكتنا الشابة. أحضر الناس لكلير الطعام، والأقمشة التقليدية «**كانجا**»، والنعال المريحة، والمجوهرات، وكل شيء كانت تتمناه.

بعد المدرسة، كنت أظل منتظرة بقايا الطعام. في بعض الأيام، كانت ماما نيبيلي تعلمني والبنات الأخريات كيفية رفع رأس مارييت، وتغيير حفاضتها، وكيفية تحميمها، وطريقة إبقائها دافئة أو باردة. كنت أرى الحبل السري لمارييت مقززًا، وأبديت امتعاضي. أمسكت ماما نيبيلي بيدي وقالت، «هكذا تتصل الطفلة بأمها».

سألتها: «أين يذهب ذلك الجزء الذي يتصل بها؟».

فقالت: «هذا موضوع آخر».

لكن رغم ذلك، وقعت في حب مارييت. كانت مثل الدمية بالنسبة لي، دميتي الخاصة. لم أُرِد أن يلمسها أي من الأطفال الآخرين. كنت مهووسة بالحفاظ على نظافتها.

كانت كلير أقل تملكًا، وأقل تسلطًا. كانت تحب مارييت، لكنها لم تبدُ وكأنها تريد هذه الحياة.

كنا نسير معًا أسفل التل إلى البحيرة للسباحة. مررنا بشجر المانجو، وأشجار الجوافة، وسوق السمك، والمنازل الجميلة المطلة على الماء. في الطريق، كان الأطفال يتبادلون المزاح، ويمازحونني قائلين: «إذا كنتِ تريدين تجديل شعر كليمنتين، عليكِ أن تخصصي الشهر كله! فشعرها مثل الغابة!».

لم أعرف كيف أرد بالمزاح –كانت أمي تعاقبني إذا قلت لبودي إن رأسه كبير– لكنني كنت أدرك أن هذا المزاح كان من باب المحبة. كنا نسبح طوال الصباح، حتى يصبح جلدنا شاحبًا ومجعدًا. ثم كنا نملأ الدلاء بالماء ومسحوق صابون «أومو»، ونغسل ملابسنا، ونجلس تحت أشعة الشمس حتى تجف.

عادة ما كانت ماما نيبيلي تعطينا بعض النقود، وكان أحد الأطفال يركض إلى السوق لشراء خبز البفرة والسمك المشوي لتناول الغداء. لم أرغب في العودة إلى المنزل –الصعود إلى التل.

بعد أربعة أشهر من ولادة مارييت، وصل قريبان آخران، مادو وباتريك، دون والديهما، على متن قارب من الجنوب، يحملان أكياسًا كبيرة من زيت النخيل الأحمر، والأسماك المجففة، وخبز اليوكا[1]. كانت

---

(1) يُعرَف أيضًا باسم خبز البفرة، وهو نوع من الخبز المصنوع من دقيق اليوكا (البفرة) أو جذور البفرة المبشورة. (المترجم).

عائلتهما تواجه صعوبة في إبعادهما عن المتاعب وتغذيتهما، رغم أن الأمر لم يكن طارئًا بعد.

مادو، الذي كان في سني، كان ممتلئًا قليلًا. أما باتريك، الذي كان في الخامسة، فكان يشعر بأنه يستحق أن يُدلَّل. كان يشكو باستمرار، بطريقة ساحرة، بأنه يشعر بالحر الشديد أو البرد الشديد، أو أنه صغير جدًّا على القيام بالأعمال المنزلية. كان يطلب منا الغناء له؛ ولا أحد كان يستجيب لطلبه سوى مادو.

في بعض الليالي، كانت الكهرباء تُقطع –وكانت هذه الليالي هي المفضلة لدي. كانت إحدى الليالي مظلمة بشكل خاص، بلون أزرق غامق مع ظلال سوداء، وجاء جميع الأطفال في الحي إلى منزلنا للعب «اركل العلبة»، لأن لدينا أكبر ساحة. من بينهم كان هناك «سيرج»، وهو فتى من المدرسة ذو بشرة سوداء داكنة، وكنت معجبة به جدًّا. طوال اليوم في المدرسة، كنت أكتب اسمه على دفتر ملاحظاتي. وكان يرسم لي زهورًا على قصاصات من الورق، لكننا لم نتحدث قط.

كانت تلك الليلة بطيئة ولذيذة. لعبنا لساعات.

بعد وقت طويل من اللعب، حين كانت أجسادنا جميعًا مرهقة، وأجفاننا متراخية بسبب الإرهاق، قُبِضَ على «سيرج» ووضع في سجن لعبة «اركل العلبة»، حيث كان العديد من الأطفال محبوسين بالفعل. وبعد لحظات، سمعتُ اسمي يُنادى. اكتُشِفَ مكاني، وكان عليَّ أن أهرب بسرعة لتجنب القبض عليَّ وإلا سأجد نفسي في السجن أيضًا. لم أركض في حياتي بمثل السرعة التي ركضت بها آنذاك، ووصلت إلى العلبة وركلتها –حققتُ انتصارًا عظيمًا.

تحرر سيرج وزملاؤه السجناء! رفعوني مثل نجم كرة القدم الذي سجل هدف الفوز. ابتسم سيرج وقال: «في المرة القادمة أريدكِ في فريقي».

الناس هناك لطفاء جدًّا. هناك كلمة جميلة في اللغة السواحلية: «**نيشاوري**» -تعني «انصحني». عندما يغضب شخص ما منك، كان يأتي إلى منزلك ويجلس ويتحدث، ويقول: «**كان ذلك التصرف غير محترم على الإطلاق، وأعتقد أنه يجب أن نتشاور حول كيفية المضي قدمًا. فلنصنع السلام هنا ونتوصل إلى نتيجة جميلة**».

كُسِرَت التعويذة بعد بضعة أشهر بدأ الناس بالتدفق إلى أوفيرا، يأتون ويطرقون الأبواب، ويتوسلون للحصول على وجبات. كانت زائير تُعد فخر إفريقيا الوسطى لتحررها من السيطرة البلجيكية والفرنسية. لكن الآن بدأت المعارك تنشب في الشمال.

كان الجنود يُجَوِّعون مواطنيهم عن طريق قطع إمدادات الطعام – هذا كان أقصى ما فهمته. كانت ماما دينا وماما نيبيلي تطبخان كميات إضافية من حساء السمك والأرز، وكان الغرباء اليائسون يأتون لتناول الطعام.

استمر الناس في القدوم. ينزلون من الحافلات، ويملؤون الأسواق، ويفرغون الرفوف. كانت ماما دينا تصلي بحرارة قائلة: «يا رب، احمِ الأطفال الذين يحملون البنادق. امنحهم السلام. نقِّ عقولهم. يا رب، اعتنِ بالجياع».

سرعان ما أصبح الطعام بالكاد يكفي عائلتنا. توقف الرجال عن الصيد. شعروا أن الأمر أصبح خطيرًا جدًّا. كنا نأكل وجبة واحدة في اليوم. أغلقت المدرسة أبوابها. فرضت الشرطة حظر التجوال. قُطعت

الكهرباء والمياه. كما هو الحال في كيجالي، بدأ العالم ينكمش إلى الداخل.

ازدادت صلوات ماما دينا وأصبحت أكثر قوة: «يا رب، امنح أولئك الذين يلقون القنابل عقلًا راجحًا. أحضر الدواء للمرضى والمحتضرين. يا رب، عاقب من يرتكب الشر. يا رب، احمِ منزلنا».

اصطف رجال الشرطة والجنود على الواجهة البحرية. في المساء، كنت أسمع أصوات إطلاق النار.

«يا رب، هذا هو بيتك. لن تهزه أي عاصفة، ولا حتى عاصفة من صنع البشر».

كلير لم تكن تريد الانتظار حتى يزداد الوضع سوءًا. لذا رتب روب لنا لنأخذ قاربًا إلى بلدة قريبة من كازيميا، حيث يعيش بعض أفراد عائلته الممتدة. جمعت كلير مجوهراتها وملابسها، وأي شيء يمكنها بيعه. أخبرتني أن أحشو ملابسي في حقيبة ظهري. كان علينا الرحيل.

لم يكن هذا قرارًا مشتركًا أو حتى نقاشًا حقيقيًّا؛ لم تشاورني: **«أعتقد أننا يجب أن نغادر. ما رأيك؟»** بل كان أمرًا: **«سنرحل الآن»**.

أخذنا القارب إلى الشاطئ الغربي لبحيرة تنجانيقا بالقرب من نهر لوكوجا، وهي جنة استوائية خصبة. كانت رائعة، وكرهتها منذ النظرة الأولى. عندما وصلنا إلى الميناء، كان الجنود يصيحون: «عشرون دولارًا، عشرون دولارًا، عشرون دولارًا». أعطتهم كلير المال. ثم قالوا: «الوثائق، الوثائق». أظهرت لهم كلير أوراقنا المزيفة. فسمحوا لنا بالمرور.

كان خال روب قسيسًا محترمًا جدًّا لأنه نجح في تحويل كل قريته إلى المسيحية. كان الجميع لطيفين معنا –لدرجة أن بعض الناس ارتابوا وبدؤوا يثرثرون: ما الذي يجعلنا مميزين؟ لكن داخل مجمع القس، كما في أوفيرا، أرادت كل النساء أن يجدلن شعري. أردن أن يأخذنني

تحت جناحهن. أردن أن يطبخن لي ويعلمنني كيف أطحن البفرة. لم أرغب في هذا الحنان. كنت قد سئمت من إطلاق لقب خالاتي على نساء جديدات. لم أعد أستطيع فعل ذلك مرة أخرى.

شعرت الآن أنني ارتكبت خطأ في أوفيرا. سمحت لنفسي أن أرتاح. سمحت لنفسي أن أشعر بأنني أنتمي إلى ذلك المكان. لكن لم يكن هناك انتماء حقيقي –ليس بعد الآن. لم يكن هناك سوى القدوم والذهاب، القدوم والذهاب، والموت. لم يكن هناك جدوى من السماح لأي شخص بالاقتراب.

حينما كنت أتجول في القرية، كان الناس يقولون: «كيف كان الشاي هذا الصباح؟ كيف حال عائلتك؟ أراك تشترين ثلاثة أرغفة من الخبز. هل لديك زوار؟ من أين أنت؟» لا أملك إجابة عن هذا السؤال الأخير.

لذا ركزت انتباهي كله على مارييت. كانت بمنزلة باربي الكبيرة بالنسبة لي، سعيدة، ومبتسمة، وغير مدركة لما يجري. غالبًا ما كانت كلير تخرج في أثناء النهار؛ لم أعرف إلى أين تذهب. ربما كانت تكره كل الأدوار والقواعد –**كوني زوجة على النحو هذا، كوني أمًّا على النحو ذاك**– التي أرادت النساء المحليات فرضها عليها. منحت نفسي دور الأم ذات الثماني سنوات لمارييت. كنت أحملها في كل مكان. كنت أطعمها كلما أصدرت صوتًا. كنت أحدق إليها حينما تغفو.

في بعض الأحيان، كانت ابنة خال روب، التي كان لديها ثلاثة أطفال من قبل، تصر على رعاية مارييت. كانت تعتقد أنها كانت تقدم خدمة لي، لكنني كنت أشعر بالتهديد والإقصاء. كانت تربط مارييت إلى ظهرها بقطعة قماش. وتأخذها إلى البحيرة للاستحمام. كانت تمشي وتغني حتى تنام مارييت. كنت أكرهها لذلك –أكره كفاءتها الفطرية.

كانت قوية وقصيرة القامة، وكانت تصرخ في أطفالها عندما يسيئون التصرف. لم يكن لدي أحد ليصرخ في وجهي.

كنت أشتاق لبودي أكثر من أي وقت مضى، لرائحة قميصه الأديداس القذر. شعرت به يتلاشى في ذهني. كنت أتذكر مغامرات «تن تن»، والزحلقة فوق البلاط المملس بالصابون، ومشاهدته وهو يتسلق الأشجار الهشة. كنت أرى ذراعيه الداكنتين النحيلتين. هذا كل ما تبقى لي. كنت أشعر بالوحدة الشديدة.

لم أتوقع أن تدللني كلير. حتى قبل أن نهرب، كنا نتشاجر بشدة. عندما كنت في الخامسة من عمري، سرقت ساعتها البيضاء. وضعتها في حقيبتي لأعرضها على الأطفال الآخرين في المدرسة، لكن حتى بعد أن عاقبتني أمي على أخذها، لم أتمكن من العثور على الساعة. لم تغفر لي كلير قط.

الآن أصبحت كلير حياتي لكنها كانت بعيدة. كنت أغير حفاضات مارييت خمس عشرة مرة في اليوم. كنت أريد أن تكون مؤخرتها جافة، جافة جدًّا. كنت أخشى أننا لا نملك ما يكفي من البودرة. لم أرد أن تصاب مارييت بطفح جلدي. لا ينبغي أن تمرض مارييت قط. كان يجب أن تظل نظيفة، نظيفة تمامًا. كنت لا أسمح لأي شخص تقريبًا بلمسها. عندما تعود كلير في نهاية اليوم، كنت أسألها: «هل غسلت يديكِ؟» قبل أن أسمح لها بإرضاع مارييت.

في النهاية، وصلت ماما نيبيلي. بكيت من شدة الارتياح.

لكن بحلول ذلك الوقت، كانت كازيميا قد بدأت في الانهيار. قُطعت الكهرباء والمياه وحل محلهما الرعب والإرهاب.

الهروب من كازيميا لم يكن يتطلب السفر على طول شاطئ بحيرة تنجانيقا فقط، بل عبورها أيضًا، وهي رحلة تستغرق ست

ساعات. احتشد نحو خمسين شخصًا مذعورًا معنا في قارب صغير، بما في ذلك إحدى قريبات روب. كنا نحمل كل ما تبقى من حياتنا –أو ما تبقى لنا من تلك الحياة. كانت قريبة روب قد فقدت طفلها قبل بضعة أشهر بالملاريا، ولم يكن هناك دواء. كارثة طبيعية تعينها الحرب.

بدأنا نغرق في الماء فور مغادرتنا. الطريقة الوحيدة كي لا نغرق كانت تتمثل في جعل القارب أخف وزنًا، وأن نستبدل ممتلكاتنا بحياتنا. لذا بدأ الناس بإلقاء التذكارات –الصور المؤطرة، والفضة، والمجوهرات– في الماء ومشاهدتها تختفي.

النظرات على وجوه الناس كانت نظرات ذاعرة. من الأسهل أن تصرخ. لكننا تعلمنا جميعًا ألا نصرخ، لأنه إذا صرخت، قد تُقتل، وما الفائدة إذا كانت ملامح الجميع تصرخ بالفعل؟ بدأت إحدى النساء برمي أطباقها الصينية، واحدًا تلو الآخر؛ ثم بدأت في رمي أكواب الشاي الزجاجية.

ومع ذلك، استمر الماء البارد في الارتفاع، متسلقًا سيقان البالغين، ومتجاوزًا ركبتيَّ.

كنت أصلي كما كانت أمي تصلي، لكل قديس يمكنني أن أتذكره – مريم، روز، كاثرين. ثم صليت مثل ماما دينا ووعدت الرب بأننا لو نجونا ووصلنا إلى الجانب الآخر، فإن بإمكانه قتلي بأي طريقة يريد. فقط لا أريد أن تموت مارييت أو أيًّا من الأطفال على متن القارب بهذه الطريقة.

وعدت الرب إذا خرجنا من هذه المحنة، سأكون أفضل طفلة، وأفضل أخت، سأكون جيدة وكريمة ولطيفة جدًّا –فقط لا أريد الموت في الماء. لا أثرَ يمكن تركه في الماء.

قلت للرب إنني سأموت في أي مكان آخر لكن ليس هنا. صليت لساعات وساعات. كان القارب بأكمله هادئًا، وكنت أبكي وأصلي. فعلت ذلك لفترة طويلة لدرجة أنني لم أعد أستطيع قول شيء آخر.

كان الماء وحشًا. كانت كلير تحتضن مارييت التي كانت تبلغ من العمر سبعة أشهر. كنت أريد أن أحتضن مارييت لكنني كنت قصيرة جدًّا. لم أستطع تحمُّل فكرة أنها قد تموت. كانت الحياة أسهل عاطفيًّا عندما كانت الأمور تخصني أنا وكلير فقط.

الآن كان لدينا حياة أخرى، تغرق في هذا الفم المفترس. كان القمر مكتملًا. حاولت إجبار نفسي لأكون خفيفة كالهواء، حتى تسبح ذرَّاتي وتتناثر في الريح. ارتفع الماء إلى خصري. فقدت صوتي. لم ينبس أحدٌ ببنت شفة.

2004

6

في الصف الثامن، وضعت معلمة اللغة الإنجليزية في أكاديمية التراث المسيحي مصطلح **الإبادة الجماعية** ضمن قائمة المفردات. كرهتها فورًا.

لم أفهم حينها مغزى مصطلح **الإبادة الجماعية**. أما الآن، فأشعر نحوه بالاستياء والاحتقار. إنه مصطلح أنيق وفعال، ولكنه خالٍ من المشاعر الحقيقية. إنه غير شخصي في حين يجب أن يكون حميميًّا، وهو بارد وعقيم في حين يجب أن يكون وحشيًّا مروِّعًا. إنه أجوف، صادق ولكنه مخادع، مجرد أداء تمثيلي، ويمثل أسوأ أنواع الأكاذيب.

لا يمكن لهذا المصطلح أن ينصِف –ولم يُبتَدَع لينصف– الشيء الذي يصفه.

مصطلح **الإبادة الجماعية** لا يستطيع إخبارك، ولا جعلك تشعر بما شعرت به في رواندا، وما شعرت به في بوروندي –أنني أردت أن أكون

غير مرئية لأنني أدركت أن هناك من يريد قتلي في لحظة من حياتي لم أفهم فيها بعدُ معنى الموت.

مصطلح **الإبادة الجماعية** لا يمكنه وصف ما شعرتُ به حين رفضت أمي أن آخُذ الكوب الطيني الذي صنعته، من منزلنا في كيجالي إلى منزل جدتي في بوتاري. لا يمكنه تفسير سبب تفكيري إلى الآن في ذلك الموقف، وسبب اشتياقي إلى ذلك الكوب، ولا يمكنه شرح تساؤلي فيما إذا كانت أمي لم تسمح لي بأخذ الكوب لأنها كانت تعرف الحقيقة، وخطرها العاطفي، أو لأنها كانت تعلم أنني -وأنَّنا- في تلك اللحظة سنكون قد دُمرنا، وبالتالي أرادت الاحتفاظ بجزء بريء مني وأنا طفلة في السادسة من عمري.

مصطلح **الإبادة الجماعية** لا يستطيع التعبير عن تجربة شخص واحد؛ التجربة الحقيقية لكل فرد من الملايين الذين يدَّعي المصطلح وصفهم. تجربة الطفل الذي تظاهر بالموت وهو في بركة من دماء والده. تجربة الأم التي ركعت على ركبتيها وظلت تنتحب إلى الأبد.

مصطلح **الإبادة الجماعية** لا يستطيع شرح الألم الذي لا نهاية له، حتى لو نجوت وبقيت على قيد الحياة.

لا يستطيع مصطلح **الإبادة الجماعية** مساعدة المدنيين. إنه يفيد السياسي الجالس في الأمم المتحدة فقط، حين يناقش مع بقية السياسيين ببدلاتهم الرسمية: «**كيف سنحل هذه المشكلة؟ لقد ارتُكِبَت بحق هؤلاء الناس جرائم فظيعة. لقد عانوا أمورًا مروعة. إنهم بحاجة إلى الماء، والطعام، و... لحظة...**». يتشتت انتباههم، ويقررون الانتقال إلى موضوع آخر.

مصطلح **الإبادة الجماعية** تجريبي، وعام بشكل مفرط، وغير دموي، ولا إنساني.

كان الناس يسألونني، وما زالوا كذلك: «أوه، هل ذلك مثل الهولوكوست؟».

حتى يومنا هذا لا أعرف كيف أرد بطريقة مهذبة. أريد أن أصرخ: «**لا، الأمر ليس مثل الهولوكوست، أو حقول القتل في كمبوديا**[1]، **أو التطهير العرقي في البوسنة**[2]». لا يوجد مصطلح شامل يثبت أنك تفهم الأمر.

لا توجد تسمية يمكنك نزعها أو لصقها لتبرئتك وإظهار أنك أديت واجبك الأخلاقي المتمثل في الذكرى. هذه -رواندا، حياتي- مأساة مختلفة، وخاصة، وشخصية، تمامًا كما كانت كل تلك الفظائع الأخرى مأساة مختلفة، وخاصة، وشخصية، وداخل كل تلك الصناديق المصنَّفة بأناقة، هناك ستة ملايين، أو 1.7 مليون، أو 100 ألف، أو 100 مليار حياة دُمِّرت.

لا يمكنك ترتيب الفظائع الوحشية وصفُّها وكأنها مجموعة متطابقة.

لا يمكنك الشهادة عليها بكلمة واحدة.

بدأت قراءة كتاب الليل(Night) لإيلي فيزيل(EliE wiESEl) في نيسان ذلك العام. كنت في السادسة عشرة من عمري. أفزعني الكتاب وأراحني في الوقت ذاته. كنت أرغب في قراءته دفعة واحدة. لم تكن

(1) تسمية لسلسلة من المواقع في كمبوديا، جرت فيها عمليات إعدام جماعية في عهد نظام حزب الخمير الحمر بين عامي 1975 – 1979، حيث سعى ذلك الحزب إلى إنشاء مجتمع زراعي غير طبقي مما أدى إلى اضطهاد وقتل أي شخص يعتبر تهديدًا، مثل المثقفين والمهنيين والأقليات العرقية والمعارضين. تسببت حقول القتل هذه إلى مقتل 1.7 – 2 مليون شخص بسبب المجاعة والسخرة والتعذيب والإعدام. (المترجم).

(2) عمليات تطهير عرقي وقعت بين عامي 1992 – 1995 على يد قوات صرب البوسنة ضد السكان غير الصرب، وبخاصة المسلمون والكُرواتيون، وذلك لإنشاء مناطق متجانسة عرقيًا. (المترجم).

الشخصية الرئيسية غريبة أو مثيرة للفضول، ولم تنتمِ إلى تلك الفئة الغريبة – «الشهيد». فيزيل كان أبيض، أوروبيًّا، ذكرًا، ويهوديًّا. فيزيل كان يمثلني.

عبَّر عن أفكار كنت أخجل من التفكير فيها، وحقائق كنت أخشى الاعتراف بها. تحدث عن المشي في الثلج –البرد، وعن اللقمات الصغيرة من الخبز والملاعق الملأى بالثلج، والقدم المصابة المتجمدة التي لم يعد يشعر بها وكأنها لم تعد جزءًا منه، أو كما وصفها: «عجلة سقطت من السيارة. لا تكترث». كنت قد مشيت في الحر، ولكنها كانت المشية ذاتها –يائسة، منفصلة عن الجسد، وسريالية. لم أستطع التوقف عن التحديق إلى الصفحة. كنت بحاجة إلى دراسة أصغر التفاصيل، وكل تفصيل كان يُذلني. الطريقة التي تحدث بها عن والده، التفاني والاستياء. كان يتحدث عن كلير.

لم أعرف التاريخ السياسي لرواندا بعد. كنت أعلم أن طائرة الرئيس قد أُسقطت –أتذكر ذلك الآن. والدتي المذعورة، جاءت إلى غرفتي في وقت مبكر من صباح أحد الأيام وأخبرتني أنه قُتِل، ثم ركعنا على ركبنا وصلينا. لكن هذا كان كل شيء. كنت أعتقد أن الأعداء آنذاك كانوا مجرد الأشرار الذين يسرقون. كنت أومن أنهم سيأتون ليسرقونا، ولكن الأسوأ من ذلك، **اللصوص** ... الناس قادمون.

ثم قدموا بالفعل، وهربتُ من الأشرار، ولكنهم سرقوا والديَّ مني.

في تلك السنوات الفاصلة، لم تكن لدي مراجع لأفهم من خلالها. لم يكن هناك ما يربط أفكاري أو يُرتبها، فتوقفتُ لفترة عن محاولة تنظيمها أو فهمها. لم أطرح أسئلة. لم يكن أحد يريدني أن أطرح أسئلة. كان لدي ابن خال ينام أحيانًا في بيت كلير، وكان يستيقظ أحيانًا من كوابيسه وهو يصرخ. لكن بدا أنه من الأفضل أن أكون مثل كلير. كانت

كلير مخدَّرة. ركزت على بناء حياة هنا، الآن، تحت شمس الغرب الأوسط الأمريكي، بدلًا من التنقيب والكشف عن أسرار الماضي التي لم يُرِد أحد رؤيتها.

أُسْكِتُّ مرات عديدة؛ من قِبَل والدتي، أو والدي، أو أختي. كانوا في كل مرة كنت أسأل، يقولون: «إنكِ تتحدثين كثيرًا». **تشيكيكا.**

كانت لدي بعض الأجزاء المتناثرة من الذاكرة، قطع من الأعشاب البحرية في حوض السمك. أتذكر والدتي وهي تطوي أشياء وتضعها بعيدًا بطريقة مختلفة عما كانت تفعلها عادة. أتذكر جدتي وهي تدفن أشياء في الأرض، أشياء لا يدفنها أحد عادة، وأتذكر عندما رأتني أحدق إليها، طردتني إلى الداخل.

كنت منغمسة تمامًا وأنا طفلة صغيرة في محاولة فهم العالم، ثم فقدت العالم الذي عرفته كله. في السنوات التي تلت ذلك، كنت أرغب في تجميع أجزاء ذلك العالم مرة أخرى، لكن فكرة أن مجموعة من الناس تقتل مجموعة أخرى –أناسًا عاشوا معهم وعرفوهم– لم أستطع قط استيعاب ذلك الجزء من المعرفة في ذهني. كان ذلك أمرًا خاطئًا مطلقًا، من حيث جوهره وجميع أبعاده. كان الأمر أشبه بمحاولة حشر إعصار داخل خزانة أدراج. منطق الكون لا يسير هكذا.

الآن، أجلس هنا، في كينلوورث، على الجانب الآخر من صدع في المجرة بعرض مليون ميل، أتثقفُ عن مجموعة من الناس تقتل مجموعة أخرى من الناس، أناسًا عاشوا معهم وعرفوهم. بدأت هذه الإبادة الجماعية، كما قرأتُ بتفصيل واقعي واضح ومباشر في الثامن

من نيسان عام 1994 واستمرت مائة يوم. مجموعة تُدعى الهوتو قتلت مجموعة أخرى تُدعى التوتسي[1].

استخدمت حركة سياسية فاشية متطرفة من الهوتو تُدعى قوة الهوتو، الراديو لنشر دعايتها الدنيئة المليئة بالاحتقار: «التوتسي حشرات لا يرتقون إلى مستوى البشر». وقالوا: «**لا يحق للصراصير – أو «إينينزي»** كما كانوا يصفونهم– **أن يعيشوا هنا. ثروات الصراصير تتسبب بفقركم. الصراصير تستخدم دهاءها وسحرها لسرقة نسائكم وانتهاك حرماتهن. لا يمكن السماح لهم بالوجود**». لم يكن الفاشيون يتسامحون مع أي شخص يقف متفرجًا أو يرفض المشاركة.

كان يجب على الجميع -الهوتو كلهم- الانضمام إلى قضية قتل الصراصير واغتصاب نسائهم، وإذا لم يقم أي هوتو بواجبه سيُقتَل أو تُغتَصَب امرأته كذلك. لقد استعد القادة لهذه الوحشية على مدى سنوات. جمعوا الأسلحة. وادعوا أن قتل الصراصير ضروري، وأنه فعل مشروع وشريف للدفاع عن النفس.

مجرد التفكير في الراديو، الجهاز المادي الموجود في غرفة معيشة والديَّ، أمر يشعرني بالكارثة. الراديو كان هناك، يبث الكراهية.

حاولت قراءة كتاب فيليب جوريفيتش «**نود أن نبلغكم أننا سنُقتل مع عائلاتنا غدًا**»، وهو عبارة عن سردية توثيقية مفصلة عما حدث في رواندا عام 1994: القتلة يعملون بهدوء على تقليص قوائم الضحايا، والمجازر التي وقعت في الكنائس، والفظائع المتعمدة التي ارتكبها قادة «قوة الهوتو» الذين سلحوا الجميع بالسواطير –أرادوا أن تكون عمليات

(1) مجموعتان عرقيتان رئيسيتان في رواندا وبوروندي، ويرتبطان تقليديًا برعاية الماشية، غير أن التوتسي كانوا أقلية إذا ما قورِنوا بالهوتو. وفي عام 1994 قام الهوتو بإبادة جماعية خلال مائة يوم، حصدت قرابة 800 ألف من التوتسي والهوتو الذين عارضوا المجازر بحق التوتسي. (المترجم).

قتل التوتسي مؤلمة وبشعة. معسكرات الموت النازية كانت أنيقة للغاية إذا ما قورنت بهم. ملأت أول 135 صفحة بملصقات زرقاء ووردية صغيرة. ثم لم أستطع المواصلة. صورة غلاف الكتاب تُظهِرُ كرسيًّا فارغًا على حافة بحيرة. إذا لم تكن قد رأيتها، فإن المياه تبدو هادئة. لكن بمجرد أن تفهم ولو القليل، ستدرك أن نهاية العالم تختبئ تحتها.

مع ذلك، استمررت في البحث عن المعلومات، والتعمق في الحقائق ومحاولة تجنبها. قبل ما يقرب من ثمانين عامًا من الإبادة الجماعية، استعمر البلجيكيون رواندا وأفسدوا البلاد بِعِلْمِ تحسين النسل الزائف والقاسي. قبل ذلك، عاش الرانديون معًا في سلام نسبي. ثم جاء البلجيكيون وقسَّموا المجتمع على أساس العرق. كانوا يقيسون أنوف الناس وجماجمهم، وابتكروا جداول لتدرجات لون البشرة، فقسموا المواطنين إلى توتسي، وهوتو، وتوا. كان الهوتو يشكلون الأغلبية الساحقة، قرابة 84% من السكان؛ في حين كان التوتسي يمثلون 15%، أما التوا فكانوا 1%.

وبعد أن ابتدعوا هذه الفئات الثلاث، أصدر البلجيكيون بطاقات هوية تحدد العرق. ثم وضعوا سياسات اجتماعية وحملات دعائية تهدف إلى إثارة العداوة بين هذه الأعراق، محولين كراهية المواطنين الروانديين تجاه بعضهم بعضًا بدلًا من توجيهها نحوهم –نحو المستعمرين. قال البلجيكيون إن التوتسي كانوا أشبه بالأوروبيين؛ وبالتالي فإنهم يستحقون الاحترام، والسلطة، والتعليم، والماشية. أما الهوتو، فقد كانوا في نظرهم أغبياء، وطفوليين، وقذرين وكسالى. بالكاد كلف البلجيكيون أنفسهم عناء التعامل مع التوا.

غادر البلجيكيون رواندا في عامي 1961 و1962، لكن جذور التفكير السام كانت قد ترسخت بالفعل. وخلال السنوات التي تلت ذلك،

ارتكبنا شيئًا مروعًا للغاية لدرجة أننا لم نتمكن حتى من التحدث عنه. لقد فرَّ بقية العالم من رواندا في أحلك أوقاتها، وعليه الآن أن يتحمل وصمة العار الأخلاقية هذه. في الثامن من نيسان عام 1994، بعد يوم واحد من إسقاط طائرة الرئيس الرواندي، أُحضر عشرة جنود بلجيكيين كانوا قد بقوا في رواندا لحماية رئيس الوزراء إلى قاعدة عسكرية، حيث أُطلِقَت النار عليهم أو ضُرِبوا أو قُطِّعوا حتى الموت. وانتهى الأمر عند هذا الحد. عشر أرواح، وغادر جنود حفظ السلام التابعون للأمم المتحدة رواندا. المجتمع الدولي ترك رواندا. ما كان يحدث في البلاد كان مرعبًا جدًّا، وبدائيًّا جدًّا، وخطيرًا جدًّا. جميع تلك الدول التي أنهت الحرب العالمية الثانية بقولها: «**لن يتكرر هذا أبدًا**» أدارت ظهرها. بالنسبة للأفارقة، فيمكن أن يقتل بعضهم بعضًا إذا أرادوا. لم يكن شأننا يهم أي شخص آخر.

والآن، بعد مرور تلك السنوات كلها، أصبحت في المدرسة في كينلوورث، والقتلة يُحاكمون في مئات وآلاف المحاكم القروية المسماة **جاتشاتشا**[1]، حيث لم يكن النظام القضائي الرواندي قادرًا على محاكمة هذا العدد الهائل من القضايا. كان الهدف هو الإدانة والعقاب بالإضافة إلى المصالحة، على غرار لجنة الحقيقة والمصالحة في جنوب إفريقيا[2]،

(1) نظام عدالة مجتمعي تقليدي في رواندا، أُعيدَ تقديمه عام 1994 لمعالجة العدد الهائل من القضايا المتعلقة بالمذابح الجماعية. وقد سمحت هذه المحاكم للمجتمع المحلي بالمشاركة في محاكمة الأفراد المتهمين بالمشاركة في الإبادة الجماعية، بهدف تحقيق العدالة وتعزيز المصالحة. (المترجم).

(2) لجنة أُسِّسَت في جنوب إفريقيا عام 1995 للتحقيق في انتهاكات حقوق الإنسان الي ارتُكِبَت خلال فترة الفصل العنصري من قِبَل كل من الحكومة وجماعات التحرير، وهدفت اللجنة التي رأسَها رئيس الأساقفة توتو إلى تعزيز المسامحة الوطنية من خلال السماح للضحايا بالإدلاء بشهاداتهم، وللجناة طلب العفو بعد الاعتراف بجرائمهم. (المترجم).

بطريقة ما لجعل التعايش ممكنًا بجانب عائلة جارك التي قتلت أفراد عائلتك، وبجانب أبناء، وآباء، وإخوة جيرانك الذين اغتصبوا بناتك، وأمك، وأخواتك، وزوجاتك. كانت الحقائق عن **جاتشاتشا** نُشِرَت، بمزيج من الرعب والهدوء، في صحيفة **شيكاجو تريبيون**. قرأ الجميع المقالات في كينلوورث ثم نظروا إليّ، حزينين ومذعورين، منتظرين ردة فعلي.

اختلطت أفكاري وحواسي مجددًا. شعرت بالدوار. شعرت بالحَرِّ. الزمن كان يذوب ويتلاشى، ثم يعيد تشكيل نفسه بطريقة مشوهة. صحيفة **شيكاجو تريبيون** قالت إن 800 ألف شخص قُتلوا. لم أستطع فهم ما يعنيه ذلك الرقم باعتباره عددًا لأشخاص قُتلوا. مقياسي المرجعي كان مختلفًا تمامًا. ليس من الممكن أن يكون ذلك عددًا من البشر الذين قُتلوا. أراد أساتذتي المساعدة. دعوني لطرح الأسئلة عن أي شيء. كنت أشعر بالتعب الشديد.

قرأت كتاب **الليل** في سريري. كان يشدني للغاية. نادتني السيدة توماس إلى العشاء، لكنني أخبرتها أنني مريضة ولا أستطيع تناول الطعام.

لخص فيزيل الكثير بطريقة مذهلة وهائلة. فقد اسمه. فقد كل إحساس بذاته. وحشية معذبيه جعلته وحشيًّا. «الخبز والحساء كانا حياتي كلها. كنت جسدًا. وربما أقل من ذلك حتى معدة جائعة».

كنت مفتونة، وربما بشكل أكبر باستعداده للتشكيك في وجود الإله. لم يفعل ذلك أحد في حياتي. لا والدتي، ولا كلير. الكتاب الوحيد الذي قرأته أمي أو كلير كان الكتاب المقدس. حتى في كيجالي، كان لدى والدتي مذبح للقديسين، ولم يكن أي منهم يشبه لون بشرتها. عائلة توماس، وعائلة بيكر، وعائلة بيزلي، لم يشككوا في وجود الرب أيضًا. كانوا يمجدونه يوميًّا. لم يشكُّوا قط في حكمته. لكن كيف يمكن للرب أن يكون موجودًا؟

كان فيزيل يمتلك الإجابة الوحيدة الممكنة: الرب كان قاسيًا. كتب فيزيل: «أين هو؟ إنه هنا –إنه معلق هنا على هذه المشنقة ... تبارك اسمك المقدس، أنت الذي اخترتنا لنُذبَح هنا على مذبحك».

لم أستطع استيعاب الكتاب، ولم أستطع وضعه جانبًا. كان فيزيل -كنت أنا– لا شيء، وأصبح لا شيء، ومع ذلك ما زال يحمل في داخله مجرة من الرعب. يقول: «كنت أجر هذا الجسد الهزيل الذي كان يثقل كاهلي للغاية».

ويقول أيضًا: «النهار كان كالليل، والليل ترك رواسب ظلامه في أرواحنا».

والد فيزيل أصيب بالزحار، مثلما حدث لكلير. مات والد فيزيل في السرير فوقه في بوخنفالد، ولم يشعر فيزيل بشيء سوى الراحة – الارتياح لتحرره من عبء الحب في هذا العالم الأسود. يقول: «لم أبكِ، وكان يؤلمني أنني لم أستطع البكاء. لكن لا أملك المزيد من الدموع. وفي أعماق كياني، في زوايا ضميري الضعيف، لو كنت قد بحثت عنها، ربما كنت سأجد شيئًا يشبه الحرية أخيرًا!»

أنهيت قراءة كتاب الليل في يومين. وفي اليوم التالي، خلال فترة الاستراحة، جلست على الأريكة في فصل اللغة الإنجليزية للسيدة ليدبيتر، وانتظرت.

حين دخَلَت الغرفة، قلت لها: «هذا بالضبط ما حدث لنا. المشي. كل شيء. التجريد، والتجريد، والتجريد، ثم تصبح لا شيء».

أريتُ السيدة ليدبيتر نسختي من كتاب **الليل**. كنت قد وضعت خطًّا أو أبرزت عشر جمل أو عبارات في كل صفحة.

قرأت الكتاب مرة ثانية، ثم مرة ثالثة، لأتأكد من أنني لست مجنونة. استمعت إلى الكتاب صوتيًّا. كنت مفتونة بإصرار فيزيل على أن يعرض نفسه بلا شفقة، أو خجل أو عاطفة، وعزمه على سرد الفظائع التي عاشها ووضْع نفسه في هذا العالم المنهار.

لم يكن لديَّ لغة لوصف فظائع حياتي –ليس في ذلك الوقت. أعتقد أنني بالكاد أمتلكها الآن. لكن بعد قراءة **الليل**، تذكرت الناس في كيجالي وهم ينادون بعضهم بعضًا بالثعابين والصراصير.

تذكرت الناس يمشون حاملين أمتعتَهم على رؤوسهم. تذكرت الناس وهم يتركون متاعهم جانبًا وينهارون بجانبها. أصوات الهلع ممزوجة بالصمت. الناس يسألون: «هل رأيتَه؟». والأطفال يبكون: «أين أمي؟».

تذكرت الناس يضحكون بسخرية ويحطمون بعضهم بعضًا. **انظر كيف يمشون. انظر إلى أرجلهم الصغيرة. انظر إلى أوراكهم العريضة.** تعلمت كلمة واحدة لتسمية الحرب، أو الصراع، أو أيًّا كان: «**إنتامبارا**[1]». كانت تلك هي الشماعة التي حاولت لسنوات أن أعلق عليها كل هذا في ذهني. مجرد شماعة واحدة غامضة، ولكنها لم تكن كافية. لا توجد أبدًا كلمة واحدة كافية.

كنت بحاجة إلى هوية رسمية. كان طلاب الصف الثامن جميعهم يستعدون للسفر إلى واشنطن العاصمة لتعلم المزيد حول الحروب الأهلية وحرب فيتنام، ولكي أنضم إلى زملائي، كنت بحاجة إلى وثائق. كنت في السادسة عشرة من عمري آنذاك، ولا أملك شهادة ميلاد أو جواز سفر. حاولنا أنا وكلير الحصول على بطاقات هوية مرتين. وقفنا في

(1) في اللغة الكينياروانديّة معناها الحرب أو الصراع، وتُستَخدَم لوصف النزاع المسلح، أو الصراعات أو المعارك. (المترجم).

طابور إدارة المركبات الآلية لتقديم طلبات للحصول على بطاقات هوية من ولاية إلينوي، ولكن حين كنا نصل إلى الشباك، يُلقي الموظف نظرة على نماذج الهجرة المتآكلة من نوع I-94[1]، ثم يعيدها إلينا قائلًا: «التالي».

لكن لم يكن بوسعي الذهاب دون بطاقة هوية. لم تعترف الولاية بي شخصًا يتمتع بكامل الحقوق والامتيازات. قرر السيد توماس أن يتدخل.

وجب التنويه إلى أن السيدة توماس كانت هي المسؤولة عن رعايتي، إذ كانت تقدم لي الرعاية الكاملة والفاخرة التي تُقدَّم لطالب في مدرسة إعدادية في الضواحي: اصطحابي بشكل دائم من وإلى المدرسة، والغسيل، والوجبات، والدروس، والمتابعات، وألف لفتة لطيفة أخرى كنت أدركها يوميًّا. جعلت السيدة توماس مهمتها إزالة ألمي، على الأقل الألم الذي كنت أظهره للعالم. إذا كنت مريضة، كانت تحضر لي الحساء والبسكويت المملح. إذا نظر إلينا أحد نظرة غريبة ساخرة، كانت تقول بلهجة جنوبية: «إنها ابنتي الأخرى، ابنتي الإفريقية».

أما السيد توماس، فكان محاميًّا. وكان هذا مجاله. لذا، في صباح أحد أيام السبت، أيقظني في الساعة السادسة صباحًا، وقمنا بالقيادة إلى مكتب وزارة الخارجية، حيث تصدر ولاية إلينوي رخص القيادة. خطته كانت أن يجرب حظه بصفته مواطنًا أمريكيًّا أبيض يحترم القانون. باستثناء نموذج I-94 الخاص بي، كانت الوثيقة الرسمية الوحيدة التي تحمل اسمي هي تأشيرة خروج من بوروندي، والتي كانت مزورة بلا

(1) نموذج صادر عن هيئة الجمارك وحماية الحدود الأمريكية للمواطنين الأجانب الذين يدخلون الولايات المتحدة، وهو بمنزلة دليل على الدخول القانوني للشخص، وتوثيق تواريخ الوصول والمغادرة وحالة التأشيرة ومدة الإقامة. (المترجم).

شك. وصلنا إلى المكتب وانتظرنا. في الساعة السابعة والنصف صباحًا، عندما فتح المكتب أبوابه، حصلنا على رقم.

بعد ساعة، كنت أقف عند الشباك صامتة، في حين كان السيد توماس يتحدث: «هذه الشابة من رواندا». هكذا بدأ قصتي. ثم أكمل: «عندما كانت في السادسة، هربت في اللحظة المناسبة لتفلت من القتل خلال الإبادة الجماعية. عاشت في مخيمات اللاجئين لمدة ست سنوات قبل أن تستقر في شيكاجو وتعيش معنا في منزلنا. لديها فرصة للذهاب إلى واشنطن العاصمة مع صفها الثامن. أعتقد أن ولاية إلينوي سترغب في دعم رحلتها إلى واشنطن لتتعلم عن ديمقراطيتنا وتواصل مسيرتها الصاعدة. لقد حاولت مرتين من قبل للحصول على بطاقة هوية ولم تنجح».

نظر الموظف من وراء زجاج الشباك إلينا. كان السيد توماس يبدو مواطنًا مثاليًّا: طويل القامة، حليق الذقن، وذا مظهرٍ مميز. سأل الموظفُ السيدَ توماس: «سيدي، ما هي الأوراق التي بحوزتها؟».

قدم السيد توماس للموظف نموذج I-94 وتأشيرة بوروندي الخاصة بي، وبدأ الموظف في تفحصها بحَيْرة. لكن قصة السيد توماس لفتت انتباهه بما يكفي لئلَّا يرفض طلبنا على الفور. أخبرنا أن ننتظر مديرته. وقفنا مرة أخرى في طابور عند شباك آخر.

بعد عشر دقائق، بدأ السيد توماس مرة أخرى: «هذه الشابة من رواندا. عندما كانت في السادسة، هربت في اللحظة المناسبة...» أصبح السيد توماس الآن متمرسًا في حكايته الأمريكية العظيمة. أنهى حديثه ووقف بصمت، تاركًا للمديرة أن توازن بين مظهره المثالي ومظهري غير المثاليّ، وأن توازن بين ولائها للإنسانية والإجراءات المعتادة.

قالت المديرة: «قصة مثيرة للاهتمام»، ثم ابتسمت وقالت: «حظًّا سعيدًا أيتها الشابة. خذي هذه الورقة واذهبي إلى طابور الصور في الطابق السفلي».

كان عليَّ أن أتخذ قرارًا مهمًّا؛ طريقة كتابة اسم عائلتي. في رواندا، كان اسمي عندما عُمِّدتُ: «أواماريا» (Uwamariya) والحرف (U) يعني: أنا من عائلة؛ ثم اسم العائلة واماريا (Wamariya). لكن في تأشيرة خروجي، كُتِبَ اسم عائلتي «واماريا»، بدون الحرف (U). وهو الاسم الذي استخدمته في المدارس الأمريكية.

اسم عائلة كلير كان مختلفًا: «موكونديننتي» (Mukundente)، والذي يعني: «**كم أحب؟**».

حسب ما كنت أعرفه، كان اسم عائلتي خاصًّا بي وحدي. كان السيد توماس عمليًّا كعادته. قال: «هذا هو الوقت المناسب لتغييره، إذا كنتِ تعتقدين أن التغيير أفضل، فغيريه. سيكون من الصعب تغييره لاحقًا».

تمسكتُ باسم «واماريا».

وقفت في ساحة معركة أنتيتام[1] واستمعت إلى المرشد وهو يقول إن 23 ألف شخص ماتوا أو جُرحوا أو فقدوا في يوم واحد. 23,000 شخص في يوم واحد في حرب أهلية. لم تكن هناك دماء في أي مكان. لا نساء يبكين لأن أطفالهن قُتلوا. لا جدات احترقن. كانت

(1) ساحة معركة أنتيتام التي وقعت في 17 أيلول عام 1862 في ماريلاند خلال الحرب الأهلية الأمريكية، وكانت هذه المعركة هي الأكثر دموية في يوم واحد في تاريخ الولايات المتحدة، حيث قُتِلَ وجُرِحَ وفُقِد قرابة 23 ألف جندي. رغم أن المعركة أبقت الطرق مسدودة بلا منتصرين، فإنها أيضًا أعطت الفرصة لأبراهام لنكولن لإصدار إعلان تحرير العبيد، وتحويل تركيز الحرب إلى إلغاء العبودية. (المترجم).

الأعشاب الربيعية تبدو جديدة، ولطيفة جدًّا. كانت هذه الحقول ذات يوم ملطخةً بالدماء.

في اليوم التالي، زرنا النصب التذكاري لقدامى المحاربين في فيتنام –كل تلك الأسماء، كل واحد منها يمثل جنديًّا فقد حياته. كنت أعيش حياتي وكأنني محصنة، أحاول الحفاظ على وهم أنني أعيش الآن في عالم أفضل. كنت أعيش في بلد يخبر نفسه أنه لا يخوض حروبًا على أرضه. لكن في تلك اللحظة، انهرت. كان هناك العديد من الشُّبَّان الذين خُلِّدَت أسماؤهم على نصب فيتنام التذكاري. لا يوجد نصب تذكاري أو جدارية تخلد ذكرى المدنيين الفيتناميين القَتلى. شعرت بالغيرة من أولئك الذين وردت أسماؤهم. مشيت حول النصب الأسود المنخفض باكيةً. حاولت المعلمة مواساتي، لكنني لم أستطع تحمل العناق. شجعتني على العودة إلى الفندق، لكنني لم أرغب في ذلك.

في تلك الأثناء، كان زملائي يلتقطون الصور. كانوا محظوظين جدًّا. لم يكن لديهم أي ارتباط مع الموتى.

في متحف الهولوكوست التذكاري، قدم لي أحد المرشدين بطاقة هوية.

كانت عليها صورة لرجل ألماني أصلع يرتدي نظارات دائرية –اسمه جاكوب أونجر، كان بائعًا. أُعدِمَ باستنشاق الغاز في معسكر الإبادة سوبيبور في عام 1943. قبل ذلك، كان لديه زوجة تُدعى إيرنا وطفلان، ماكس ودورا. كان يُدرِّس اللغة العبرية في المساء. فرت عائلة أونجر ولجأت إلى هولندا في عام 1938. وبعد خمس سنوات، أُرسِلَ جاكوب وزوجته إلى معسكر العمل الهولندي في فيستربورك. وبعد أسبوع، أُرسِلَ إلى سوبيبور في بولندا. كان عمره اثنين وسبعين عامًا.

في وقت لاحق من ذلك الفصل الدراسي، جاءت إحدى الناجيات من الهولوكوست للتحدث إلى صفنا في شيكاجو. أظهرت لنا الرقم الموشوم على ذراعها. شعرتُ بالغيرة لأنها كانت تمتلك لغة لتتحدث بها عما حدث لها، وطريقة لوصف وتنظيم عالم حاول تقليصها إلى لا شيء.

حافظت كلير على النظام في عالمها من خلال إيمانها بأن الرب لديه خطة. أما الرونديون الآخرون الذين عرفناهم في أمريكا، فقد كانوا يبالغون في الاحتفالات، أو يشربون كثيرًا، أو يشاهدون المسلسلات النيجيرية بلا توقف. كانوا يغلقون أعينهم أمام حقيقة مقتل 800 ألف شخص، وحقيقة أن عائلاتهم وأصدقاءهم قُتلوا على يد أفراد آخرين من عائلاتهم وأصدقائهم. كانوا يحاولون محو الماضي والمضيّ قدمًا في حياتهم.

لم يعترف أحد ممن أعرفهم، كما فعل إيلي فيزيل والناجون الآخرون من الهولوكوست؛ لم يقولوا: «**نعم، هذا حدث. نعم، الناس يدمرون بعضهم بعضًا. نعم، هذا أمر لا يطاق ويحوّلك إلى جثة. لكن عليك أن تتذكر، وتمضي قدمًا**».

في عام 2004، عندما صدر فيلم فندق رواند Hotel Rwandal، سألني أحد الطلاب في صفي إذا كنت قد شعرت بالخوف في أثناء الحرب. كان أول زميل يسألني هذا السؤال مباشرة. شعرت بالإهانة. **أتريد أن أخبرك كيف شعرت؟ كيف تجرؤ على أن تطلب مني العودة إلى ذلك المكان وتلك الحالة؟**

لكن سرعان ما أصبحت الأسئلة أسوأ. أراد الناس أن يعرفوا ما إذا كان أي شخص من عائلتي قد قُتل، وما إذا كنت قد شاهدت أشخاصًا يُقتلون. لم أستطع تصديق شعورهم بالأحقية –لا يحق لهؤلاء الناس

إيلامي. لم يدركوا حتى أن ذلك ما يريدونه، وأنهم رأوا حياتي وكأنها فيلم. شعرت أن أسئلتهم كانت فاحشةً ومنتهكةً ودليلًا على عدم قدرتهم على رؤيتي إنسانًا بالفعل.

أفهم أن الخوف من الموت والانبهار به أمران جوهريان في الطبيعة البشرية، لكنني لم أرغب في أن يسألني أحد عن الموت. لم أرغب في أن أكون أداة أو دراسة حالة. لم أرغب في أن أكون تلك الفتاة الرواندية.

ومع ذلك، من الحتمي أن أكون مثيرة للفضول، ومبعوثة من أطراف المعاناة القصوى. كان الناس يطلبون مني التحدث في مجموعات الشباب في الكنائس. كانوا يطلبون مني التحدث في الجمعيات الخيرية الكاثوليكية. كانت هذه الطلبات تصل عبر السيدة توماس، التي كانت ترفض معظمها نيابة عني. كانت تلك الفعاليات تحطمني.

وافقت على التحدث في صف بمدرسة نيو تريير الثانوية، لأنها كانت المدرسة الثانوية التي سأذهب إليها في العام التالي. قال المعلم: «فقط تحدثي عن طفولتك». لم أكن مستعدة لذلك. كنت أشعر بالخوف وفقدان السيطرة عند فكرة مشاركة حياتي الداخلية.

لذا عندما دخلت إلى الصف المملوء بالطلاب نصف المهتمين، طلبت من المعلم أن يُنزِل خريطة إفريقيا قليلًا على الحائط. بهذه الطريقة، كان بإمكاني الالتزام بالمسار الجغرافي. شخصيتي لن تكون مهمة. بدأت بقول: «ولدت هنا»، مشيرةً إلى رواندا. بدت لي البلاد مثل حصوة المرارة في وسط الجسد الإفريقي –كرة من الألم. وتابعت: «كنا نعيش حياة رائعة، ثم فجأة بدأ كل شيء يتغير».

سردت حياتي وكأنها مغامرة. **تعلمت التحدث بسبع لغات. تجولت عبر قارة بأكملها**. رويت قصة حقيقية، لكنها لم تنقل تقريبًا أي شيء.

في المقابل، تفاعل الطلاب بلا شفقة، وكان هذا هو المقصود. فقط اعتقدوا أنني شخص «رائع». لم أعلم أن ذلك ممكن –أنني قد أكتسب مكانة اجتماعية إذا سردت قصتي بالطريقة الصحيحة.

عندما انتهيت، سألتني إحدى الطالبات: «هل كان لديكم حيوانات مثل الأفيال؟».

حاولت تحويل السؤال إلى ما يشبه التبادل الثقافي وسألت: «لماذا لديكم تلك الأشياء المعدنية على أسنانكم؟».

صاحت فتاة أخرى: «لم تستحمي لعدة أيام؟! هذا مقزز!».

تظاهرت أنني لم أسمع.

عدد قليل جدًّا من الناس كانوا يعرفون من أنا حقًّا. غالبًا ما قال لي الكبار: «أنتِ قوية جدًّا، وشجاعة جدًّا». لكنني لم أرد أن أكون قوية، ولم أرد أن أكون شجاعة. كنت أريد أن يكون لدي عقل جديد، خفيف، غير مثقل بالحروب والخوف. أردت العودة في الزمن إلى عالم البراءة، إلى مشاهد قصص الأطفال **ذا بوكس كار تشلدرن**[1]. كان العالم هناك لطيفًا جدًّا. لم يكن للأطفال والدان، ولا بأس في ذلك. كانوا يذهبون إلى مختلف الأماكن معًا. كان الإخوة والأخوات يعتنون ببعضهم بعضًا.

---

(1) سلسلة كتب للأطفال أنشأها جيرترود تشاندلر وارنر عام 1924. (المترجم).

في ذلك الوقت كانت حياتي تشبه حفرة القطران. شعرت أنني أختفي، أنني أُبتَلَع. كانت قصتي مثيرة جدًّا للاهتمام -غريبة للغاية لا عهد لهم بمثلها. كانت مثل **قصص كتاب الأدغال**[1].

كان الناس يقولون: «يا إلهي، هل تعرف كليمنتاين؟» ويجيب الآخرون: «أعرف كليمنتاين. إنها لاجئة. إنها إفريقية. أعتقد أنها عبرت غابة ما أو كادت تموت في إحدى البحيرات».

(1) مجموعة قصصية كلاسيكية شهيرة من تأليف روديارد كيبلينج، نُشِرَت أول مرة عام 1894، وتُعرَف في العالم العربي باسم قصص ماوكلي. (المترجم).

1996

7

وصلنا إلى تنزانيا في حالة من الجمود[1] والإرهاق التام. رسا القارب بنا مباشرة على الشاطئ. كانت هناك تلال شديدة الانحدار ترتفع على بعد عشرين قدمًا فقط من حافة المياه، فخلدنا إلى النوم على الرمال. كان الجو باردًا للغاية. لم يكن لدينا أي شيء. ابنة خال روب التي جاءت معنا لم تعد تملك شيئًا. غادرت زائير بحقيبة واحدة. في تلك الحقيبة كان كل ما تبقى من حياتها -جميع أموالها، وشهادة دبلوم زوجها. اختفت تلك الحقيبة بين عشية وضحاها في أثناء نومها.

في صباح اليوم التالي، جمعتنا شرطة الهجرة فأُعِدنا إلى كوننا لاجئين.

(1) catatonic، حالة من الجمود الشديد أو عدم الاستجابة، وهي تظهر غالبًا في الحالات النفسية الصعبة، مثل الفصام. في حالة الجمود، قد يظل الشخص بلا حراك لفترات طويلة، أو غير قادر على التحدث. (المترجم).

قضينا ليلة واحدة على أرضية أحد الفصول الدراسية في مدرسة قريبة. لففت ماربيت في بطانيتنا الوحيدة، وهي بطانية صفراء مزينة بالورود البيضاء. ثم وضعتها داخل حقيبتنا الوحيدة المتبقية لتدفئتها. كنت قلقة باستمرار من أن تصاب ماربيت بنزلة برد. كنت في التاسعة من عمري. كنت أعرف أن الأطفال يموتون من الالتهاب الرئوي. لم أستطع السماح لها بالموت.

قضت ماربيت الليل كله ملفوفة في البطانية الصفراء وداخل الحقيبة، صامتة. توقف جميع الأطفال الآخرين في المدرسة عن البكاء. وحدهم الكبار كانوا يبكون. بكت ابنة خال روب. في اليوم التالي، نقلتنا إحدى تلك الشاحنات البيضاء التابعة للمفوضية السامية للأمم المتحدة لشؤون اللاجئين إلى مخيم للاجئين في كيجوما[1].

من الممكن أن تلاحظ من بعيد أن الناس يريدون الخروج من المخيم. كانت الشرطة متمركزة حول السياج. شعرنا وكأننا قطعان ماشية. روانديون، زائيريون، بورونديون. لم يكن هذا يهم حراسنا. لم يكن لدى أحد خيمة. كل ما كان علينا فعله هو اختيار مكان على التراب. لم تنطق كلير بكلمة. ولم نأكل لمدة يومين.

لم تكن هناك مراحيض كافية. كانت طوابير المرحاض تستغرق ساعات، وهي فترة أطول من أن تُحتمل. كان الناس يقضون حاجتهم في كل مكان. مئات الأشخاص كانوا يرقدون على التراب الأحمر، مرضى.

ألقيت نظرة متفحصة في المخيم باحثةً عن وجوه –أمي وأبي وبودي. غرقنا في دوامة حياة اللاجئين. كانت الليالي شديدة البرودة،

(1) مدينة غرب تنزانيا، تقع على الشواطئ الشرقية لبحيرة تنجانيقا، وهي واحدة من أعمق وأطول بحيرات المياه العذبة في العالم، وهي تربط تنزانيا بالدول المجاورة مثل بوروندي وجمهورية الكونجو الديمقراطية. (المترجم).

وكانت الشمس في النهار تحرق جلودنا. كان البعوض يهاجم أعيننا. بدأ الناس يتدفقون من أوفيرا، يقتربون من كلير ويقولون: «رأيت زوجك يموت. كان يعمل في منطقة مات فيها الجميع». بدا أن الكثير من الناس كانوا يعتقدون عند وصولهم أنهم انتقلوا من الخطر إلى الأمان، وأن هذا المخيم كان مجرد محطة في الطريق إلى مكان أفضل، وأنهم سيعودون في النهاية إلى ديارهم. العقل البشري مذهل –مرن ومخادع للذات.

كانت تصل شاحنات بيضاء وزرقاء يوميًّا محملة بالمزيد من العائلات المشردة. لمدة أسبوع، كان الناس يستمرون في إخبار كلير أن روب قد مات. ثم تغيرت القصة: لقد كان حيًّا. رأوه الليلة الماضية، خارج البوابة مباشرة.

قالت كلير: «لا. زوجي مات في الحرب. قال الجميع إنه مات في الحرب. كيف يمكنكم القول إنكم رأيتموه؟».

لكن مع وصول المزيد من الشاحنات، كان المزيد من الناس يسألون عن كلير. أصبحت الرسالة محددة: **كوني عند البوابة في الساعة العاشرة مساءً**. روب سيدفع رشوة للحارس. سيأتي رجل في سيارة أجرة نوافذها داكنة وينادي بأسمائنا. سنقفز عن السياج وسيقود بنا بعيدًا.

في تلك الليلة انتظرنا. نادى رجل باسم كلير. لفَّت كلير مارييت في عدة قطع من القماش وألقتها فوق السياج الذي يبلغ ارتفاعه ستة أقدام، وهو مصنوع من الأسلاك الشائكة. ثم تسلقت هي نفسها. لكنني كنت بطيئة، وبحلول الوقت الذي كنت مستعدة فيه لتسلق السياج، كان الحارس قد تغير. الرجل في سيارة الأجرة صاح أنه سيعود في الليلة التالية.

غادرت كلير في السيارة. انكمشت على رقعة التراب الخاصة بنا، مرعوبة. لقد تحقق خوفي حول الهجران. ومع ذلك، في وقت لاحق من تلك الليلة، جاء حارس ووجدني، وأخبرني أن كلير تنتظرني مع الرجل في سيارة الأجرة. جُرِحَت فخذي بقطعة من السلك الشائك في أثناء تسلقي السياج.

أخذنا سيارة أجرة إلى كيجوما، حيث انضممنا إلى المزيد من أفراد عائلة روب الممتدة في مجمع مكتظ بالسكان. كانوا يعيشون هناك منذ عقود. كان الجميع ينام على الأرض. كان الرجال يأكلون في مجموعة، والنساء في أخرى. لم يكن هناك طعام كافٍ، لذلك كنا نشرب الكثير من الشاي.

في إحدى الأمسيات، أعدت والدة روب، التي غادرت زائير بعدنا برفقة روب، إبريقًا من الشاي وأعطته لكلير لتقدمه للرجال والصبية الجالسين حول الطاولة. كان الشاي أيضًا شحيحًا، فوضعت ماما ننيبيلي أوراق الشاي المستهلكة فقط داخل الإبريق.

لم ينظر روب إليَّ تقريبًا منذ وصولنا إلى كيجوما. لم يكن قد فرَّ من زائير لاجئًا. كان يحمل أوراقًا من منظمة **كير** سمحت له بالدخول إلى تنزانيا. لكن لم يكن لديه منزل. تخلى عن حياته بأكملها. لقد أصبح غير مرغوب فيه؛ لقد أصبح واحدًا منًّا.

وضعت كلير إبريق الشاي على الطاولة وعادت إلى المطبخ. بعد بضع دقائق صاح روب: «كلير، تعالي هنا!».

دخلت كلير صامتة.

صرخ روب: «أي نوع من النساء أنتِ؟! ألا تعرفين كيفية صنع الشاي حتى؟ كيف لا تستطيعين صنع الشاي؟ هل تظنين أننا سنشرب

الماء؟». تجمدت كلير في مكانها. تابع يقول: «أيّ نوع من النساء أنتِ؟» كان روب يستعرض أمام الرجال في الغرفة، ثم قال: «هذا عار. مقزز».

خرجت ماما نيبيلي من المطبخ ووقفت بين ابنها وكلير.

قالت بغضب متقد: «روب، ما بال الشاي؟ أنا التي صنعت الشاي. أكان عليك إذلال زوجتك أمام الجميع؟». لم يجب روب. تابعت تقول: «كيف تتوقع أن يحترم الفتيان الصغار زوجتك؟».

غادرت كلير غرفة الطعام، ولم يقل روب شيئًا. في وقت لاحق من ذلك الأسبوع، بدأت شرطة الهجرة تطرق أبواب المنازل في كيجوما، وتجمع اللاجئين وتعيدهم إلى المخيم. أقنعت كلير روب أننا بحاجة إلى الارتحال.

وصلنا إلى محطة الحافلات في وقت متأخر من الليل لأننا لم نرغب في أن يرانا رجال الشرطة. لم نحمل أي حقائب بل ارتدينا عدة طبقات من الملابس. كنت أرتدي ثلاث قطع من الملابس الداخلية، وجوارب طويلة تحت البنطال، وتنورة طويلة فوق ذلك كله، بالإضافة إلى ثلاثة قمصان، وسترة زرقاء، ووشاح قصير قبيح مثل سترة قصيرة. حاولنا أن نبدو بمظهر لائق. لم نتمكن من التظاهر أننا لسنا هاربين.

خاطت كلير معظم نقودها في حزام سروالها، وتركت فقط ما يكفي لرشوة الناس عند الضرورة.

لم تكن لدينا خطة حقيقية، لكن كلير سمعت أن هناك مخيمًا أفضل في ملاوي، مخيم ليس في وسط اللامكان، وفيه خيام وحمامات كافية. مخيم بعيد عن الصراع. كان «الأفضل» يعني مكانًا أبعد عن الحرب.

كانت الحافلة التي استقللناها إلى ملاوي فاخرة، أو على الأقل فاخرة بالنسبة لنا حينها. كانت تخدم السياح. كانت كل حافلة من حافلات

تويجا[1] مزينة برسوم أسود أو زرافات أو أحد الحيوانات الكبيرة الأخرى. من الداخل، كان لكل نافذة ستارة، وكان هناك حمامات وتلفزيونات أيضًا.

رشَت كلير السائق ليتيح لنا الركوب مبكرًا. بهذه الطريقة كنا بأمان حتى وصول الشرطة لتفتيش الأوراق عند الحدود مع ملاوي. بمجرد أن بدأت الحافلة بالتحرك، أعطتني كلير كيسًا بنيًّا مُلِئَ بالخبز الحلو والحليب، لكنني رفضت الأكل. كنت أظن أنني أعاقِب كلير لعدم تحذيري بأننا كنا في طريقنا للرحيل، ولأنها تتحكم في كل شيء.

كلما مررنا بتل أو وادٍ، كان المشهد يزداد كآبة –عالمي الداخلي والخارجي على حد سواء. تراجعت أشجار الجكرندة[2] الوردية لتفسح المجال لأشجار النخيل الصحراوية، التي تراجعت بدورها أمام أشجار المسكيت[3]. كنا نتحرك بسرعة. لم أشعر بالضياع، لأن كلمة «الضياع» تعني وجود مكان ستجد فيه نفسك، وهو ما لم يكن موجودًا بالنسبة لي. كنت مجرد ريشة منتوفة ومشوَّهة، تنجرف في الفضاء. حاولت أن أحافظ على وهم أنني كنت أحتفظ في ذهني بخريطة واضحة، وأنني أستطيع إيجاد طريقي إلى المنزل. لكن كلما حاولت التفكير في المعالم

---

(1) تويجا في اللغة السواحيلية تعني الزرافة. وتويجا أيضًا شركة حافلات في شرق إفريقيا، ومركزها في تنزانيا، وتقدم خدمات النقل التي تربط المدن والبلدات الرئيسية في المنطقة، وتشتهر بالسفر لمسافات طويلة. (المترجم).

(2) نوع من الأشجار المزهرة المعروفة بأزهارها الجميلة النابضة بالحياة ذات اللون الوردي أو الأزرق أو الأرجواني، وموطنها الأصلي في المناطق الاستوائية وشبه الاستوائية. (المترجم).

(3) نوع من الأشجار أو الشجيرات القوية المقاومة للجفاف، معروفة بجذورها الطويلة التي تساعدها على البقاء في المناخ الجاف، كما أنها تنتج قرون بذور يمكن طحنها وتحويلها إلى دقيق. (المترجم).

التي مررنا بها، لم أرَ سوى الناس يصرخون. كنت أسمع أصوات البنادق والقنابل وأشعر بالنار.

قالت لي كلير بعد بضع ساعات من رحلتنا في الحافلة: «في ملاوي لديهم أكبر الأشجار، وفيها أكبر وأجمل أشجار المانجو التي يمكن أن تريها في حياتك». كنت أعلم أنها تكذب، فهي لم تزُر ملاوي من قبل.

ما زلت وبشكل إعجازي أحتفظ بحقيبتي على شكل ميكي ماوس، مع البلي والحجارة. كان السماح لي بالاحتفاظ بها واحدة من التنازلات القليلة التي قدمتها كلير لفكرة أنني يجب أن أحظى بدلال خاص كوني طفلة.

كان أحد حجاري من بحيرة تنجانيقا -متعدد الطبقات ومتقشرًا، مثل الميكا. والآخر من تنزانيا- حادًّا وأحمر. في حقيبتي أيضًا، كنت أحمل بعض أقلام التلوين، ودفترًا، والبلي، وسترة إضافية. كانت السترة زرقاء وفي حالة يُرثى لها. كنت أحب مضغ ملابسي، وبخاصة الخيوط السائبة منها. قالت كلير إن عليَّ التوقف عن ذلك وإلا فستتعفن أسناني.

شغل السائق في الحافلة فيلمًا واحدًا: **لا بدَّ أن الألهة مجنونة The Gods Must Be Crazy**. لم أكن أتحدث الإنجليزية، لكنني شاهدت الفيلم مع ذلك، إنه يدور حول رجل من قبائل كلاهاري، يعثر على زجاجة كوكاكولا ألقيت من طائرة، وكادت محاولة التخلص منها أن تدمر حياته. كان الفيلم طويلًا وغريبًا، وكان الناس يضحكون باستمرار، وكان ردِّي الوحيد عليه: هل سيترك أسرته وعالمه كله من أجل **هذا**؟ صفق الركاب عندما انتهى الفيلم. في الخارج كانت لأمطار غزيرة. أعاد السائق تشغيل الفيلم مرة أخرى.

لم يكن لدى روب ولا كلير أوراق قانونية لدخول ملاوي، لذا نزل الاثنان من الحافلة بالقرب من النهر الذي يشكل الحدود مع زائير

لتجنب الشرطة. كانا يأملان في إيجاد وسيلة للعبور بالقارب. بقيت أنا وماريبيت في مقاعدنا على متن الحافلة –اعتقدت كلير أنه لن يتعرض أحد لطفلين وحدهما.

كانت ماريبيت تبلغ من العمر سبعة أشهر، لا تشوبها شائبة وكأنها تحفة فنية. لم تبكِ قط. لم تنزف ولم تُخدَش. مرت ساعة، ثم ساعتان، ثم ثلاث ساعات. بقيت ماريبيت نائمة. كنت أخطط للبقاء صامتة، والتظاهر أنني لا أفهم اللغة التي تُحكى لو حاول أحدٌ أن يتحدث إليَّ.

كانت كلير على حق؛ لم يطلب الجندي الذي صعد إلى الحافلة أوراق أي شخص سوى البالغين، وتجاهلني أنا وماريبيت. بعد فترة وجيزة عاد كلير وروب. كانا في حالة سيئة. بدت ملامح الألم على وجه كلير عندما جلست. بالكاد كانت قادرة على التحرك.

لم تخبرني أنهما تعرضا للضرب، لكنها كانت تبدو كذلك. لم تكن تبدو خائفة –لا يمكن إخضاع كلير بالخوف. لم تكن تسمح لأحد بأن يحد من إحساسها بإمكاناتها أو أن يحط من قيمتها الذاتية. قد يظن الناس أنهم يستطيعون أخذ كل شيء منها، وأنهم بالفعل أخذوا كل شيء. أنتِ امرأة. أنتِ لاجئة. لا يمكنكِ الذهاب إلى المدرسة. لا يمكنكِ الحصول على وظيفة. أنتِ لا شيء في قوانيننا. لكن كلير بقيت ثابتة، لا تتزعزع. عندما صعدت إلى الحافلة، كانت عيناها تقولان: «**اعبثوا معي مرة أخرى، وسأجعل السماء تمطر نارًا**».

لم تُرد إخباري بما حدث. لكنني ضغطت عليها حتى أخبرتني. قالت إن الأمور في البداية سارت على ما يرام. وجدا قاربًا وعبرا به إلى ملاوي. لكن بمجرد وصولهما إلى الشاطئ، قبض عليهما الجنود وضربوهما بقضيب من الحديد. توسلت كلير إليهم أن يتوقفوا، وسألتهم عن الحاجة إلى ضرب لاجئة، أو إلى ضرب امرأة.

ومع ذلك، استمر الضرب. بقيَ روب صامتًا.

صرخ الجنود: «اللاجئون مكانهم المخيمات. لماذا لستما في المخيم؟».

استمر الضرب. لم ترد إعطاءهم شيئًا، لكنها قدمت لهم الحقيقة: لم تستطع العودة إلى المخيم. كانت قد تركت طفلها وأختها الصغيرة في الحافلة. لإثبات وجهة نظرها، أخرجتْ ثديها من قميصها وضغطت على جلدها حتى ظهرت قطرات الحليب البيضاء.

بعد ذلك، ضرب الجنود فخذيها، وضربوا ظهرها.

أخيرًا، مزقت كلير حزام سروالها وأعطت الجنود 100 دولار، فسمحوا لها ولروب بالمغادرة.

كان مخيم اللاجئين الجديد، دزالكا، سجنًا سياسيًّا سابقًا، بُنيَ على هضبة حمراء قاحلة لأهالي ملاوي الذين عارضوا البريطانيين. كان اللاجئون هنا لا يعيشون في الخيام، بل في مئات من الأكواخ الصغيرة المصنوعة من الطوب الأحمر الذي صُنع من تراب الهضبة الأحمر بعد خلطه بالماء، وتشكيله، وتجفيفه تحت الشمس.

كنا خبراء في حياة المخيمات، خبراء بلا جنسية، وحزينين. بدا دزالكا بطوبه الأحمر مشؤومًا، ولكنه ثابت متين. بالقرب من بوابة الأسلاك الشائكة، كان هناك مبنى إداري حيث يمكن للاجئين التسجيل لدى الصليب الأحمر على أمل يائس أن تأتي أخبار عن عائلاتهم. أما باقي المخيم فكان مكتظًا للغاية، لذلك نقلونا لى داخل المبنى الإداري. كنا ننام مع عشرين شخصًا في غرفة واحدة.

كان أكثرنا حظًّا ينامون فوق الطاولات أو تحتها. كانت الطاولة توفر بعض الخصوصية على الأقل. كنا نأكل الأرز وزبدة الفول السوداني، ونستبدل حب الفول السوداني بصابون الغسيل. كنت أقضي كل يوم،

كل يوم، مع مارييت، جالسة في الظل بالقرب من البوابة، أترقب طامحةً وآملةً أن يدخل والداي من البوابة.

ساعدتني امرأة لطيفة على التأقلم مع الحياة في دزالكا؛ أرشدتني إلى المكان الذي أغسل فيه الملابس، وشرحت لي متى وكيف أستحم. كانت الحمامات أكثر الأماكن خطورة في المخيم، حيث كانت تعتبر منطقة الصيد المفضلة للرجال الأكثر انحطاطًا.

ما يزال لدى روب زي جيد واحد، لذلك كان يستيقظ كل يوم في الأسبوع الأول، ويرتدي قميصه المخطط الأنيق، ويُلمع حذاءه الجلدي البني، ثم ينطلق للبحث عن مدير المخيم على أمل العثور على عمل. بحلول الظهيرة، كان يعود خائب الأمل، غاضبًا، يرقد على إحدى الطاولات، وينظر إلى السقف. كان يصرخ إذا تحدث إليه أحد. وكان يهددنا أنا وكلير لو أغضبناه.

بعد أسبوع، توقف عن ارتداء ملابسه الجيدة وبدأ يرتدي قميصًا عاديًّا نصف كُم ويقضي وقته في لعب الورق.

كانت كلير لا تهدأ. لم ترغب في الاستقرار. كانت تعلم جيدًا أن في مخيمات اللاجئين آخرين يستغلون معاناتك. وظيفتهم وقيمتهم الذاتية تعتمد على استمرار إذلالك، وعلى موافقتك على العيش في طبقة اجتماعية أدنى منهم، إنه المخطط الاستعماري القديم الجديد نفسه. كان الكثير من العاملين في المخيمات أمريكيين وكنديين؛ وكان بعضهم أفارقة متعلمين، مثل روب. كان بإمكانك رؤية الدهشة على وجوه موظفي الإغاثة عندما تُقلب رؤيتهم للعالم رأسًا على عقب حين تُظهِرين أنكِ رغم كونكِ لاجئة تتحدثين خمس لغات، أو متفوقة في الرياضيات أو كنت تديرين شركة محاسبة ناجحة.

أن تكون لاجئًا –هكذا كان يُنظَر إلى الأمر– يعني أن تكون ضحية، وكان ذلك أمرًا بديهيًّا. ليس فقط ضحية للقوى الخارجية مثل السياسة أو الحرب، بل ضحية بسبب ضعف داخلي غير قابل للإصلاح فيك. ضحية لأنك أقل قيمة، وأقل جدارة، وأقل قوة من جميع غير الضحايا في العالم.

كان حل كلير للهروب من كل ذلك هو كسب المال لدفع أجرة الحافلة، والابتعاد عن هذا المكان. كانت تقوم بجولات استطلاعية يومية، باحثةً عن الفرص. في أحد الصباحات، غادرت مرتديةً ملابسي الجديدة وباعتها، ثم عادت بالصابون والسكر والأرز.

في إحدى جولاتها، لاحظت كلير امرأة صومالية عجوز تجلس أمام كوخها المتداعي المصنوع من الطوب الأحمر، تبيع لحم المَعيز. وجدت كلير فرصتها. كان لدى المرأة العجوز منتجًا جيدًا، لكنها كانت كسولة ومرهقة. لم تكلف نفسها عناء مناداة المارة على الأقل في محاولة لبيع اللحم.

كانت كلير تستطيع التحدث إلى الجميع. كانت تتحدث السواحيلية، والكيروندية[1]، والكينياروااندية، والفرنسية. بدأت تسأل الأشخاص الذين عاشوا في المخيم منذ فترة طويلة عن كيفية الحصول على معزة. من يجب أن ترشيه لتتمكن من مغادرة المخيم؟ من لديه حوض لجمع دم المَعيز؟ من يملك سكينًا؟

قضيت أيامي ألعب الغميضة وراء أمتعة الناس المهترئة. تعلمت كيف أربط مارييت على ظهري بمفردي. تعلمت كيف ألف قطعة القماش حول قاعدة رأسها لدعم رقبتها. تعلمت متى يكون الوقت مناسبًا لطلب

(1) اللغة الرسمية في بوروندي وبعض المجتمعات في البلدان المجاورة، مثل رواندا وتنزانيا وجمهورية الكونجو الديمقراطية. (المترجم).

استعارة حوض الصفيح والموقد الكهربائي من جارتنا لأحمم مارييت بالمياه الدافئة. تعلمت النسبة الصحيحة من الملح والسكر لمزجها بالماء في زجاجة مارييت. تعلمت كيف أنظف وأعقم القماش الذي كنا نستخدمه حفاضات لمارييت.

في الوقت نفسه، كانت كلير تتقصَّى طريقة لبس النساء المحليات في ملاوي. كن يرتدين تنانير طويلة وأحذية بلاستيكية. لذا وجدت كلير تنورة طويلة وحذاءً بلاستيكيًّا. ربطت شعرها كما يربط السكان المحليون شعرهم.

بما أن المخيم كان مقسمًا بين المسيحيين والمسلمين، أدركت كلير أنها إذا كانت ستبيع لحم المَعيز، فسيكون عليها أن تلتزم بالطريقة الحلال في الذبح. لذلك اقتربت من رجل ينام في المسجد داخل المخيم، وسألته: «هل تعرف كيف تذبح المعزة؟».

أجاب الرجل بالإيجاب.

فقالت كلير: «حسنًا، فلنبدأ مشروعًا معًا. كم يجب أن أدفع لك؟».

طلب الرجل رأس المعزة.

في اليوم التالي، أخبرت كلير الجميع: «غدًا سأحصل على معزة!». باعت بعضًا من ملابسها المتبقية وملابس روب الجيدة. قبل الفجر في الصباح التالي، ارتدت تنورتها الطويلة وحذاءها البلاستيكي، ورَشَت حارس المخيم ليسمح لها بالمغادرة لبضع ساعات، ثم خرجت من المخيم، عبر الحقول الملأى بالفاصولياء والفول السوداني وفول الصويا. طرقت باب كل منزل على الطريق الترابي، تسأل عما إذا كان لديهم معزة للبيع.

وأخيرًا رأت واحدة في ساحة أحد المنازل. طرقت الباب وقالت: «كم ثمنها؟».

أجابها الرجل: «ثمنها أربعون».

قالت له إنها تملك عشرين فقط، فوافق وأخذ العشرين وأعطاها حبلًا لتربط المعزة به. ثم سارت عائدة إلى المخيم مع معزتها عبر الحقول.

في تلك الظهيرة، ذبح الرجل المسلم المعزة. لم أشاهد ذلك.

ثم وضعت كلير -بابتسامة عريضة على وجهها- طاولة وبدأت تنادي: «لحم! لحم!» بجميع اللغات التي تعرفها. كان هذا أبسط أشكال التجارة الممكنة: طعام على طاولة في كومة. بلا ثلج، بلا تبريد. لكن العمل بائعةً للحم في السوق السوداء منح كلير شعورًا بالقوة. كان مخيم دزالكا حياة بائسة للجميع يوميًّا. الرجال كانوا يلعبون الورق، والنساء يطهون ويحاولن الحفاظ على النظافة.

في الأسبوع التالي، اشترت كلير معزة أخرى. والأسبوع الذي يليه أيضًا. كانت تستمتع بالسير في الطرق الترابية وحدها، تغني وتصلي، تفكر في شيء آخر غير النجاة من ساعة إلى ساعة. في أحد الأسابيع، هربت منها المعزة واضطرت إلى مطاردتها حتى عادا إلى منزل المزارع الذي اشترته منه. أطفال المزارع طوقوا المعزة في الفناء، ومرة أخرى، وضعوا الحبل حول عنقها. وعادت كلير تسير مع المعزة إلى المخيم.

ذهبتُ لمشاهدة فيلم عن المسيح بعد ثلاثة أو أربعة أشهر من وصولنا إلى دزالكا. بحلول ذلك الوقت، كنا قد انتقلنا من المكتب إلى كوخنا المتداعي المصنوع من الطوب الأحمر. لم يكن للكوخ سقف، لذلك غطيناه بالنايلون. كان هناك سرير لكلير وروب، وحصيرة لي ولمارييت، والقليل من الخصوصية.

كان الفيلم يُعرض في وسط المخيم، في الساحة المفتوحة حيث كنا نصطف لاستلام حصص الذرة من الشاحنات. في تلك الليلة، وصلت إحدى الجمعيات الخيرية المسيحية ومعها جهاز عرض وبعض

الشوكولاتة. ربطوا ملاءة سرير لتكون شاشة، وتَدافع جميع الأطفال ليجدوا مكانًا للجلوس على التراب ومشاهدة الفيلم.

كنت مبهورة –المسيح في ثوبه الطويل، أنفه المُصْفَر وشعره الأملس؛ جميع الرجال ملتحون. لم أرَ سوى صور المسيح النحيف المصلوب، مُجَمَّدًا في عذابه. هذا المسيح كان يمشي في الجبال، يعظ شعبه، ويضاعف الخبز والسمك. كنت سعيدة جدًّا برؤية الطعام.

غادرت قبل نهاية الفيلم لأنني كنت أعرف أن الوقت قد تأخر، ووصلت إلى المنزل لأجد كلير وروب غاضبَين. صرخَت كلير: «بحثتُ عنكِ في كل مكان».

خلفها، على السرير رأيت تقريبًا ممتلكاتنا كلها مرتبة في أكوام. وبجانب الباب كانت هناك حقائب صغيرة. لم تكلف كلير نفسها عناء إخباري، لكنها كانت قد خططت مع بعض العائلات الأخرى التي كانت تنام معنا في المكتب سابقًا للهرب من دزالكا في تلك الليلة. لم يسمح لي روب ولا كلير بإلقاء نظرة على الأشياء فوق السرير، التي قررا تركها خلفهما. كرهتهما.

قبل مغادرتنا، أمسكت بحقيبتي التي تحمل شعار ميكي ماوس عن السرير، وحشوتها بثلاثة أزواج من الملابس الداخلية.

سرنا طوال تلك الليلة. شعرت بالغضب الشديد. كنت قد اعتدت أخيرًا على الحياة هناك. كنت أعرف كيف أعيش –ممن أستعير الصابون لغسيل الملابس، وكيفية تعقيم الحفاضات. والآن نحن نسير بعيدًا.

كانت كلير تحمل مارييت على ظهرها –لم أحملها أنا– حتى إن كلير لم تكن قد ربطتها بشكل صحيح. كانت ذراعاها وساقاها مكشوفتين. كانت ماما نيبيلي تحذرني دائمًا من القيام بذلك. قالت إن انكشاف

الذراعين والرجلين هو ما يؤدي إلى تعرضهما للهواء. لم تكن كلير تعرف شيئًا. لم تتعلم قط حتى أبسط مهام رعاية الأطفال.

سرنا عبر حقول المزارع، عبرنا الطريق الرئيسي، ومررنا بأميال من مسارات ترابية مليئة بأشجار الأكاسيا وشجيرات من عائلة المشيكية وأشجار النخيل. اقتربنا من جدول مائي. كان هديره مريحًا. أحنيت يديَّ على بعضهما لأشرب. كان الماء باردًا للغاية. لم تتحدث كلير طوال مسيرنا، ولم تخبرني إلى أين نحن ذاهبون. كانت تمضي قدمًا بخطوات ثابتة وعنفوانية، وتحمل حقيبتين كبيرتين من النايلون محشوَّتين في كل يد، وحول رأسها لفافة قماش تلمع عليها أشعة الشمس، وماريبيت مربوطة على ظهرها.

لم تكترث كلير إذا عبستُ أو اهتجتُ، أو إذا كنت في سخافتي باعتباري طفلةً تبلغ ثمانية أعوام، أحمل حقيبتي الميكي ماوس الملأى بالحجارة التي جمعتها على مدار العامين الماضيين لأتذكر بها الأماكن التي زرناها.

كما لم تكترث كلير إن كنت عطشى أو مرهقة، أو جائعة، أو أشعر بالحر، أو يائسة، أو مرتبكة، أو وحيدة. لم تكترث ما إذا كانت الأعشاب الجافة تجرح ساقي أو إذا كان حذائي البلاستيكي الرخيص يحرق قدمي بعدما كبرت ولم يعد مناسبًا لي.

لم تكترث كلير إذا كان روب يرعبني. كانت تدرك أن روب أيضًا فقد كل شيء –وظيفته، ومنزله، وذاته– والآن بعدما أصبح لاجئًا مثلنا، أراد أن يبث ألمه. كان يضرب كلير، ويشرب آخر قطرات الماء لدينا. ولم يحمل شيئًا سوى طعامه الخاص.

لم تكترث كلير، أو على الأقل لم تظهر لي أنها تكترث، وأن روب كان يخيفها أيضًا.

كان بإمكاني أن أشعر بخوف كلير، وبخوف جميع البالغين. كان الخوف يظهر على أجسادهم من رؤوسهم حتى أخمص أقدامهم، تلك الأجساد النحيفة الهشة مثل الجرافيت في قلم الرصاص. كانوا يهمسون بأصوات مليئة بالقلق والجزع حول كيفية تجنب شرطة الهجرة في ملاوي.

قبل الفجر، سمعت روب يقول إنه يعتقد أننا عبرنا الحدود إلى موزمبيق. لم يكن لهذا أي معنى بالنسبة لي. كنت دائمًا أتصور أن الحدود، إذا لم تكن سياجًا، فهي على الأقل خندق طويل، أو شق في الأرض. لقد رأيت الخطوط على الخرائط؛ سوداء، وواضحة، ومهيبة. لم أفكر قط في أنها كانت مجرد خيال.

كنت أمسح الأرض بحثًا عن أدلة، عن علامات تغيير، عن نباتات غريبة أو حيوانات غير مألوفة، أو حجارة براقة. إلى جانب جمع العينات الجيولوجية، كنت أرغب في جمع الذكريات، لتخزينها وحفظها حتى ألتقي والدتي، أو شقيقي، أو والدي، لأخبرهم بالتفصيل عما رأيته.

كنت أتخيل يوميًا الدخول إلى سوق ورؤية والدتي، وإخبارها أنني سأشتري لها أي شيء تريده. وسيكون أخي في السوق أيضًا. سأعانقه بقوة، ثم سأشتري له الفشار والعلكة.

سرنا فوق القذائف وأغلفة الرصاص الفارغة. وأخيرًا وصلنا إلى الطريق الرئيسي. كان العشب الطويل ينمو من الشقوق في حجارة الرصيف. لم أتصور قط أن الحضارة يمكن أن تبدو بهذا الشكل المهجور البائس.

وصلنا إلى موقف الحافلات، حيث جلسنا للاستراحة في الهواء البارد الصباحي تحت شجرة. لم يتحدث أو يتحرك أحد. انتظرنا لساعات. كان الوقت يُقاس بمدى جوعنا فقط. البقاء على قيد الحياة

كان هدفنا الوحيد. لقد نجونا من الليل، والآن علينا البقاء على قيد الحياة خلال النهار.

مكتبة

كنا قد أكلنا الفول السوداني المحمص كله الذي حزمته كلير للطعام. لم تتبقَّ سوى عصيدة البفرة الطرية التي كانت مخصصة لمارييت. كنت جائعة جدًّا، لكنني أجبرت نفسي على النوم من خلال تخيل كراهية الذات التي كنت سأشعر بها عندما تبكي مارييت بسبب الجوع.

وصلت الحافلة بعد شروق الشمس بقليل -كانت حافلة عسكرية تكاد لا تحتوي على مقاعد. وقف بعض الرجال، في حين جلس البقية على الأرض مع النساء والأطفال. كوَّرتُ نفسي، وكنت أتأرجح وأرتجُّ مع كل حفرة تخطو فوقها الحافلة، غاضبةً جدًّا ويائسة وباذلةً كل جهدي للتقوقع داخل نفسي، لدرجة أنني رفضت الكشف عمَّا في داخلي.

وكزتني كلير بكوعها برفق حين قاربت الشمس على الغروب. كنا قد وصلنا إلى تيت، عاصمة إحدى مقاطعات موزمبيق. نزلنا جميعًا من الحافلة. جلست في حالة من الذهول بجوار أمتعتنا مع كلير، ومارييت، وامرأتين أخريين.

بعد بضع دقائق، خرجت من حالتي تلك مذعورة مرعوبة. كنت قد تركت حقيبتي الميكي ماوس على متن الحافلة. كان باستطاعتي أن أرى عبر المحطة أن الحافلة ما تزال هناك. كنت أعلم تمامًا مكان الحقيبة. كنت قد أخفيتها في فتحة صغيرة بين أحد المقاعد القليلة الموجودة في الحافلة والجدار الجانبي حتى لا يسرقها أحد في أثناء نومي.

طلبت من روب، بألطف وأهدأ صوت استطعت استخدامه، أن يذهب ويجلبها لي. رفض. توسلت إلى كلير. نظرت كلير إلى روب ثم هزت رأسها لي رافضةً. طلبت من النساء الأخريات. لم يردن الذهاب أيضًا. لم يكن أحد مستعدًّا للمخاطرة بالقبض عليه من قبل شرطة الهجرة.

وقفت واتخذت بضع خطوات متحدية، باتجاه الحافلة بنفسي. أمسك روب بمعصمي وقال بصوت مليء بالتهديد والوعيد: «لا. **إياكِ**». شعرت بعنف تهديده، كما أرادني أن أشعر به. ثم قال: «لا أحد يكترث. اتركيها».

2005

8

سرتُ على خشبة المسرح، وحقيبتي المدرسية تحوي غرضَيْن فقط، كما طلبت مني معلمة الدراما. كان الأول صورة لمارييت وفريدي يقفان أمام بوابة شقتنا الأولى في شيكاجو. بدوا حزينين للغاية. كانت مارييت تحدق مباشرة إلى الكاميرا وعيناها خاليتان من أي تعبير. أما فريدي، الذي كان في الثانية من عمره –فقد كان صغيرًا جدًّا، ومثاليًّا، وقلقًا. تلك الصورة ما تزال تجعلني أبكي.

أما الغرض الثاني فكان وسادتي، وبداخل غطائها كيس صغير من اللافندر. السيدة توماس كانت قد اشترته لي على أمل أن يطرد كوابيسي. كل مساء كانت تقوم بتسخين الكيس الحريري الصغير في الميكروويف وتضعه دافئًا بجوار الريش. أحببت طقوسنا هذه، لكنها لم تنجح. بالكاد كنت أنام.

كانت هذه الأغراض مخصصة للارتجال في الصف الحادي عشر. أعطتنا المعلمة مهمة بسيطة: قدّم نفسك للمجموعة باستخدام غرضين فقط. جعلتني هذه المهمة متوترة وغير واثقة. كنت أمثل المسرحيات منذ الصف السابع، وكان أساتذتي دائمًا يخبرونني أنني بارعة. كانوا يعطونني دور البطولة في **البؤساء**. لم أشكك قط فيهم. لم أرد أن أفكر أنهم منحوني الأدوار من باب الشفقة أو التعزية. لكن بحلول المرحلة الثانوية، بدؤوا يصارحونني بالحقيقة: كنت ممثلة سيئة. كنت أحاول تقليد تعابير الغضب أو الفرح، لكنني لم أتمكن قط من الوصول إلى مشاعري الحقيقية. كان أدائي ميكانيكيًّا وباردًا.

في مهمة الغرضين، طلبت من معلمتي تعليمات أكثر دقة. أردت أن أعرف الشخصية التي يجب أن أتظاهر أنني عليها. قالت لي: «فقط عبِّري عن نفسك! أنتِ لا تمثلين –كوني نفسك فقط. هذا سيحررك».

في اليوم المحدد، كانت خشبة المسرح مجهزة بسرير فرديّ. وعندما حان دوري، مشيت على المسرح ووضعت حقيبتي جانبًا وكأنني أستعد لحل واجبي. أليس هذا من أكون؟ طفلة تعود من المدرسة وتحل واجبها. لكنني شعرت أنني أفشل –لا أعبر عن شيء، لا أكشف عن شيء من نفسي– وكنت أكره الفشل، لذا جربتُ نهجًا جديدًا. أخذت وسادتي ووضعتها على السرير، وضعت رأسي عليها، وحدقت إلى صورة مارييت وفريدي.

ثم انفجرت فجأة. كل الغضب بداخلي اندلع. رميت الوسادة على الأرض، مزقت الأغطية عن السرير، ووجدت هاتفي المحمول واتصلت بروب، حقًّا. لم يرد، لذا تركت له رسالة غاضبة وعاطفية، أخبرته فيها حقيقتي، أخيرًا: كان من المفترض أن يحمينا من هذا الرعب كله، لكنه

لم يفعل. لقد فشل. تخلى عنا. تسبب بالرعب لنفسه، وكنا مجروحين للغاية.

قلت: «أنا أسامحك. يمكنني فعل ذلك، أسامحك. لكنني لن أثق بأحد مرة أخرى أبدًا. لن أضع حياتي في يد أي شخص بعد الآن على الإطلاق».

بكيت حتى نادتني معلمتي لإنهاء المشهد.

تجنبني زملائي في الفصل بعد ذلك.

بحلول الوقت الذي كتبت فيه مقالتي لمسابقة أوبرا، كنا نعرف أن والديَّ على قيد الحياة. كانت كلير قد استمرت في التواصل مع منظمة World Relief وورلد ريليف – الوكالة التي أحضرتنا إلى الولايات المتحدة.

في أحد الأيام، وفي أثناء وجودها في مكتب شيكاجو، التقت كلير امرأةً رواندية من قرية خالنا نفسها، الأخ الأكبر لأمي. كان ذلك الخال كاهنًا، وكان الشخص الوحيد في عائلتنا الذي كنا نعتقد أنه ما يزال على قيد الحياة. كان قد انتقل إلى بلجيكا قبل الإبادة الجماعية، وكذلك أبناء هذه المرأة.

ركضت كلير إلى متجر قريب واشترت بطاقة هاتف. أعطتها للمرأة لتتصل بأبنائها لتسألهم عما يعرفونه.

اتضح أن خالنا عاد إلى قريته في رواندا وهو كاهن هناك. لذلك أجرت المرأة مكالمة أخرى. بعد لحظات، سلمت كلير قطعة ورق بها رقم هاتف كنيسة خالنا.

في صباح اليوم التالي، اتصلت كلير. كان الكاهن نائمًا.

اتصلت كلير مرة أخرى بعد ساعة –ما يزال نائمًا.

في المرة الثالثة التي اتصلت فيها، كان الكاهن مستيقظًا.

كنت في منزل آل توماس، في غرفتي ذات الرفوف المدمجة، وزي التشجيع الخاص بي ملقى على الأرض. أخبرت كلير خالنا اسمها.

لم يصدقها. قال: «هؤلاء الأطفال ماتوا منذ زمن طويل».

أخبرته كلير أسماء والدينا.

فقال: «لا، لا، لا».

قالت كلير: «خالي، أنا كلير. كان لقبي بوبوسي».

شهق ثم انفجر فرحًا.

كانت كلير خائفة من السؤال عن والديَّ. كثير من الناس قتلوا. كيف يمكنك أن تسأل ما إذا كانت عائلتك ما تزال على قيد الحياة؟ كان من الصعب أن ترغب في المعرفة.

لكن خالنا وفر على كلير عناء السؤال، وقال بعد أن استعاد رباطة جأشه: «والداكِ .. ما يزالان على قيد الحياة، ما يزالان في كيجالي. ما يزالان على قيد الحياة، لكن حياتهما تغيرت كثيرًا».

كان والدي قد فقد عمله. سرق المتمردون منزلنا. لم يكن لوالديَّ هاتف. أعطى خالنا لكلير رقم خالتنا، أخت والدتنا الصغرى. كانت تعيش على بعد ساعتين من كيجالي. قال خالنا إنه سيطلب من خالتنا زيارة والدينا في الصباح التالي مع هاتفها.

في اليوم التالي، تغيبت عن المدرسة وأخذت القطار إلى إدجووتر وجلست في شقة كلير. كنت أكره الذهاب إلى هناك؛ روب خان كلير. كان يضربها، ويخبرها أنها قبيحة، ويجعلها تشعر بأنها لا تساوي شيئًا. كنت أراقب كلير بصمت حين كانت تتصل.

سمعتها تقول: «مرحبًا، ماما» خرجت من الغرفة.

أغمي على أمي، فاتصلت كلير مرة أخرى. لم أستطع تحمل الاستماع لهما.

قالت كلير: «نعم، ماما، كليمنتين أيضًا على قيد الحياة. كنا لاجئين لفترة طويلة. فترة طويلة جدًّا. فلقد لجأنا في كل مكان. نحن في أمريكا الآن».

تحدثت كلير ووالدتي مثل الغرباء. لم يعرف أحد ما يقول. أخبرتها والدتي أن بودي ما يزال على قيد الحياة.

كذبت أختي وقالت إنها تزوجت رجلًا لطيفًا. حاولت، دون جدوى، أن تبدو سعيدة عندما أخبرت والدتي أن لديها ثلاثة أطفال. لم يكن هناك مجال لإخفاء فداحة هذا الخطأ. كان بعيدًا جدًّا عن خطة الأسرة أن تمتلك كلير ثلاثة أطفال وهي تبلغ الآن الثانية والعشرين من عمرها.

شعرت أن الأمر كان غير واقعي ومروعًا. فقدت إحساسي بمن أكون ومن نحن بالنسبة لبعضنا بعضًا. لم نعد الأشخاص ذاتهم الذين عاشوا معًا في ذلك المنزل في كيجالي. هؤلاء الأشخاص ماتوا. كلنا متنا.

لعدة سنوات كنت أخبر نفسي أنني سأحتفظ بذكرى كل الأماكن التي زرتها وكل الأشياء التي رأيتها ثم سأخبر والدتي. سأشاركها كل شيء عن حياتي.

قررتُ الآن ألا أخبرها بأي شيء على الإطلاق.

مكتبة
t.me/soramnqraa

1996

9

طوال الليل: في كل ليلة، كنت أتخيل كيف سأقاتل إن حدث ذلك.

رأيت أسناذً –أسناني سلاحًا. أسناني، وأظافري، ويديَّ، وركلاتي. رأيت نفسي أركل وأعض. لم أعض أحدًا في حياتي.

رأيت نفسٍي أدفع جسدي للحركة –جسديًّا، ولفظيًّا، وعاطفيًّا. رأيت الوضعية التي يجب أن أقف بها. الطريقة التي يجب أن أحدق بها. كان عليَّ أن أُظهِرَ شعور: «**لا تعبث معي**»، ليس فقط بالسيطرة التي أستخدمها مع لنساء، بل بغضب جامح. **لا يمكنك سلب ما هو لي.**

عليَّ أن أكون منيعة، مكتفية ذاتيًّا، وكنت أمارس هذا في ساعات يقظتي أيضًا. ! أثق أو أقبل المساعدة، وبخاصة من الرجال، لأن الناس عندما يقدمون لك المساعدة، يشعرون أنك مدين لهم. يعتقدون أنهم يملكون الحق في استغلالك لاحقًا. عندما تكون في أدنى أحوالك، سيقولون لك: **حسنًا، ألا تذكرين أنني أعطيتك تلك الفاصولياء؟**».

وعندما لا يكون لديك أي شيء على الإطلاق لتقدميه، سيقولون: «**أحتاج أن تسددي دينك الآن**».

غضبي لفقدان حقيبتي كان أحمر قانيًا. كل شيء في موزمبيق كان أحمر قانيًا. الرجال ذهبوا إلى بلدة تيت للبحث عن مساعدة. حاولت أن أنام مجددًا للهروب، ولو للحظات، من غليان حزني. حضر القمر – وما يزال الرجال غائبين. القمر يتنقل في السماء– ولم يعد أحد.

تصلَّب وجه كلير. لم أعد أستطيع البقاء مستيقظة لهذه الحياة. ثم من الظلال، ظهرت بضع نساءٍ يرتدين فساتين سوداء. أحضرن لنا خبزًا حلوًا وماءً، وبدأن الحديث مع كلير بلغة بدت وكأنها فرنسية تقريبًا.

جمعن فساتينهن –تبين أنها أردية راهبات– وجلسن معنا على الأرض. لاحظت إحداهن عبوسي وربتت على يدي. مرت بضع ساعات. لم يعد الرجال. عندما تعامد القمر على الأرض، وصلت راهبات أخريات يحملن خبرًا أن شرطة الهجرة ألقت القبض على ثلاثة رجال، من بينهم، على الأرجح، روب. عبر روب كما فعلنا جميعًا الحدود بشكل غير قانوني، لذا أُودِعَ في السجن.

مشينا مع الراهبات على طريق جانبي إلى معسكر جنود سابق، بضع خيام خضراء متينة. قدمت لنا الراهبات المزيد من الخبز والماء، بالإضافة إلى مربى، والشموع، وطارد للبعوض، وإمدادات لمارييت –حفاضات حقيقية، وهي الأولى التي رأيتها منذ زائير، وزجاجة من الحليب الصناعي.

داخل الخيمة كان هناك كلب نائم على ألواح من الكرتون كانت مُخَصَّصة لتكون أسرَّتنا. وقفت في الخارج. بدأ المطر يهطل. وعندما عدت مبتلة تمامًا، غادر الكلب واستلقيت على الكرتون المبلل وغفوت.

في الصباح، اصطحبتنا الراهبات إلى السجن. كانت دورية الحدود قد حبست الرجال في غرفة، والنساء في غرفة أخرى. جلسنا لبعض الوقت

على مقعد في الممر، حيث هاجم البعوض آذاننا وأعيننا. رفعت كلير ماريبيت إلى أحد الحراس، على أمل أن تستدر رحمته. ظل وجهه خاليًا من التعبير. في وقت لاحق من الصباح، ظهر حارس آخر. دَفَعَنا الرجلان معًا جميعًا -النساء والأطفال، إلى غرفة بلا نوافذ، وأغلقوا الباب.

لم يكن الحراس يتحدثون سوى البرتغالية. لم يكن أحد منا يتحدثها. لبضع لحظات، تمسكت كلير والنساء الأخريات بلغتين يفهمهما الجميع: الابتسامة أو البكاء. ثم بدأت كلير بالصراخ. صرخنا جميعًا.

صرخت كلير وهي تضرب الباب باللغة السواحيلية: «ألا تشعرون بالخجل؟! هل تعرفون مدى جوع هؤلاء الأطفال؟ لقد فررنا من بلدي الذي يمزقه الحرب».

انضممت إليها وأنا أصرخ: «نعم، نعم، نعم»، كنت مثل الجوقة.

كنت ما أزال غاضبة جدًّا بسبب حقيبتي، لكنني شعرت بالارتياح لأنني ابتعدت عن روب. كنت أشك أن كلير شعرت بالارتياح أيضًا. ومع ذلك، كنا بحاجة إليه. فتاتان وطفل -كان روب درعنا الحامي من الرجال المفترسين الآخرين.

أخيرًا، فتح مدير شرطة الهجرة الباب. كان وجهه لطيفًا. تحدث بالسواحيلي، وقال لكلير إنه هو أيضًا لاجئ من تنزانيا. أخبرته كلير بنسخة مبسطة من قصتنا. بعد ذلك، منحنا أجرة الحافلة إلى الجنوب نحو مابوتو، عاصمة موزمبيق، حيث قال إننا يجب أن نبقى في مخيم اللاجئين.

نمنا تلك الليلة على الكرتون في مخيم الراهبات. وفي اليوم التالي أطلق رئيس شرطة الهجرة سراح الرجال.

في تلك اللحظة كنت أعلم أن روب يريد الذهاب دوني. على عكس كلير، لم يكن يهتم بمشاعري –بل كانت تغضبه.

لم أستطع النظر إلى كلير. لا أريدها أن ترى غضبي أو مدى يأسي. في مابوتو، التقى ضباط شرطة الهجرة بحافلتنا وأخذونا إلى مخيم كان يديره الإيطاليون، وكان مفاجأة لطيفة. المخيم كان مُنظمًا مثل نزل –ثكنة كبيرة بها أسِرَّة مصطفة. كان لكلير وروب مرتبة وملاءات. أما أنا وماريبت فكنَّا ننام على الأرض.

كنت سعيدة لوجودي هناك، لأني كنت أتلقى معاملة باعتباري إنسانةً، إنسانةً طبيعية ذات احتياجات إنسانية طبيعية. حصلنا على الحليب المجفف، وصلصة الطماطم، والخبز، ومعجون الأسنان. أحيانًا كنا نحصل على السمك. وفي أيام الجمعة، كانت العاملات في الإغاثة يوزعن المعكرونة. شعرت بالأمان. كان الطقس حارًّا، ومع أنني لم أخاطر بالمشي في ملابسي الداخلية مثل الرجال، شعرت بالأمان الكافي لارتداء قميص بلا أكمام.

ومع ذلك، في الليل كان الأطفال ينادون: «ماما، ماما!» في أثناء غرقهم في النوم. كنت أكرههم لذلك.

وفي الصباح، كانت الحياة تبدو ليِّنة سهلة القياد مرة أخرى.

بعد بضعة أيام من وصولنا، اقتربت كلير من امرأة كانت تعيش في المخيم منذ عشرين عامًا. عشرون عامًا، هنا؟ هذا المدى الزمني لم يكن منطقيًّا. كانت مابوتو على بعد 60 ميلًا فقط من حدود جنوب إفريقيا، و370 ميلًا من ديربان. كان الرجال الذين يستطيعون دفع ثمن تذاكر الحافلة يهربون ويعبرون الحدود ليعيشوا في جنوب إفريقيا ويعملوا هناك. ومع ذلك، كانت هذه المرأة تعيش هنا في المخيم لأكثر من ضعف عمري. قالت لها كلير، بسحرها المعتاد: «لديَّ حمالة صدر جميلة

يمكن أن تناسبك». اشترتها المرأة بعشرة ميتيكال موزمبيقي –أقل من عشرين سنتًا.

طلبت كلير من شخص آخر مقيم قديم، وهو رجل رواندي عاش في المخيم لمدة ستة عشر عامًا، أن يرافقها إلى مابوتو. كان يتحدث بعض البرتغالية، وأخبر كلير أنه كان يعرف خالتنا اتي ماتت خلال الصراع، الصراع الذي لم يجرؤ أحد على تسميته. لم تشرح لي كلير شيئًا.

في اليوم التالي، انطلق كلير والرجل إلى مابوتو، على بعد ساعة سيرًا على الأقدام. تجولا في المدينة حتى وجدن كلير متجرًا عامًّا. قالت كلير لمرافقها الرواندي: «اسأل صاحب المتجر إن كان يريد أن يتاجر معي! أخبره أنني أستطيع أن أحضر له معكرونة من إيطاليا».

فعل الرجل الرواندي ما طلبته منه. قال للبائع الهندي، بالبرتغالية: «هذه الشابة تريد أن تتاجر معك. تقول إنها ستحضر لك معكرونة من إيطاليا».

سأل صاحب المتجر: «أوه، هل لديك عينة؟».

أخرجت كلير علبة معكرونة من حقيبتها وانتظرت صاحب المتجر الذي كان يفحصها. ثم سألته: «كم تريد؟ كم ستدفع لي مقابل نصف دزينة؟».

عرض صاحب المتجر على كلير خمسة ميتيكالات للعلبة.

في تلك الليلة، في المخيم، كانت كلير مشتعلة بالنشاط. تجولت في الثكنة وهي تسأل: «من يريد مالًا؟». عرضت على الناس أن تشتري منهم علب المعكرونة مقابل ميتيكالين للعلبة. اشترت أربع علب وفي اليوم التالي عادت إلى مابوتو مع الرجل الرواندي. أعطاها صاحب المتجر الهندي عشرين ميتيكالًا، والتي أعطتها لروب عند عودتها إلى المخيم. في اليوم التالي استقلَّ روب الحافلة إلى جنوب إفريقيا.

في منتصف الأسبوع، عادت كلير إلى مابوتو لتتفقد عملها في بيع المعكرونة. كان صاحب المتجر قد باع كل ما لديه.

منذ ذلك الحين، في كل يوم جمعة، كانت كلير تشتري أكبر عدد من علب المعكرونة التي تستطيع تحمل تكلفتها من الآخرين في المخيم، وفي صباح السبت كانت تستيقظ في الرابعة صباحًا، تستعير عربة يدوية، وتنقل مخزونها إلى المدينة. كانت تشتري من أرباحها الصابون والحليب والشموع، التي كانت تحضرها إلى المخيم لأبيعها. الآن، بفضل كلير، أصبح في مخيمنا سوق سوداء صغيرة.

كان لدينا سقف. كان لدينا موقد لغلي الماء لمارييت حتى لا تمرض. كان هذا كافيًا. كنت أرغب في البقاء. لكن كلير كانت مصممة على أنها لا تشعر بالراحة. كانت تعتقد أن البقاء في مخيم جيد أخطر من البقاء في مخيم سيئ. لم يكن بإمكاننا أن نبدأ بالاعتقاد أن هذه الحياة كانت على ما يرام.

2007-2005

10

خطتي للبقاء في المدرسة الثانوية كانت هشَّة، أشبه بلوح خشبي رقيق قديم مسمر على نافذة مكسورة. كانت تلك الخطة ناجحة لبعض الوقت؛ عزلت نفسي عن عائلتي، حافظت على روتيني، واجتهدت في الدراسة.

عندما كنت أحتاج للمزيد من الدعم، كنت أهرب إلى عوالم توني موريسون. في رواية **صولا Sula**، وصفتْ موريسون عالمًا مليئًا بأشخاص أعرفهم: فتاة يملأ ضحكها الأجواء ولكن «ألمها العميق... كان يرقد تحت جفونها»، وامرأة سوداء وقورة «لم تخسر سوى معركة واحدة – طريقة نطق اسمها»، وأطفال «كان شعورهم بالوحدة عميقًا لدرجة أنه أسكرهم وجعلهم يترنحون». احتضنت موريسون العزلة الوجودية العميقة ذاتها التي كنت أشعر بها. صولا، إحدى شخصيات موريسون تتساءل: «إنها الوحدة، أليس كذلك؟».

ثم أجابت: «نعم. لكن وحدتي **ملكي**».

ثم في يوم ما، عندما كنت مع السيدة توماس في متجر تارجت، اتصلت كلير لتخبرني أن بودي كان مريضًا للغاية. كانوا يعتقدون أنه مصاب بالتهاب السحايا.

ذهبت مباشرة إلى مكتب ويسترن يونيون لتحويل كل أموالي التي جمعتها من العمل جليسةَ أطفال إلى والديَّ ليشتريا له الدواء.

في اليوم التالي، يوم الجمعة، وبعد المدرسة، ركبت القطار إلى شقة كلير، حيث قضينا عطلة نهاية الأسبوع ننتظر أن يرن الهاتف. كانت كلير قد تركت روب مؤخرًا. لم يعد بإمكانها تحمل إساءته. لم يكن لديها أثاث. لكن ذلك لم يكن مهمًّا. جلسنا على مرتبة موضوعة على الأرض.

كانت الخطة أن تتصل والدتي إذا لم يكن الأمر بخير. انتظرنا وانتظرنا. اتصلت والدتي. كلود ... بودي قد مات.

كان بودي في الثانية والعشرين من عمره آنذاك. لم أعرفه رجلًا شابًّا قط. لم أتحدث معه عبر الهاتف - كنت خائفة جدًّا. كان التحدث إلى بودي أشبه بالتحدث إلى شبح. لم أخبره قط أنني كنت دائمًا أفكر به. لم أقل: «**اشتقت إليك**». أو: «**لقد حاولتَ مساعدتي في فهم عالم لن أفهمه أبدًا**». أو: «**لقد احتفظتُ بهذه الأشياء كلها لأعطيك إياها**». كان لدي الكثير لأشاركه مع بودي، ولكن في الوقت نفسه لم يكن لدي أي شيء لأشاركه. عشنا جميعًا حياة لم يكن والداي يحلمان أن نعيشها قط.

استلقيت على المرتبة وبكيت بحرًا من الدموع. فقدنا الكثير من الناس، قُتل الكثير من الناس. كان بودي أول شخص نُفجَع به.

في آب من العام 2006، بعد ثلاثة أشهر من ظهورنا في برنامج أوبرا، عادت كلير إلى رواندا. كانت قد حصلت على الجنسية الأمريكية قبل أسبوع واحد من ظهورنا في البرنامج. وجدت ولديَّ يعيشان في أطراف كيجالي، في كوخ. لم يكن والدي يعمل. كان يعاني ارتفاع ضغط الدم ومرض السكري. كانت والدتي تطبخ بنفسها دون خادمات.

ركبت كلير الحافلة إلى المدينة وسارت إلى السفارة، حيث استُقبلت بحفاوة بالغة كما لو أنها إحدى النجمات. قال الموظف: «إنها كلير من برنامج أوبرا!» لقد شاهد كل أهل رواندا الفيديو الذي ظهرنا فيه على التلفزيون. كانت قصة ملهمة، ورواندا كانت بحاجة ماسة لمثل هذه القصص في ذلك الوقت.

بُني متحف للإبادة الجماعية في الأراضي الخصبة المنخفضة التي تمر عبر وسط كيجالي. يحتوي المتحف على معرض تعليمي تفصيلي وجرافيكي؛ وقبر جماعي يضم 250 ألف شخص؛ وجدار أسماء مستوحى من النصب التذكاري لفيتنام، لكنه حتى اليوم لم يكتمل بعد. إن محاولة الإحاطة وتخليد آلام البلاد بأكملها أمر غير ممكن حقًّا.

المعرض الأخير في المتحف هو فيلم يتحدث فيه الروانديون المعذبون عن المغفرة. يقولون إن على البلد بأكمله أن يغفر، وإنهم هم أنفسهم قد غفروا.

منذ وقت ليس ببعيد، جلست أنا وكلير في حديقة قريبة من شقتي في سان فرانسيسكو وتجادلنا حول المغفرة.

كلير تؤمن أنها تستطيع ويجب أن تغفر. إيمانها هو درعها. 'هللويا'. كوني شاكرة.

قلت لها: «ابنة خال روب، التي فقدت طفلها. عانت أمرَّ الآلام وأصعبها، عانت أسوأ البلايا التي يمكن أن يتخيل الإنسان ابتلاءها من

الرب. ثم جاء هؤلاء الرجال وسرقوا منها كل ما تبقى. أخذوا إنسانيتها، فهل نطلب منها أن تغفر؟».

استمعت كلير غير متأثرة وقالت: «لدي سلامي الخاص. قلت لنفسي منذ زمن طويل، لا أحد يستطيع أن يسلبني سلامي».

رددتُ عليها: «لكن الناس بحاجة لأن يدركوا، وأن يقولوا لأنفسهم: 'لا يمكنني فعل هذا لأن هذا الفعل لا يُغتفر. لا يمكنني أن أقرر أن زوجتي صرصار. لا يمكنني أن أقرر أن جاري أفعى. لا يمكنني قتل زوجتي. لا يمكنني قتل جاري. لا يمكنني أن أجعل الآخرين أقل من البشر ثم أقتلهم'. هذا لا يُغتفر. هذا لن يُغتفر أبدًا. يجب ألا يكون هناك تسامح مع هذه الأفعال».

التزمت كلير الصمت. وعندما تحدثت قالت: «دعينا نتحدث عن رواندا»، وهي المرة الأولى التي تطرح فيها هذا الموضوع. ثم تابعت: «هناك بعض الناس، كان لديهم أطفال وجاء شخص وقتل جميع أطفالهم ونجا القاتل. هناك أطفال فقدوا والديهم، فقدوا كل شيء، ونجا القتلة. ورواندا الآن تعيش في سلام. هل تعتقدين أن رواندا يمكن أن تكون في سلام الآن إذا لم يغفر أحد؟».

أفهم أن المغفرة ضرورية، وأنها ربما القطعة الناقصة في حياتي، المفتاح الذي سيمكّنني من تحقيق التوازن والاستقرار ويمنع انهيار حياتي. لكن لا أستطيع القيام بذلك. أشعر أن ذلك زائف بالنسبة لي.

ثم قالت: «الحقيقة هي أن رواندا مسالمة ولكن ذلك في قلوب الناس. المسالمة في قلوب الناس، وستظهر للعلن». ثم همست: «اغفري أو انسي».

قلت لها: «أنسى؟ لا مجال للنسيان، فالأضرار وقعت وستعاودني آثارها. تُجووزت تلك الخطوط ولا يمكننا العودة. الأزواج قتلوا زوجاتهم،

والزوجات قتلن أزواجهن. قال لنا الناس: «أولئك الناسر هناك لا نريدهم. إنهم صراصير، وصدقناهم. في عقولهم كان ذلك مقبولاً. علينا الاعتراف: ‹أنا مسؤول. نحن مسؤولون. هم مسؤولون. لقد حدث هذا›. الآن، ونحن نائمون، نرى ذلك في أحلامنا. نرسم لوحة ونعتقد أنها جميلة، لكن الوحش موجود هناك».

قالت كلير: «هل يمكننا التحدث عن شيء آخر؟».

منحت القنصلية لكلير تأشيرتين لوالدتي وأختي الصغرى. عادت كلير إلى موطنها مجددًا، فهي تبرم الصفقات بنجاح. لكن لم يكن لديها المال لشراء تذاكر الطيران إلى شيكاجو .. ليس بعد.

ولذلك عادت إلى الولايات المتحدة وواصلت العمل. كانت ما تزال تعمل تسع أو عشر ساعات يوميًّا، ستة أيام في الأسبوع. وعندما لا تنظف غرف الفنادق، كانت تنظف المنازل. كان من الصعب على كلير أن تجد ذاتها هنا. لقد أنفق روب راتبه على صديقاته عندما كانا معًا. كان يضرب كلير ويحطم معنوياتها. أخبرتني لاحقًا أن الإهانة التي تعرضت لها في زواجها كانت أسوأ من الإهانة التي واجهتها في حياة اللجوء.

في كانون الأول، عادت كلير إلى رواندا مرة أخرى، في محاولة جديدة لجلب والدتي إلى شيكاجو لتعيش معها. اتصلت بي من كيجالي. لم يكن لديها المال لشراء تذكرة طيران لوالدتي؛ وكانت تعلم ذلك عندما غادرت. سافرت هناك مؤمنة أن الرب سيساعدها في العثور على المال.

كانت المحادثة متوترة. كلير تعلم أنني لا أملك هذا المبلغ من المال. أخبرتها أنني لن أطلب من عائلة توماس المساعدة. ثم ذكرتني بصديقي تروي ووالده.

لم تكن علاقتي بتروي جسدية بشكل كبير. كان لطيفًا وكريمًا، وكنا نرافق بعضنا بعضًا. انفصل والداه وكان يشعر بالوحدة الشديدة في منزله. غالبًا ما كان يأتي معي إلى منزل كلير ويساعد في رعاية الأطفال. كان يطبخ حين أقوم أنا بالتنظيف. كان يغسل الملابس. كان يدعو فريدي إلى مباريات كرة القدم وكرة السلة. كنا أنا وتروي متوازنين. كان يرى كل الأكاذيب والنفاق في العالم؛ أما أنا فكنت أريد أن أبقى مخدرة من كل ذلك. ذات يوم، منحه والده سيارة، لكنه رفض الهدية. قرأت لاحقًا كتاب **في البرية** (Into the Wild) لأحاول فهمه، لماذا يحرم نفسه من مثل هذه الأشياء. كانت كلير تشير إلى أن والد تروي قد أخبرني ذات مرة أنه إذا أتيحت لوالديَّ الفرصة للانتقال إلى الولايات المتحدة، فسوف يساعد في دفع ثمن التذاكر.

كرهت أن أطلب من أحد شيئًا؛ كانت ديناميكية العطاء والتلقي تشعرني بالتوتر. كنت في التاسعة عشرة، طفلة ولكن لست بطفلة، وكنت بالفعل متلقية لكرم عميق. لا أريد أن أصبح عالة، وكذلك كلير؛ لم تكن تريد أن تكون مُنقَذَة. بعض اللاجئين الذين كنا نعرفهم اختاروا العكس؛ كانوا يرتدون سراويل ممزقة ولا يرتدون أحذية، لإبراز حاجتهم. لكن كلير لم تكن تريد أن تكون في أدنى درجات التسلسل الهرمي.

كلير تدرك بشكل بدهي، الآثار التي أعقبت الاستعمار، تلك التأثيرات التي تظل قائمة بعد أن يغادر الغرباء، وهم الذين جاؤوا لإنقاذنا، وتنويرنا، وجعلنا حداثيين. المستعمرون، وعمال الإغاثة، والمنظمات غير الحكومية -كلهم صنف واحد: أجانب متعالون، ويفترضون أنهم أذكى وأفضل، ويقدمون هدايا براقة، ولكنها مزعزعة للاستقرار وتؤدي إلى الاعتماد عليهم. كيف يمكن للمرء أن يقبل أي شيء من هؤلاء

المنقذين المزعومين في حين أن أسلافهم ساعدوا شعبك على تدمير بعضهم بعضًا؟

لا يكفي أن يرغب الغرباء في التكفير عن خطاياهم. عليهم أن ينظروا إلى أنفسهم، وإلى تاريخهم وتحيزاتهم، وأن يضعوا خطة لعدم تكرار جرائمهم. عقولنا قابلة للتشكيل. يمكن أن تسيطر عليها الأفكار تدريجيًّا لدرجة عدم إدراكنا أننا فقدنا السيطرة عليها. كان القادة الألمان قد جربوا التكتيكات التي استخدموها في الهولوكوست على اليهود في ناميبيا قبل أربعين عامًا تقريبًا. كان العنف والإهانة ممنهجَيْن. اعتبر أولئك الأوروبيون عرقهم متفوقًا على عرقيات الهيريرو[1] والناما[2]، وأصبحوا بارعين في تقنيات القتل الجماعي: إغلاق منابع المياه في الصحراء، ومخيمات الموت، والسياط.

لكن كلير، المصممة على العودة إلى أمريكا مع والدتي، استخدمت ذكاءها النفسي معي وقدمت حجة مقنعة بأن والدتي كانت هشة جدًّا، وأنها ستشعر بغاية الإرهاق إذا عادت كلير وحدها إلى شيكاجو لجمع المزيد من المال، وترك والدتي لتهاجر إلى الولايات المتحدة بمفردها.

رحلة كلير إلى شيكاجو ستغادر بعد يومين، لذلك أجريت المكالمة. كنت محطمة، ولكن بعد بضع دقائق كان والد تروي يتحدث مع كلير في كيجالي.

أضافوا شركة الطيران للمكالمة. قدمت كلير معلومات والدتي وأختي إلى وكيل التذاكر؛ وقدم والد تروي رقم بطاقته الائتمانية للوكيل.

---

(1) مجموعة عرقية في جنوب إفريقيا، ويقيمون أساسًا في ناميبيا، وهناك عدد قليل منهم في بوتسوانا وأنجولا، ويتحدثون لغة أوتجيهيريرو. (المترجم).

(2) مجموعة عرقية توجد بشكل رئيسي في ناميبيا، وبشكل أقل في جنوب إفريقيا وبوتسوانا، وهم السكان الأصليون في جنوب إفريقيا، ويُعرَفون بتربية الماشية ويتحدثون لغة الناما، وهي معروفة بأصوات النقر المميزة. (المترجم).

بحلول ذلك الوقت، كان الوقت متأخرًا جدًّا في رواندا. في صباح اليوم التالي، أخبرت كلير والدتي أنها حصلت على تذاكر الطيران لها.

سألت والدتي: «من أين أتيت بالمال؟».

قالت كلير: «من الرب».

كنت ما أزال مرعوبة جدًّا من التعامل مع والدتي، لذلك تجنبت شقة كلير.

حاولت والدتي مساعدة كلير في منزلها وفي رعاية أطفالها، لكن كل شيء كان يسير بشكل خاطئ. لم تُعِد والدتي ضبط الوقت وفقًا للفارق بين كيجالي وشيكاجو، لذا بعد يومين من وصولها أيقظت أطفال كلير في منتصف الليل لتجهيزهم للمدرسة.

لم تكن والدتي تتحدث الإنجليزية وأطفال كلير لا يفهمون سوى القليل من اللغة الكينياروندية، لذا كانت تصفق لهم ليذهبوا للاستحمام أو يرتبوا غرفهم، مما كان يثير جنونهم. كانت كلير تشعر وكأنها طفلة أيضًا، كانت والدتي تريد أن تعود كلير تحت جناحها مجددًا: أن تطهو لها، وتدير المنزل.

لم تعد كلير ولا أنا طفلتين منذ فترة طويلة جدًّا. لم تكن كلير تريد أن تُعامَل كطفلة. أرادت أن تجني المال. ضغطت كل منهما على الأخرى حتى انهارت العلاقة بينهما. كانت كلير تطبخ، فتقول والدتي: «لا أحب الدجاج المقلي». أو كانت كلير تفتح خزانتها لتمنح والدتي الملابس فتقول والدتي: «لا أرتدي هذا النوع من القمصان. لا أحب هذه الأحذية». كانت تلك اللحظات الصغيرة تكسر كلير. لم تكن تلك اللحظات تعبر عن لمِّ الشمل الذي توقعته. كانت كلير غالبًا ما تخرج من منزلها وتجلس بجوار بحيرة ميشيغان محاوِلَةً التقاط أنفاسها.

بعد بضعة أشهر، عادت كلير مرة أخرى إلى رواندا لجلب والدي وأشقائي الآخرين. هذه المرة جمعت الكنيسة المال لتذاكر الطيران.

أحضرت كلير والدي معها إلى السفارة الأمريكية في كيجالي. كان محطمًا للغاية، لكنه كان يحتفظ في محفظته بصورة من يوم تسجيل حلقتنا مع أوبرا، وعندما سأله القنصل إذا كان لديه عائلة في الولايات المتحدة، أخرج الصورة التي تضم نفسه، وكلير، وأنا، وأوبرا. كاد القنصل أن يُغمى عليه: «يا إلهي! إنها أوبرا! هل يمكنني أن آخذ نسخة من الصورة؟».

منح القنصل والدي تأشيرة مدتها عشر سنوات.

وصل والداي إلى الولايات المتحدة مهاجرَيْن، وليس لاجئَيْن، مما يعني أن لديهما وطنًا. كان العيش في أمريكا يبدو شيئًا مرموقًا. بالطبع جاءا، لكنهما لم يكونا قادرَيْن حقًّا على غرس نفسيهما، والحفر، وتنمية الجذور والفروع في الماضي والمستقبل ليخلقا حياة كاملة. مثل كلير، لم يتحدث والداي عن الماضي، أو ما حدث بين الماضي والحاضر. كانا يعيشان في حاضر مستمر، لا يسألان الكثير من الأسئلة، ولا يسمحان لمشاعرهما بالظهور، يتحركان للأمام داخل حدود حياة صغيرة ومرتبة. كانا يتوقفان عن الكلام كلما دخلت أنا أو كلير إلى الغرفة. ربما كان هذا أمرًا لا مفر منه .. أن نصبح غريبتين بشكل دائم، بشكل لا يمكن إصلاحه.

كان والدي الآن مريضًا ويدخل ويخرج من المستشفى بسبب مرض السكري. كانت كلير تعيش في شقة تضم ثمانية أشخاص –أسرتنا المباشرة بالإضافة إلى عدة أبناء خؤولة– وكانت هي الوحيدة التي تعمل. كان ذلك على ما يرام، كل شيء كان على ما يرام. في بداية الأسبوع كانت تشتري صندوقًا كبيرًا من الدجاج وكيسًا من الأرز من وورلد

ماركت. كانت الكنيسة تقدم بعض أكياس البقالة من المواد الغذائية الأساسية لتكملة ذلك، وكان الجميع يحاولون جعل الطعام يكفي حتى نهاية الأسبوع.

في عطلات نهاية الأسبوع، في منزل كلير، كنت أرى أختي الصغرى، التي كانت تبلغ من العمر ست سنوات، تقفز إلى حضن والدتي، كما لو بإمكان أي شخص أن يقفز إلى حضن أمه. كانت تتوسل إلى والدتي للحصول على انتباهها، مثل كل الفتيات الصغيرات المحظوظات.

ذات ليلة، جلست إلى طاولة مطبخ كلير لأدرس لامتحان السات[1] (SATs). جلست والدتي، التي كانت تأخذ دروسًا في اللغة الإنجليزية، بجواري لتقوم بواجباتها المنزلية. كانت تلك المرة الأولى التي نكون فيها هادئتين وقريبتين من بعضنا بعضًا منذ أربعة عشر عامًا.

المرة الوحيدة التي حاولت فيها أن أسأل والدتي عما حدث لها خلال الحرب لم تسر على ما يرام. كانت تنظف شقة أختي، وكنت أعتقد أن ذلك سيوفر لها نوعًا من التشتت. يمكنها أن تركز على تنظيف الخزائن، وتحدثني عن حياتها دون حرج النظر إلى وجهي. لكن بمجرد أن قلت: «ماذا حدث...» شعرتُ بالخجل. بدأت أبواب الخزانة تهتز، وأصبحت يدا والدتي مضطربتين ومحاصرتين، أشبه بطائر دخل عبر نافذة ولم يتمكن من الهرب. الآن أدركت أنه كان ينبغي أن أتروى وأفكر في الأمر بشكل أفضل. كلير لم تخبر مارييت سوى القليل جدًا. أي أم يمكنها أن تروي تلك القصة؟ ملامح الألم ليست ثابتة. المعاناة تتسع وتنتشر. ألمنا يبقى في قلوبنا ويمتد إلى قلوب أحبائنا أيضًا.

---

(1) اختبار موحَّد يُستَخدَم على نطاق واسع للقبول في الجامعات في الولايات المتحدة، وهو يقيس استعداد الطلاب للجامعات، ويقيم مهاراتهم في القراءة والكتابة واللغة والرياضيات. صُمِّمَ هذا الاختبار للتنبؤ بإمكانية نجاح الطالب في الكلية، وعلاماته بين 400 – 1600. (المترجم).

لم تعد والدتي تنام كثيرًا بعد الآن. كانت تركز على أطفالها وأحفادها، وعلى عشرات الأطفال الآخرين في الحي. كانت تحتفظ بالقوائم. تتذكر أعياد ميلاد الجميع، وتعطي كل طفل عددًا من الدولارات يساوي عمره. كانت عقوباتها أقل صرامة.

حين كنت أتمرن على اختبارات السات، كانت والدتي مطأطئة رأسها وتدرس كتاب اللغة الإنجليزية، متوقفة ومتفكرة في كل كلمة، وكأنها تخضع لامتحان نهائي. لم يكن لون بشرتها الداكن يتناسب مع لون بشرتي. كان شعرها قصيرًا ومشدودًا على رأسها، كنت أتذكره طويلًا. أظافرها كانت متكسرة. شفاهها متشققة. كانت خرافة لمِّ الشمل كذبة. لا أضواء، ولا زوايا كاميرات، ولا مكياج يمكن أن يعيد الزمن الضائع والعلاقة التي كان يمكن أن نحظى بها. الشيء الوحيد الذي كان يشبه والدتي التي عرفتها وكان متطابقًا مع ذاكرتي هو عظام وجنتيها والمسبحة البيضاء التي كانت ترتديها حول عنقها.

ركضت إلى الحمام وفتحت المياه بأقصى درجة. بعد عشرين دقيقة، طرقت كلير الباب.

قالت بلهجة قاسية: «إنكِ لا تستحمين. لماذا عيناكِ محمرتان؟ هل كنت تبكين؟ ماذا حدث؟».

1997-1996

11

كان بإمكاني رؤية الخوف في وجه كلير. كنا خمسة عشر شخصًا مكتظين في سيارة المُهَرِّب. كان يقود بسرعة جنونية في الظلام دون أنوار، وكنت أشعر بيقين أننا سنصطدم بشجرة. سَمِعَتْ كلير أن بإمكانك كسب المال في كل مكان في جنوب إفريقيا، ويمكنك الحصول على وظيفة، لذلك كنا نهرب من موزمبيق. كنت في الثامنة من عمري، جاثمة على أرضية السيارة. حاولت السيطرة على خوفي بالتركيز على يديَّ. رأيت في خطوط كفي صورة لامرأة عجوز.

أوقف المُهَرِّب السيارة عند كوخ وسط مجموعة من الأشجار وأعطانا لحمًا مجففًا، وخبزًا، وماء. ثم بدأنا المشي عبر محمية طبيعية. كان لون السماء برتقاليًّا، ذلك البرتقالي الذي كنت أكرهه. رأيت فاعي –لم يخبرنا المهرب أن هناك أفاعي.

مشينا لأميال. كلير تحمل مارييت أمامها. افتقدت وزن جسد مارييت. عندما وصلنا أخيرًا إلى سياج كهربائي، وجدنا جزءًا منه قد قُطع من أسفل، فزحفنا من تحته.

كانت تنتظرنا شاحنة على بعد أميال قليلة. جلست الآن على المقعد حاملةً مارييت. بدأت السيارة بالتحرك حتى وصلنا باتجاه الأضواء، تلك الأضواء الصفراء الضئيلة المنبعثة من أعمدة الإنارة والمنازل.

لم أرَ أضواءً متلألئة من بعيد منذ زمن طويل. كل مكان عشنا فيه كان مظلمًا وممزقًا بالحرب. جعلتني الأضواء أفكر في الخبز والمربى، والخبز والزبدة، والبطاطا المقلية. سألت كلير متى سنعود إلى المنزل. رمقتني بنظرة حادة ولم تجب.

كنت أعلم أنها لا تحبني. كنت عبئًا عليها. كنت مرعوبة من أن تتركني خلفها.

بدت جنوب إفريقيا جميلة جدًّا. قضينا الليلة في مبنى مكاتب مهجور احتله الذين فروا من الصراع في زائير.

في نهاية ممر طويل، التقينا امرأة طبخت لنا **أوجالي** وأعارتنا بطانية. صنعتْ دجاجًا لكنها أعطتنا بضع قطع من الأجنحة فقط. كان باقي اللحم والأحشاء مخصصًا للرجال.

في اليوم التالي، خرجت كلير للبحث عن روب. كانت جنوب إفريقيا في حالة من الابتهاج والتوتر، ومفعمة بالفخر. مانديلا رئيسًا. وجدت كلير روب يعيش في إحدى البلدات في مايفيل، ويتقاسم غرفة واحدة مع أربع عائلات. يعمل حلاقًا. كانت هذه هي الحياة.

بصفتنا لاجئين، كان بإمكاننا الذهاب إلى وزارة الداخلية والحصول على تأشيرات لمدة ستة أشهر. كان بالإمكان تكرار ذلك. لم نكن نخشى الاعتقال. لكن كلير أرادت المضي قدمًا. كانت تعتقد أن لدينا فرصًا

أكبر في مدينة دوربان الساحلية التي كانت تتلألأ وتحيطها الشواطئ وأرصفة الميناء.

كانت كلير دائمًا تعلمني: «**كل شيء لك، وكل شيء ليس لك. العالم لا يدين لك بشيء؛ لا أحد يستحق أكثر أو أقل من الآخر**».

حتى وهي لاجئة، كانت تحتفظ دائمًا بزيٍّ واحد أنيق –في البداية كان قميصًا أبيض ناصعًا، وبنطال جينز واسعًا ملائمًا، وحذاءً أسود قصير الكعب؛ ولاحقًا بدلة بنية – حتى تتمكن من تقديم نفسها لأي شخص في أي مكان على أنها شابة ذكية ومجتهدة، لا أكثر. لم تطلب شفقة، ولا إذنًا. كانت حقيقة من حقائق الحياة، وشخصًا مساويًا للآخرين، وليس من شأن أحد أن يعرف المزيد.

كان روتينها في ذلك الوقت وكأنها تحدث نفسها: اخرجي، جِدي شخصًا يتحدث اللغة. ارتدي أفضل ملابسك واطرقي الأبواب طلبًا للفرص، وليس للمال. احصلي على وظيفة، واعملي بجد، ولا تسرقي.

في دوربان، وجدت كلير تنزانيًّا يعرف لغة الزولو، وأقنعته بأن يكون مترجمها. ارتدت قميصها الأبيض. دخلت حيًّا غنيًّا. طرقت أحد الأبواب. عندما فتح رجل الباب، طلبت كلير من مترجمها التنزاني أن يقول له: «أريد وظيفة».

طلب منها الرجل الذي فتح الباب أن تعود في الصباح.

وهكذا فعلت كلير. وصلت في الصباح التالي، مرة أخرى بزيها المعتاد من القميص الأبيض وبنطال الجينز الملائم؛ فأعطتها زوجة الرجل سلة ملابس لتغسلها على يديها. أصبحت كلير الآن خادمة المنزل، مثل الفتيات اللواتي كانت والدتي توظفهن في كيجالي.

كان بإمكان العائلة بسهولة شراء غسالة ملابس، لكن هذا لم يكن العرف هنا، لذا غسلت كلير الملابس على يديها لمدة خمس ساعات

–كان في المنزل خمسة أطفال– ندمت كلير لأنها لم تسمح لوالدتي بتعليمها هذه المهارات البسيطة من قبل. كلير لم تكن بحاجة إليها، كانت ذاهبة إلى جامعة ماكجيل.

والآن، هكذا أصبحت الأمور. لكن المرأة عادت من العمل ودَفعت لكلير جيدًا، وأخبرتها أن تعود بعد ثلاثة أيام.

في هذه الأثناء، كنت أقضي وقتي مع مارييت. كنا نعيش في غرفة في مبنى سكني، وليس في مخيم، لكنني كنت منبوذة. في أحد الأيام، جمَّد أطفال الحي البول وقالوا لي إنه آيس كريم وطلبوا مني أكله.

ألقيت به أرضًا وهربت.

كانت كلير تتظاهر بقراءة الصحف بلغة الزولو في الحافلة حتى لا يظن أحد أنها أجنبية ويضايقها. كنا نذهب إلى كنيسة المعمدانيين. لم تكن كلير تفهم الإنجليزية جيدًا، لكنها كانت تبكي كثيرًا في الكنيسة. كانت تحب الأناشيد والترانيم.

في أحد أيام الأحد، حين كنا نخرج من الكنيسة، رأينا امرأة بيضاء من أصول إفريقية تنظر إلينا. كانت ضخمة، وجميلة، وقوية، وبدينة، وترتدي فستانًا طويلًا يشبه رداء الكاهن.

اقتربت من كلير وسألتها: «لاجئة؟».

قالت كلير: «لاجئة».

قالت المرأة: «نعم».

ردت كلير: «نعم». كانت الإنجليزية لدى كلير محدودة بـ «**نعم**»، و«**لا**»، و«**صباح الخير**»، و«**مساء الخير**». كانت غالبًا تكرر ما يقوله الشخص الآخر فقط. لا أعرف لماذا اختارت هذه المرأة كلير، ولكن بمجرد أن قالت كلير «نعم»، أشارت لنا المرأة أن نتبعها.

كان منزلها على بعد ثلاثة شوارع، مغطى بورق حائط مزخرف بالأزهار، مليء بالأرائك والستائر الزهرية. دخلت وفتحت الثلاجة وبدأت تخرج السمك، واللحم البقري، والدجاج، ولحم الخنزير. وضعت الطعام على الطاولة، مع أطباق ومناديل فاخرة، ثم قدمت لي الآيس كريم بالفانيليا وجلست تشاهدني وأنا آكله. رأت فيَّ الطفلة التي لم يرها أحد آخر.

في الأسبوع التالي، عُدنا أنا وكلير وروب وماربيت إلى الكنيسة وتبعنا المرأة ذات الأصول الإفريقية، ليندا، إلى منزلها مرة أخرى. هذه المرة كانت تفوح من المنزل رائحة الكاري. جلست معنا جميعًا لتناول الطعام. كانت ليندا ضخمة، أما كلير فصغيرة الحجم، فأعطتها ليندا ملء ذراعها ملابسَ، لكنها كانت كلها كبيرة جدًّا على كلير، ولكن ذلك لم يكن مهمًّا. كان الشعور بالراحة وأن هناك من يهتم بنا بمنزلة ارتياح هائل.

في المرة الثالثة التي زرنا فيها ليندا، أشارت إلى صدرها. كانت قد أُصيبت بسرطان الثدي وخضعت لعملية استئصال. أظهرت لنا ندبتها. كانت تشبه خريطة.

بعد ذلك، بدأت الكنيسة تجمع لنا حصة شهرية من الطعام. ساعدتنا ليندا في العثور على شقة صغيرة خاصة بنا وأعطتنا أواني طهي. في اليوم الذي انتقلنا فيه، جاءت ومعها قطعة كبيرة من اللحم المقدد وصنعنا شطائر اللحم مع الطماطم والمايونيز.

شقتنا في الطابق الثالث، على الجانب الآخر من الشارع الذي يحتوي بيت دعارة، وتعلمت عن الجنس من خلال مشاهدة النساء اللاتي كن يعملن هناك. شرحت لي فتاة أكبر سنًّا تعيش في المبنى نفسه ما كان يجري. في أحد الأيام، كانت في شقتنا وقالت لي: «لم تُجربي القُبَلَ مسبقًا. سأقبلك».

قلت لها: «لن أُقبِّل أحدًا على الإطلاق».

كانت الحياة سهلة لفترة من الزمن.. **لا مشي، ولا مخيمات، ولا جرائم قتل**. توقف روب عن عمله حلاقًا وبدأ يعمل في مصنع للنسيج خارج المدينة، مما يعني، ولحسن حظي، أنه كان يغيب عن البيت لمدة أسبوع تقريبًا. حصلت كلير على وظيفة حراسة سيارات الضيوف في فندق فاخر. علمتني الفتيات الأكبر سنًّا في المبنى بعض الكلمات باللغة الزولوية مثل: «**ابتعد عني**»، و«**لا تنظر إليَّ**»، و«**لا تقترب**».

في أحد الأيام، عادت كلير إلى المنزل وقالت: «ضعي المرتبة على الأرض! أنزلي المرتبة!» وضعت المرتبة على الأرض، حيث كنا نسندها على الحائط خلال النهار. بدأت كلير تخرج المال من جيوبها وتقذفه على السرير. قالت: «نحن أثرياء! نحن أثرياء جدًّا! اختاري ما تشائين! سأشتري لكِ ما تريدين».

لعدة أشهر، حين كانت كلير تحتفظ بتلك الوظيفة في مراقبة السيارات، كنت أخبر الجميع كم كنا أثرياء. اشترت لي قميصًا جديدًا وحذاء. اشترت لنا دجاجة كاملة مشوية. اشترت كيسًا من أحشاء الدجاج. في إفريقيا، تُحفَظ الأحشاء للرجال. إذا طهت الزوجة دجاجة وقدمتها دون الاحتفاظ بالأحشاء لزوجها، فقد يتركها زوجها. لكن كلير أرادت تذوق الأحشاء.

أحضرَتْها إلى المنزل وقامت بقليها. كانت تبدو مثل الخصيتين. لكن بالنسبة لكلير كان طعمها يشبه النصر. كانت تتغذى قوةً.

كانت مارييت عالمي كله، كل أيامي، ودميتي الجميلة والمفعمة بالحيوية. كنت أهتم بملابسها حتى يراها الناس ويجدونها لطيفة ويرغبون في حملها. كنت أحوم حولها وأفرط في حمايتها. في أحد الأيام، تركت طبقًا ساخنًا على الأرض، فظنت مارييت أنه كرسي صغير وجلست عليه واحترقت ولكنها كانت ترتدي الحفاضة. شعرت بخزي شديد.

كنت أريد أمًّا، ويفضل أن تكون ليندا. في أحد الأيام، أخذتني لتسجيلي في مدرسة. وعدتني أنها ستجد شخصًا يعتني بمارييت حتى أكون متفرغة في أثناء النهار. حينما كانت تملأ الأوراق، أخبرها مدير المدرسة أنني بحاجة إلى إجراء فحص السُّلّ. كنت أسعل كثيرًا. أخذتني ليندا إلى المستشفى. كنت مصابة وكان عليَّ أن أُحجر صحيًّا.

المستشفى يخيفني لكنه جعلني أشعر بأنني مهمة ومدللة. كان لدي سريري الخاص. جلبت لي ليندا الزهور. في أحد الأيام، أيقظتني ممرضة ودفعوني على كرسي متحرك إلى غرفة ذات نوافذ ضخمة يمكنني من خلالها رؤية المحيط كله. كانوا يقدمون لنا الكاسترد، كما كانوا يطعموننا الأرز بالحليب. وعن الغداء، سألتني الممرضة: «هل تريدين الجيلي؟ هل تريدين الفاصوليا الخضراء؟».

دخلت ليندا في أحد الأيام ومعها حقيبة صغيرة وعلبة أقلام مكتوب عليها اسمي بالتطريز. قالت: «يمكنكِ أن تبدئي دراستك هنا. يمكنكِ أن تتعلمي الكتابة هنا».

بعد خروجي من المشفى، انتقلنا مرة أخرى، لنكون أقرب إلى مصنع النسيج حيث كان يعمل روب، هذه المرة في أحد الأحياء الفقيرة على بعد بضعة أميال من دوربان، بين صفوف من البيوت الصغيرة التي كانت متشابهة كلها. انتُخِبَ مانديلا قبل ثلاث سنوات فقط وكان يعطي البلاد شعورًا عارمًا بالفخر. كانت الموسيقى تصدح في الحي الفقير طوال الوقت: الهيب هوب، والبيجي، وبابا ويمبا، وتوباك، وبريندا فاسي. كنت أعمل بجد لتعلم جميع الكلمات الزولوية لأغاني

بريندا فاسي. «**افتحوا البوابات، يا سيدة النميمة، طفلي الصغير سيتزوج اليوم**[1]».

فشلت خطة التحاقي بالمدرسة. في هذا الحي، كان عليَّ أن أعتني بمارييت. في الصباح، كنت أربط مارييت على ظهري وأراقب جميع الأطفال الآخرين وهم يذهبون إلى المدرسة. وفي المساء، كنت أراقب الرجال وهم يعودون إلى منازلهم بعد العمل. كانت الحافلة تنقل الركاب وتنزلهم على بعد مسافة قصيرة من أسفل التل. كان هناك رجل طويل وضخم، تمامًا مثل والدي، وكان يرتدي القبعة ذاتها. كنت أشاهده يوميًّا.

كانت لغة الزولو صعبة للغاية. كانت تتضمن أصواتًا ونقرات لم أقم بها من قبل، وكانت تتطلب استخدام أجزاء من فمي لم أستخدمها مطلقًا. بالكاد نطقت كلمة واحدة بصوت عالٍ بعد عدة أشهر. ثم في أحد الأيام، اقتربت من فتاة كنت أعرف أنها ابنة الرجل الطويل والضخم الذي كنت أشاهده يوميًّا وهو عائدٌ من العمل. كنت متحمسة جدًّا إلى أن تكون لي صديقة هنا، إلى الاندماج في العالم العادي. تخلَّيت عن تصرفات «الفتاة الناجية» لفترة كافية لأقول لها، بلغة الزولو وبعد تردد: «أبوكِ يشبه أبي». فقدت الفتاة أعصابها. لم أفهم السبب.

أدركت لاحقًا أنني قلت لها: «أبوكِ هو أبي». حاولت أن أشرح لها، لكن الأوان كان قد فات.

فقدت كلير وظيفتها في مراقبة السيارات، لكنها بدأت بشراء الملابس بالجملة، فكانت تشتري قمصان كرة القدم بخمسة وعشرين

(1) مقطع من أغنية بلغة الزولو بعُنوان: Vulindlela؛ أي افتحوا البوابات. اشتهرت الأغنية وأصبحت تقليدًا للاحتفال، فتُعزَف غالبًا في حفلات الزفاف والمناسبات الاحتفالية الأخرى. (المترجم).

راندًا وتعيد بيعها في صالونات الحلاقة بخمسين. كانت تفعل الشيء نفسه مع بناطيل الجينز.

كانت ما تزال تعمل خادمةً أيضًا. في بعض الأيام كنت أذهب معها. كنا نبدأ بغسل الملابس، ثم نكنس، ثم نكوي، وماربيت مربوطة على ظهري أو ظهرها. لم نكن نعمل في الخارج قط. لم يكن السود في جنوب إفريقيا يريدون خادمات وخدمًا بعد الآن، ولم يرغبوا في أن يقوم المهاجرون السود بهذه الوظائف أيضًا. كنا سنتعرض للسخرية في الحافلة وفي الحي الفقير لو رأونا نؤدي تلك المهام.

كل يوم، كنا ننظف غرفة المعيشة في الوقت الذي كانت فيه أوبرا تعرض برنامجها على التلفاز. كانت أوبرا بمنزلة إلهة بالنسبة لي. كان لديها العديد من الأرائك المختلفة. كانت ترتدي ملابس جديدة في كل مرة تظهر فيها. لم أفهم ما تقوله، لكنني كنت أحب الطريقة التي كانت تدخل بها إلى الجمهور، وأحببت الطريقة التي كانت تجلس بها بحماس، واهتمام، وفرح، وغضب، وتضامن، وتشكك، وكل ما كانت بحاجة إلى استحضاره. لم أعلم أن أي شخص يمكنه أن يجلس بهذه الروعة.

كانت كلير تراقب أوبرا لكنها لم تكن تعبدها. كانت تقسم أنها ستلتقيها يومًا ما. كانت كلير تقول: «أوبرا تأكل، وأوبرا تنام. وأنا أيضًا».

لم أفهم ثقة كلير. كانت قيمتي الذاتية متعلقة جدًّا بعلاقاتي بالآخرين. كان عملي حين كنا نشاهد أوبرا أن أُلَمِّع طاولة الكوكتيل، وكنت أرغب في الحصول على تقدير مثالي. كنت أريد أن يدخل صاحب المنزل، ويلاحظ لمعان الطاولة، ويقول: «**زيكومو! زيكومو!**» (شكرًا جزيلًا لك!).

كنت أشعر أنني ضائعة في هذا العالم، معظم الوقت، خارج أي فئة أعرفها أو أرغب في أن أتعلق بها لأعرف من أكون. لم أكن أنا وكلير وروب وماربيت العائلة المثالية في نظر أحد، حتى في نظري.

ثم حملت كلير مرة أخرى، وكانت ردة فعل روب إزاء هذا الخبر هي أن يقنعها بالعودة إلى رواندا معي، لكن ليس معه، للبحث عن والدينا.

كنت أكره هذه الفكرة. كنا بأمان هنا. كنا نستطيع تجديد تأشيراتنا باستمرار. لم تكن لدينا أوراق للسفر إلى الخارج. لماذا نغادر مرة أخرى باختيارنا! ليس فقط إلى رواندا ولكن عبر دول مدمرة واحدة تلو الأخرى؟ بالإضافة إلى ذلك، كنت أظن أن والدينا قد ماتا. لم نسمع منهما شيئًا منذ زمن طويل. في رأسي، كانا قد رحلا.

حاول روب إقناعنا: «لا تقلقي يا كلير. رواندا بخير. لن يؤذوا امرأة حاملًا».

لم تكن كلير تريد الذهاب أيضًا. كانت لدينا حياة مستقرة هنا، وأحيانًا غنية أيضًا! لكن كلير، رغم كل مواردها وقدرتها، كانت ما تزال في السابعة عشرة من عمرها. لم تكن تسمح للغرباء قط بالحط من شأنها، لكنها كانت تعتقد أنها يجب أن تفعل ما يريده زوجها. هذا هو ما تربينا عليه. كان روب طاغية، وكانت كلير تعرف ذلك. لكنها كانت تعتقد أنها يجب أن تطيعه على أي حال.

كنت أريد البقاء مع ليندا، ويفضل أن يكون ذلك باعتباري طفلتها بالتبني، لكن كلير كانت تحتاجني لرعاية مارييت.

كنت في العاشرة من عمري. أعلم الكثير، وكان ذلك العلم ثقيلًا، كالبطانية المغموسة في المياه الموحلة. من قبل، لا أعلم ما ينطوي عليه القتل –لا أعرف حتى ما يعنيه. لكنني الآن رأيته، شعرت به. وكان أسوأ بكثير من العنف الذي رسمه بودي في ذهني خلال تلك السنوات الماضية كلها من خلال رسومات **رامبو**.

ركبت أنا وكلير ومارييت حافلة باتجاه الشمال إلى الغابة، عائدين إلى الجحيم، وتسلقنا السياج الحدودي الكهربائي.

2008-2007

12

في أحد أيام الأحد، وفي أثناء وجودي في شيكاجو، في شقة كلير، انشغلت بتصفيف شعر مارييت.

كانت والدتي تطبخ الثوم، والبصل، واللحم، والأرز– وتحاول الدندنة مع أغنية على الراديو لم تكن تعرفها. تكاثف البخار تحت السقف المنخفض مما جعل النوافذ تتغطى بالضباب.

قالت مارييت: «آه! خالتي، إنكِ تؤلمينني!». لكن كل ما استطعت التفكير فيه هو **أنكِ لا تعرفين ما هو الألم الحقيقي**.

قلتُ لها: «أنا آسفة»، ووعدتها بألَّا أؤلمها مجددًا. سرحت بأفكاري إلى الكلية، والمنح الدراسية، والمال، محاوِلَةً الوصول إلى مكان في الحياة أشعر فيه بالراحة. استمرت والدتي بالدندنة. بدا صوتها غير مألوف.

شعرت بالبرد رغم البخار وحرارة الموقد، فطلبت من ميشيل، أصغر أبناء كلير: «ميلو، هل يمكنك إحضار بطانية مايلي سايرس الناعمة لي؟».

نظرت إليَّ ميشيل بازدراء. كانت مرتاحة آنذاك وهي تتابع **إلواز**[1]. وجدتُ تعلقها بالراحة مبالغًا فيه.

عندما نهَضَتْ أخيرًا، قالت: «أريد أن أكون مثل إلواز. أخدع الناس وأتحدث إلى أمي بالفرنسية».

ضحكتُ –كم كان الأمر لطيفًا! ثم سحقت ماربيت، التي تكبر ميشيل بخمس سنوات، حلمها قائلة: «أنا آسفة جدًّا لإخبارك ذلك، ولكنّكِ عالقة هنا معنا ولن يحدث ذلك أبدًا».

بدأت ميشيل في البكاء. ربَّتتُ على رأسها وهمست في أذنها: «لا تستمعي إلى ماربيت. يمكنكِ أن تعيشي مثل إلواز إن أردتِ».

من أصعب المفارقات التي واجهتها هي تلك التي تفصل بين المجتمعات الإفريقية والأمريكية الإفريقية. بالطبع كنتُ إفريقية، ذات بشرة داكنة، وأعيش في أمريكا –وتحديدًا في ولاية إلينوي، في قلب البلاد. لكن لم يكن لي أي تاريخ شخصي مع الأمريكيين البيض. لم يستعبدني أنا أو عائلتي أحدٌ. لم يمنعنا أي مصرفي أبيض من شراء منزل. كان مجتمعي في إحدى الضواحي التي يقطنها البيض سخيًّا للغاية معي.

---

(1) هي رسوم متحركة للأطفال مستوحاة من شخصية إلواز من سلسلة الكتب الكلاسيكية للكاتب كاي تومسون. إلواز فتاة مفعمة بالحيوية ولكنها مؤذية، وتبلغ من العمر ست سنوات، وتعيش في فندق بلازا في نيويورك مع مربيتها. تصور الرسوم مغامراتها وتصرفاتها المرحة وهي تتنقل في الفندق الكبير. (المترجم).

وفي الوقت نفسه، كانت مارييت، وفريدي، وميشيل يعيشون في عالم مختلف تمامًا. كانوا يكبرون في منطقة إدجووتر، في مساكن عامة. التقطوا لغة الشارع وأسلوب أصدقائهم السود في المدرسة، وخلطوها مع اللغة السواحيلية أو الكينياروانديه التي تعلموها في المنزل. حتى كلير كانت تشعر بالألفة والسلاسة مع الثقافة الأمريكية الإفريقية التي كنت أفتقر إليها. كانت ترتدي أحيانًا سترة من تصميم ميسي إليوت؛ وفي أحيان أخرى، كانت ترتدي ثوبًا إفريقيًّا مزركشًا رائعًا، مع لفَّة رأس متناسقة. كانت تفهم جيدًا حياة جيرانها الذين عاشوا أجيالًا في نظامٍ سلَبَهم إنسانيتهم وسرقهم. كنت أعيش من الاثنين إلى الجمعة في منزل ذي حديقة مشذبة ومرأب منفصل. كنت أرتدي قمصانًا بماركة بولو وأزياء جي. كرو. وكان زملائي في المدرسة يسألونني عن عطلات نهاية الأسبوع التي أقضيها في «المدينة الداخلية» الغريبة. كانوا دائمًا يطلقون عليها هذا الاسم –المدينة الداخلية. لم يكن أحد ممن أعرفهم يعيش في المدينة الداخلية. كانوا يعيشون على أطراف المدينة.

كتبت توني موريسون عن السود في أمريكا متسائلة السؤال الذي كان يُعَرِّفُ حياتي كلها: **كيف أنجو؟**(**How do I survive?**) في كل شخص التقيته، وكل فقرة قرأتها، هذا ما أردت معرفته: **كيف تبقى على قيد الحياة؟** وصفت القوة التي كنت أبحث عنها؛ أطلقت عليها «القوة في الدم». كتابها **اللعب في الظلام: بياض البشرة والخيال الأدبي**(**Playing in the Dark: Whiteness and the Literary Imagination**) ليس المفضل لدي من بين كتبها– **العين الأشد زرقةً** (**The Bluest Eye**) هو المفضل– لكنه ساعدني على فهم كيفية اعتماد القصص الأمريكية التي يكتبها البيض على افتراضات معينة حول الشخصيات السوداء. معظم الأشخاص السود الذين درسنا حولهم

في المدرسة كانوا قد ماتوا. كانوا قد خاضوا حربًا لم تخصني. ذات يوم، أحضرت إلى المنزل كتاب **السيرة الذاتية لمالكوم إكس** من المدرسة. كانت السيدة توماس في المطبخ تطبخ الفاصوليا السوداء. نظرت إليَّ بابتسامة وقالت: «السواد جميل». هزَّتْ مكونات هويتي في رأسي مثل العملات المعدنية.

أدركتُ حينها أنني أتمتع بامتيازات. بدأت أنسى ما كان عليه الأمر عندما كنت أعاني، وعندما كنت أقلق بشأن الاحتياجات الأساسية. كان لديَّ وقت للتفكير، ووقت للإبداع. عملت بجد على تقصير وتمزيق سروالي الجينز، حتى يبدو مثل سروال بريتني سبيرز. اشتريت جاكيتات قديمة وخيَّطت قطعًا من ملابس مختلفة معًا. سجلت في دورة عرض الأزياء لدى جون روبرت باورز.

لم تكن السيدة توماس سعيدة بتسجيلي في هذه الدورة. كانت الدروس تُعقد بالقرب من المطار. استقللت ثلاثة قطارات للوصول إلى هناك. مقابل سعر مخفض من حصتين مجانيتين ثم برسوم مبالغ فيها، علَّمنا جون روبرت باورز نحن الفتيات المهاجرات كيف نضع المكياج، وكيف نبتسم بأعيننا، وكيف نمشي لبيع زوج من السراويل، وكيف نمشي لبيع فستان، وماذا نضع في سيرتنا الذاتية عندما نجلس لإجراء مقابلة عمل، وأهمية ارتداء الملابس الداخلية بلون البشرة في جلسات التصوير.

كان ذلك في عصر أبركرومبي آند فيتش (Abercrombie & Fitch). كل الفتيات في المدرسة كن يرتدين أبركرومبي آند فيتش. كنت أرتديه أيضًا، وكنت أرغب في رؤية شخص يشبهني في كتالوجاتهم. لم أكن أرى نفسي في أي مكان.

في جون روبرت باورز، أخبرنا المدرسون، نحن الفتيات المهاجرات، عن الخيارات المتاحة لنا في مجال عرض الأزياء بناءً على الطول، والوزن، وشكل الجسم، ولون البشرة، ومظهر اليدين، والرقبة. قالوا لنا إن علينا قياس أنفسنا كل شهر لأنه إذا كانت سيرتك الذاتية تقول إن طولك 4 أقدام ووصلتِ إلى جلسة التصوير فكان طولك 6 أقدام، سيشعر الناس بالاستياء. فكرة قياس نفسي كانت تزعجني، لكنني كنت أرغب بشدة في أن يُعترف بي. كنت أريد أن يُنظَرَ إليَّ وأتلقى أجرًا. كنت أرغب في دخول غرفة والسيطرة على المكان.

كانت في صفي لاعبة كرة طائرة روسية طويلة القامة وذات بنية عضلية وشعر أشقر مستعار -كانت تريد العمل عارضةَ أزياء رياضية- وكانت هناك فتاة أوكرانية نحيلة للغاية بشعر قصير من موضة البيكسي. الأوكرانية كان تتمتع بأفضل الفرص. أما نحن الباقيات، فقد قيل لنا: «**يمكنكن القيام بإعلانات تجارية. يمكنكن العمل في وول مارت. يمكنكن بيع العطور في المتاجر الكبرى**».

استمررت في أخذ الدروس حتى اليوم الذي تأنقت فيه وركبت الحافلة إلى غرفة الملابس لجلسة تصوير. لمدة عشرين دقيقة شعرت أنني براقة، مثل النساء في كتيبات الموضة التي كانت السيدة توماس تتلقاها من نيمان ماركوس. ثم أُخبرت أن تكلفة كل صورة بحجم «5 × 8» هي 100 دولار، شعرت أنهم كانوا يستغلونني، وغادرت دون أن يُدفَع لي.

دعاني متحف ذكرى الهولوكوست في الولايات المتحدة، في الغرب الأوسط، إلى حفل غداء أقاموه لأوبرا. قرأت مقالتي عن إيلي فيزيل الخاصة ببرنامج أوبرا أمام مجموعة مكونة من ثلاثة آلاف شخص.

بدأ العديد من الغرباء بالاتصال بي، راغبين أن أتحدث في فعالياتهم لجمع التبرعات، ولأكون جزءًا من قصصهم.

شعرت بالغرابة والمكافأة في الوقت ذاته حين أصبحت شخصية مفيدة بهذا القدر. كنت قادرة على الربط بين الهولوكوست وجميع الإبادات الجماعية الأخرى حول العالم. عندما كنت أتحدث، كنت أجعل الناس يشعرون وكأنهم يهتمون ويستمعون، ومع ذلك، حتى ألطف الأشخاص وأصحاب النوايا الطيبة نادرًا ما أفسحوا مجالًا في عقولهم للشخصية التي كنت عليها حقًّا.

كان الجميع دائمًا شديدي الأدب معي، لكن تحت هذه المجاملات الدقيقة، كنت أعلم أنني كُلِّفتُ بمهمة. **من فضلك، تبني هذه الهوية: الناجية المميزة من الإبادة الجماعية التي ظهرت في عرض أوبرا؛ الابنة التي عُثِرَ عليها وأصبحت ناجحة.** في تلك السردية، تلك القصة الخيالية الرائعة، كنت الطفلة الذكية التي جعلت العرابة الجنية تعيد والديها إلى الحياة. كان من المفترض أن أشغل هذا الدور في العرض وفي عقول المشاهدين. كنت متواطئة. كان لقب «فتاة أوبرا» يأتي مع قصة درامية، ونهاية سعيدة، وزيٍّ ساحر. في البداية، كنت أوافق.

عملت من كثب مع هاربو، شركة الإنتاج التي أسستها أوبرا. بعد الغداء مع فيزيل، أتتني دعوات أخرى للتحدث، وكانت محاضراتي ساحرة. في نهاية كل واحدة، كان الناس يبكون. لكنهم لم يفهموا شيئًا –أبسط الأشياء على الإطلاق، إنني لست مميزة. هناك الكثيرون مثلي، الآلاف، بل الملايين. لست سوى تلك التي صادفوها واقفة في الغرفة. كنت أرغب في قول: «**لا تبكوا من أجلي، ابكوا من أجلهم. ستحتاجون إلى مائة حياة لتبكوا عليهما جميعًا**».

لكنني، مع ذلك، وقفت لالتقاط الصور. تركت الناس يأخذون يدي بين أيديهم. شكروني على مشاركتي قصتي .. قصتي الحزينة والمروعة والملهمة. كنت أبتسم. كنت أبتسم دائمًا. لكن في داخلي كنت أقول لنفسي: «**ليس لديكم أدنى فكرة. لقد شاركت معكم ثانية واحدة فقط من حياتي. لست الطفلة المسكينة التي تظنون أنني إياها**».

كانت طلبات القبول الجامعي تسأل: «كم يجني والداك؟». وكنت أفكر: «**أي والدين؟**».

هل لديك أفراد من العائلة قاتلوا في الحرب الأهلية؟ **أي حرب أهلية؟**

ضحك مستشار مدرستي الثانوية عندما أريته قائمة الجامعات التي أريد التقديم إليها: برينستون، وييل، وجورجتاون. كان يعتقد أنني أطمح إلى ما هو أبعد من قدراتي. الجميع كانوا يعتقدون ذلك. كنت سيئة في اختبارات القدرات. علاماتي كانت متقلبة. كانت والدتي تنظف الحمامات في مطار أوهير. المستشار كان يعتقد أن عليَّ التقدبم إلى كلية ليك فوريست وويليام آند ماري.

لذا فعلت. قدمت إلى تلك الجامعات، بالإضافة إلى جميع الجامعات التي كانت في قائمتي الخاصة. وبفضل برنامج فافسا (FAFSA) المجاني للمساعدات الفيدرالية للطلاب، لم أكن أنفق سوى على طوابع البريد.

كنت قلقة للغاية بشأن مغادرة عالمي في شيكاجو –لتجنب والديَّ، وكلير. كانت كلير الشخص الذي يعرف كل شيء، ومع ذلك، عندما كنت أسمعها تتحدث عن حياتها، كنت أشعر أنني غير موجودة. كنت أشعر أنني غير مُقَدَّرة، بل أكاد أكون ممحوة، حين تسرد حياة أطفالها وكيف تربوا. كنت أظن أنه إذا هربت من عائلتي، يمكنني حينها أن أختبئ من

بعض الآلام، وأصل إلى مكان أشعر فيه أنني أنتمي إليه. لم يكن أي مكان في حياتي يبدو صحيحًا، لذا واصلت التنقل.

في ذلك الخريف، شاركت في مسيرة عيد الشكر لمتاجر ميسي. كنت قائدة فريقي في معسكر الرقص، وبسبب ذلك دُعِيتُ للمشاركة في المسيرة. طلبت السيدة توماس لي الزي الكامل باللون الأصفر الخردلي –والتنورة، والسترة، والحذاء، والقفازات البيضاء. كان من المفترض أن أرتدي جوارب بلون البشرة. لم نتمكن من العثور على اللون المناسب. اشتريت لونًا فاتحًا جدًّا وصبغتُه بنفسي.

بحلول الربيع، وصلتني الأخبار: وُضِعتُ في قائمة الانتظار في جامعة ييل. كنت أعرف بحلول ذلك الوقت أن هناك الكثير من درجات السلم، وأنه يمكنني صعودها إذا كنت صبورة، وراقبت الأشخاص المناسبين، وحركاتهم، وقلدت محادثاتهم.

عرفت أيضًا قوة قصتي. لذلك عندما قال مكتب القبول إن هناك فرصة لي في الانتقال من قائمة الانتظار إذا عرفوا المزيد عن وضعي، سافرت إلى نيو هافن. قضيت اليوم في سلسلة من المقابلات، تحدثت في البداية عن هابيتات فور هيومانيتي[1]، ثم ناقشتُ كتاب **الكافرة**(. **Infidel**)، الذي كتبته امرأة صومالية تدعى آيان هرسي علي (Hirsi Ali Ayaan) والتي عملت في البرلمان الهولندي. كنت قد قرأت الكتاب للتو. كانت قصة علي الشخصية وحشية للغاية، ومع ذلك نموذجية جدًّا بالنسبة لفتاة صومالية خُتِنَت، وأجبرت على الزواج. وعندما كبرت، رفضت إيمانها الإسلامي وكتبت نقدًا نسويًّا لاذعًا للثقافة الإسلامية. ثم

(1) Habitat for Humanity منظمة عالمية غير ربحية تساعد في بناء منازل بأسعار معقولة للأشخاص المحتاجين. (المترجم).

أخيرًا أفصحتُ عن رأيي وقلت لعميد القبول إنني أعتقد أن أنتمي إلى هذا المكان، في جامعة ييل، بين قادة المستقبل في العالم.

كل شيء كان عشوائيًّا جدًّا: **يجب أن تُقتل، ويجب أن تقف في طابور الطعام لمدة سبع ساعات، ويجب أن تتلقى تعليمًا رائعًا وتُغمَر بالمديح والثناء.**

قلت للعميد إنه إذا أراد الناس في ييل أن يجعلوا العالم مكانًا أفضل، يمكنني أن أخبرهم بما يجب إصلاحه.

بعد أسبوع، اتصل العميد وقال لي: «لدي أخبار جيدة وأخرى ليست كذلك. الخبر الجيد هو أنكِ قُبلتِ في ييل. لكن الخبر السيئ...» أخذت شهيقًا. ولكنه أكمل: «عندما نظرنا إلى كتاباتكِ بشكل خاص، أعتقد أنه يمكنك الاستفادة من المزيد من الدروس لمساعدتكِ في التعامل مع الكتابة وأعباء العمل».

قلت متحمسة: «نعم، سآخذ دروسًا. في الحقيقة، أخذت دروسًا في الكتابة هذا الصيف».

أوقفني العميد قليلًا وقال: «ربما عليك القيام بالمزيد قليلًا. الأمر الذي نتحدث عنه هو ربما أخذ دروس كتابة في جامعة نورث وسترن لعدة فصول دراسية. أو كنت أتحدث للتو مع شخص من مدرسة داخلية تسمى هوتشكيس وأرسلتُ بنفسي طلبك لهم. سيكونون مهتمين جدًّا بوجودكِ هناك».

شعرت وكأنني أدور وأتضاءل، مثل بالون يفقد الهواء. هل يجب عليَّ البقاء في المدرسة الثانوية؟ كنت في العشرين من عمري. لقد انتهيت منها. كانت استجابتي العاطفية الأولى سخيفة للغاية: **مستحيل، لا أريد فعل ذلك.** لكنني تمالكت نفسي. كان هذا هو أصعب تحدٍّ مُترَفٍ يمكن تخيله.

1998

13

رأيتُ أبًا في الحافلة المتجهة إلى حدود موزمبيق يشرب الفانتا مع ابنته. رغبت بشدة أن أكون تلك الفتاة، أن أشرب الصودا بشكل عادي في رحلة مع أحد الوالدين، رغم أنني لم أعد أتخيل أن يكون هناك لقاء حقيقي إذا عدنا إلى كيجالي. كان كل شيء في جسدي مختلفًا. كنت في التاسعة من عمري. فقدت معظم أسناني اللبنية ونمت لدي أسنان جديدة. كانت لدي عضلات، وأصبح لديَّ ندوب.

رفضت الجلوس بجوار كلير. كانت هي أيضًا سعيدة بالقدر ذاته بعدم الجلوس بجواري على أي حال. كانت تكره تذمري وشعوري بالشفقة على نفسي. حين كنت أهدهد مارييت على حضني في الجزء الخلفي من الحافلة، جلست كلير، وهي في شهرها الخامس من الحمل، بالقرب من السائق على مقعد قابل للطي. الحافلة مكتظة بالناس والحقائب، كل بوصة مربعة مشغولة، وكأنها غواصة في محيط بري

من الغبار، والمزارع، وأشجار الدفلى، ونبات الصبار، ونبات الحشف، وأشجار النخيل. الشيء الوحيد الذي واساني في رحلتنا شمالًا عبر شرق إفريقيا هو أننا سنمر بزائير. كانت زائير المكان الوحيد، بخلاف جنوب إفريقيا، الذي شعرت فيه بالترحيب، البلد الآخر الذي كان لدينا فيه ما يشبه الأسرة، حيث كانت ست نساء يجلبن لي فساتين مكوية بالفعل للكنيسة.

لكن عندما وصلنا، لم يكن هناك شيء كما كان. لقد دمرت الحرب كازيميا. بدت المدينة وكأنها قد سويت بالأرض وتغطت بالرماد، كما لو أن طفلًا ركل وأحرق مدينة من الليجو. كان لون البحيرة ما يزال أزرق عميقًا، وكانت أشجار النخيل القديمة ما تزال شامخة. كانت بعض الأزهار البريئة تتفتح. كانت عائلة روب متجمعة في بيت خاله، جَوْعَى. بدلًا من أن يستقبلونا باليخنة والسمك، قدموا لنا أوراق البطاطا الحلوة، مقطعة إلى شرائح ومسلوقة، بلا زيت أو ملح. شعرت بالإرهاق والاكتئاب الشديديْن. هل تركنا جنوب إفريقيا من أجل هذا؟ عندما كنا في زائير آخر مرة، كان الناس يقدمون أوراق البطاطا الحلوة للخنازير فقط.

كنا قد رحلنا منذ ثلاث سنوات.

الحياة مُحِيَت. قُطِعَت الكهرباء. جفت العديد من مضخات المياه. لم يكن بإمكانك الصيد من الشاطئ، أو في البحيرة باستخدام قارب، ولم يكن بإمكانك الجلوس على الصخور بعد الغسيل.. فالجنود لم يسمحوا بذلك. كان هناك حظر تجول يمنع أي شخص من مغادرة المنزل بعد الساعة الخامسة مساء وقبل الساعة السابعة صباحًا، لذلك لم يكن بإمكانك الخروج في الوقت المناسب لصيد السمك على أي حال.

السباحة وقت الكسل في فترة ما بعد الظهيرة، والملابس الأنيقة التي كنا نرتديها مساء الجمعة، والرقص السخيف أمام التلفاز في الفناء.. كل تلك المظاهر في زائير قد اختفت. أصبحت البلاد تسمى الآن جمهورية الكونجو الديمقراطية. كان هناك العديد من الجنود من دول عديدة. كنا ننام ونعيش في ساحة معركة، ضباب من العنف لا يعرف اتجاهًا ولا هدفًا.

هناك تعبير باللغة السواحيلية: «**فيتا ني مويسي -الحرب سارقة**». كان تدمير هذا المكان وقحًا. كانت الجثث ملقاة في الشوارع. كان الجيران المصدومون ينظرون إليها. القنابل كانت تنفجر بلا نمط واضح. الأطفال كانوا يموتون جوعًا. كل مخاوفي أصبحت حقيقة.

كنا جميعًا نعرف الروتين: **إذا سمعت انفجارًا، اركض بأسرع ما تستطيع، ازحف تحت السرير، أغمض عينيك، وصلِّ إلى الرب.** عرفنا جميعًا كل شق في الأرض، وكل صرير في كل زنبرك، وأين تبرز الأسلاك التي قد تفقأ عينيك من مقدمة السرير.

في إحدى الأمسيات، نظرت إلى إستيان، ابن خال روب. كان يختبئ معي تحت الفراش، متكورًا ويبكي.

سأل أخته التي كانت معنا أيضًا: «هل سنموت؟».

أجابته: «كلَّا، لن يموت أيٌّ منا. علينا فقط أن نصلي حتى يرسل الرب ملائكة لتحمينا».

لا أومن بالملائكة.

في أحد الأيام، أرسلتني ماما نيبيلي، مع دينا، ومواسيتي، والأطفال الآخرين الذين يعيشون في المنزل إلى المضخة. كنا بحاجة إلى الماء، لم يكن لدينا خيار. أرسلتنا معًا في مجموعة، ليمنع بعضنا بعضًا من ارتكاب خطأ بسيط قد يكون قاتلًا.

مشينا لمدة عشرين دقيقة، وكل منا يحمل حاويتين سعة كل واحدة عشرون لترًا، ووصلنا لنجد اثني عشر شخصًا يقفون في طابور ويتجادلون مع جندي قال إنه سيغلق المضخة لهذا اليوم. كان علينا أن نأخذ حاوياتنا الضخمة إلى مكان آخر.

لذلك عدنا وسرنا ساعة أخرى صعودًا وهبوطًا على التلال إلى وادٍ آخر بجوار البحيرة. كان في هذا الوادي منزل كبير مزود بمياه جارية. قال لنا الحارس أمام المنزل إنه علينا إحضار الحجارة له مقابل ملء دلائنا. وأشار إلى كوخ حجري كبير لم يكتمل بناؤه بعد.

مشطنا شاطئ البحيرة بحثًا عن حجارة كبيرة. ربطت مواسيتي حجرًا ضخمًا بحجم بطيخة كبيرة خلف وركها بقطعة قماش كيتينجي. كانت تبلغ من العمر ثلاثة عشر عامًا، وهي قوية العضلات، وواثقة مثل حصان سباق في الحلبة. كان يمكنك رؤية قوتها المكبوتة.

هذا هو الشيء الوحيد الذي عرفته مواسيتي. كان هذا عالمها كله. كانت طافحة بالكبرياء –الكبرياء المتحدي، وكأنها وقعت في فخ ولكنها ما زالت واقفة في مكانها وتقول إنه لا يوجد شيء أفضل من هذا. كان حبها لمنزلها غير قابل للزعزعة. في المقابل، كان باتريك، البالغ من العمر خمس سنوات، ما يزال يريد أن يُعامَل كطفل. اختار حجرًا بحجم جوزة الهند وظل متجهمًا طوال الطريق إلى المضخة.

كان الجندي يحدق إلينا ونحن نملأ حاوياتنا بالماء –ملأت حاويتيَّ حتى النصف فقط. ثم بدأنا المسير الطويل صعودًا إلى أعلى التل. بحلول ذلك الوقت كان الوقت قد دخل في فترة ما بعد الظهيرة. حملت حاوية الماء على رأسي. مشينا في صمت. كانت الشوارع هادئة جدًّا. السوق كانت هادئة جدًّا.

مع اقتراب الشمس من المغيب، أصبحت مرهقة جدًّا لدرجة أنني لم أعد أستطيع اللحاق بالآخرين. فرغت ربع الماء من إحدى الحاويتين لأتمكن من التحرك بسرعة أكبر. كان الخوف يعقد جسدي كله في عقدة خلف عمودي الفقري. كان الظلام قد بدأ يحل. إذا بقينا في الخارج بعد الساعة الخامسة مساء، فلن يحمينا أحد.

تحدثت النساء الأكبر سنًّا. سمعتهن يتحدثن عن الأشياء التي يفعلنها للنساء. سمعتهن يقلن: **إذا كنتِ فتاة، فسُتَرغَمين يومًا ما على أن تكوني الضحية، وسيتعين على الفتيات الأخريات المشاهدة.**

كان هناك كاهن يعيش بجوارنا -كاهن أبيض، وكان الناس يأتون من كل مكان إلى بيته، على أمل أن يطرد الشيطان. كانت الطوابير تطول يومًا بعد يوم. الناس يصرخون ويبكون ويغمى عليهم وهم يقفون لساعات في الشمس الاستوائية. طرق بعض المتوسلين بابنا، وطلبوا لقمة طعام أو رشفة ماء. لم يكن لدينا الكثير.

في أحد الأيام، استيقظت ماما نيبيلي قبل الفجر وخرجت من المنزل قبل أن ينتهي حظر التجول لتقف في الطابور أمام المطحنة. كانت تأمل في تجنب الزحام. بعد شروق الشمس، انضممنا إليها، وسرنا بجوار المقبرة وعبرنا نفقًا.

ومع ذلك، انتظرنا في الطابور لساعات. كنت أريد تَرْكَ جسدي. كنت أكره اضطراري إلى الأكل. كنت أكره معدتي، وكنت أكره احتياجاتي. لم تكن الصفقة التي عرضها عليَّ جسدي تستحق هذا العناء كله. لم أعد أرغب في المتاعب.

في المنزل، كنا نقضي أيامنا تحت السرير أو بالأحرى نتناوب تحت السرير إذ لم يتسع المكان لنا جميعًا. كان بطن كلير بحجم كيس أرز وزنه ثلاثة كيلوجرامات، وكلما غفت، كانت تراودها الكوابيس.

كانت ترى الناس يتحولون إلى حيوانات، لا شك أن ذلك يعود إلى استيلاء المتمردين على المنزل قبل بضعة أشهر وتعليقهم جلد تمساح على الحائط. لم تجرؤ ماما نيبيلي على إزالته. خلال النهار، كانت الشاحنات العسكرية تجوب الشوارع، ويسير الجنود في مجموعات صغيرة من ستة أو ثمانية أفراد، بما في ذلك الأطفال، حيث كانوا يسيرون اثنين اثنين، ويحملون بنادق بالكاد يستطيعون رفعها.

كان المنزل يقع على جزء مرتفع قليلًا من تل صغير، مما جعله في موقع أفضل من المنازل التي تقع على الشارع الرئيسي. ولكن رغم ذلك، كانت القنابل تنفجر طوال الليل. كان الناس يلقون القنابل اليدوية. الكبار يزيحون الأثاث باتجاه النوافذ. نقلنا الأَسِرَّة إلى منتصف الغرفة. ورغم ذلك كله، كنت أشعر أن جسدي مكشوف كما لو أنني أنام في ثوب نوم على هضبة واسعة. كنت أشعر بالبرد رغم أن الهواء كان ساخنًا. كنت أرتجف ولم أستطع التوقف عن ذلك.

لم يكن احتضان مواسيتي أو مادو يساعدني. كنا جميعًا نرتجف وتفوح منا رائحة الخوف. أمرتنا ماما نيبيلي بالصمت. لم نجرؤ على البكاء، ولذلك لم نبكِ. كان الضجيج يستفز الشيطان.

ثم لم أعد أشعر بالخوف فقط، بل أصبحت مريضة. أهو الملاريا أم سوء التغذية أم الاكتئاب، لا أحد يعرف، ولم يكن الأمر مهمًّا. كان العرق لا يتوقف، وكذلك الارتجاف. لم أستطع الأكل.

كانت كلير قد أصبحت ضخمة وعرضة للضعف إلى الحد الذي يمنعها من الخروج –غنيمة الساديين، فأخذتني ماما نيبيلي إلى المشفى.

لم يكن أي من ملابسي يناسبني. كنت نحيفة جدًّا. لا أستطيع الوقوف. لفتني ماما نيبيلي في قطعة قماش كيتينجي وربطت جسدي الهزيل الذي يبلغ من العمر عشرة أعوام على ظهرها. كنت أكره أن يتم

حملي. لم أومن بالوعود الضمنية للرعاية والحماية؛ لكنني كنت ضعيفة جدًّا لدرجة أنني لم أستطع المشي.

كانت الحرب بلا منطق، بلا اتجاه، بلا هدف واضح، بلا وجه. كانت في كل مكان، وفي كل شيء، وفي النهاية كانت لا تمثل شيئًا على الإطلاق. كنت شبه واعية عندما وصلنا إلى المستشفى. صلى الأطباء لي. رفعت ممرضة رأسي وأجبرتني على شرب الفحم، كما فعل موتشيشورو مع كلير في بوروندي. لم يعرض أحد عليَّ الدواء.

نمنا على مقعد في المستشفى. ثم حملتني ماما نيبيلي عائدة إلى المنزل لأموت.

كنت هزيلة للغاية. كنت ضعيفة جدًّا لدرجة أنهم كانوا يضطرون إلى حملي لأتمكن من الذهاب إلى الحمام.

فرشت ماما نيبيلي حصيرة تحت الأشجار الجميلة، ووضعتني عليها وبدأت تقرأ لي من الإنجيل، لترافقني في طريقي إلى موتي المحتوم. كانت تعلم أنني سأموت. كان الجميع يعلم أنني سأموت، وكانوا قد قبلوا ذلك. لكنني فكرت: **لن أستسلم هكذا. لن أقبل بهذا. أنا أعرف أين المنزل، أعرف أين هو المنزل. أريد العودة إلى المنزل.**

ربما كنت بحاجة إلى الحِداد على حياتي القديمة. تعافيت بسرعة أكبر مما توقعه الجميع، وحالما أصبحت قوية بما يكفي، غادرنا إلى أوفيرا. لم تكن الأمور هناك أفضل. الذباب كان يحوم حول الجثث في الشوارع. في أحد الأيام، أرسلتني ماما نيبيلي ومواسيتي لصعود تل حاد بالقرب من أطراف المدينة للبحث عن أوراق البطاطا الحلوة. كانت التلال الصخرية تخدش ركبنا. وجدنا الكروم جُردت من أوراقها.

كانت حكومة الكونجو قد بدأت بطباعة النقود. كنت بحاجة إلى حقيبة بلاستيكية ملأى بالفرنكات لشراء الفحم، وحقيبة كاملة لشراء السكر.

صليت أكثر. أنشدت أكثر. وحمدت الرب أكثر.

راودني حلم حيث كان الجميع نائمين وكان عليَّ إيقاظهم –إيقاظهم من شبه الموت ليتمكنوا من تلقي كلمة الرب. وعندما أصبحت قوية بما يكفي، بدأت بممارسة الشعائر الدينية في الكنائس، أصلي وأركع طوال الليل خلف الأبواب المغلقة، حتى نزفت ركبتي. كنت مطيعة. كنت قديسة. قصصت شعري، وأظافري، وارتديت ملابس طويلة، لم أظهر أي جزء من جسدي، مثل الراهبة. تقيأت كل شيء.

لكن عندما تعافيت تمامًا من مرضي، بدأت أشك. لطالما كان هناك وُعّاظ عند بوابات مخيمات اللاجئين، يحيوننا برسالة مفادها أن علينا أن نركز على حياتنا بعد هذه الحياة. قالوا إن هذا العالم مليء بالآثمين، ونحن أولئك الآثمون. حياتنا؛ هذا المخيم، كان جحيمًا، هذا صحيح. لكن منزلنا الحقيقي كان في السماء.

هنا أيضًا، كان الوعاظ يقولون إننا مذنبون. ينبغي أن نُعاقَب. علينا أن نصلي للرب ليجعل المعاناة تتوقف. شعرت بالارتباك. لم نكن الآثمين، ليس في نظري. كنا نفتقر إلى الطعام. كنا نفتقر إلى الماء. كان الناس، وليس الرب هم من يسببون لنا الألم. لماذا ينبغي أن نُحرَق؟

في آب، ذهبت كلير إلى المستشفى لتلد فريدي. كانت الممرضات في قسم الولادة قاسيات للغاية. كن يقلن لكل النساء اللواتي كن في حالة مخاض: «لماذا فرجتِ ساقيكِ؟ لماذا تصرخين وتبكين؟ هل تظنين أنكِ أول من يشعر بهذا الألم؟ هل تظنين أنكِ آخر واحدة؟» كُنَّ يعتبرن القسوة على النساء إحدى مهامهن وواجباتهن الوظيفي.

قُصِفَ المبنى بعد خمس ساعات من ولادة فريدي. لم يكن لدى كلير أي ملابس له. لفته في ملاءة من المستشفى وركضت عائدة إلى المنزل، وانضمت إلينا تحت السرير.

استمر إطلاق النار لأيام. دفعنا الأَسِرَّةَ إلى الممر واستلقينا تحتها هناك. كانت والدة روب تتسلل للخارج للبحث عن الماء. لم يكن لدينا شيء نأكله سوى القليل من السكر. أذابت ماما نيبيلي السكر في الماء وأعطته لكلير. كانت تقول: «اشربي، عليك أن تشربي، وإلا فلن يكون لديكِ حليب للطفل. إذا لم يكن هناك طعام، بل الماء وحده، فستسممين نفسك».

بعد بضعة أيام أخرى، توسلت ماما نيبيلي إلى جارة كي تعطينا موزة. موزة واحدة فقط، من أجل كلير.

كنا جميعًا نحدق إلى كلير والطفل. صلينا كي لا يبكي فريدي. كان الزمن صندوقًا مغلقًا خانقًا، ولا مخرج منه. كنا نغني بلا صوت. نصلي بلا إيمان. نتبول على أنفسنا، وكل منا يتظاهر بأن الآخرين لم يروا. كان الكبار يهمسون:

- علينا أن نرحل.

- إلى أين يمكن أن نذهب؟

- إلى البحيرة، لنبحث عن قارب.

- هل جننت؟ سيُلقى القبض علينا. سنُقتَل.

- سنُقتَل في جميع الأحوال.

توقف دماغي عن تسجيل ما يجري. لم أعد أستطيع استيعاب ذلك. كنت أصلي ليأتي الغد. كانت صلاتي بأكملها تتمثل في: يا رب، فليأتِ الغد.

كنا نقول: نحن على قيد الحياة، نحن محظوظون! كنا نقول ذلك –كان ذلك سخيفًا.

كان الملاذ الوحيد لنا في ذلك الوقت هو الفكاهة السوداء، النكات عمَّن يجب أن يراقب الآخر في أثناء قضاء حاجته. كانت الحمامات خلف المنزل. من كان الأسرع؟ من كان صوته أعلى؟ من كانت رائحته يمكن أن تجذب النيران؟

عندما تتوقف الأسلحة عن إطلاق النار، كنا نستمع إلى الطيور تغني. كنا نسمع صوت الأحذية وضحكات الرجال. تعلَّم فريدي ألا يبكي.

لم يكن أحد يسمح للأطفال بالخروج، حتى في الأيام التي كان فيها إطلاق النار قليلًا –لأن جميع البالغين كانوا يعرفون أن البشر متشابهون. كانوا يعلمون أننا خائفون وجَوْعى، وبالتالي يمكن أن نتحول إلى فاسدين.

كان جيش الكونجو مليئًا بأيتام الحرب، وكثير منهم في عمري، يبلغون أحد عشر عامًا أو اثني عشر عامًا فقط، أطفال مثلي لكن لم يُجبروا على البقاء في الداخل، تحت السرير؛ أطفال خرجوا وتجولوا، والتقوا رجلًا يحمل بندقية عرض عليهم الحلوى أو اليخنة مقابل نشر الألم والكراهية. كنا نرى النساء المسلحات أيضًا في الشاحنات. فتيات أكبر سنًّا.

من كان الشرير؟ الأطفال الذين كانوا جائعين وخائفين؟ أم الرجال المسلحون الذين قدموا لهم الراحة والوسائل ليشعروا بالعزم والتمكين؟

إذا كنت في الحادية عشرة من عمرك ولم تأكل شيئًا؛ وكنت تختبئ طوال اليوم والليل، وتسير حرفيًّا على قذائف مدفعية فارغة، ثم يأتي شخص ما ويريك بيتًا جميلًا سرقه ويقدم لك الأفوكادو واليخنة التي كان يطبخها، فلا شك أنك سترغب بها. كنت أريدها. كنت أريد الخروج من البؤس، مهما كانت الوسيلة خاطئة أو قصيرة الأجل.

في العالم العادي، يتحدث الناس عن الأحذية، ويتحدثون عن الحب. أما نحن، فلم نتحدث إلا عن النار. عن أي مدفع رشاش يُحدِث الصوت الأعلى. عن مكان الألغام الأرضية المخفية. عن القنبلة التي انفجرت للتو واسمها:

«**بوم بااا تششتتشش تششتتشش**».

كانت ماما دينا تستيقظ في الصباح بعد هطول أمطار القنابل وتصلي لنا.

تقول: «أصلح العالم من أجل هؤلاء الأطفال!». أو تقول: «سيكون الأمر مسالمًا لكم. كل هذا المرض سيُطرد بعيدًا. ستسيرون بقوة».

هذا هو الشرخ الثاني أو الثالث حول كل ما حدث، لكنه أول شرخ عندما كنت كبيرة بما يكفي لأدرك كم يمكن أن يكون الناس قساة فظيعين دون حتى أن يدركوا ذلك.

الحياة تتحطم أمامنا باستمرار، وأحجار اللياقة والأخلاق تتساقط واحدة تلو الأخرى في نمط غير منطقي ولكنه منتظم للغاية، لدرجة أننا لم نعد نحاول تتبع سلسلة التدمير إلى أي أصل معين. كان هناك ألم. الناس شعروا بالتهديد. شخص ما تسبب بالجروح.

كل ليلة كان يراودني الحلم ذاته.

كنت على متن قارب ضخم، فاخر، مثل سفينة سياحية، وكنا بعيدين جدًّا في وسط المحيط لدرجة أنه لا يمكن رؤية اليابسة. بدا كل من على متن السفينة سعيدًا. كنت مع مارييت.

ثم فجأة، توقفت السفينة وانقطعت الكهرباء وسقط الجميع في نوم عميق، باستثنائي. شعرت بالذعر وبدأت أحاول إيقاظ الجميع. لا، كانوا جميعًا جامدين. لم تكن السفينة تتحرك. انطفأت جميع الأضواء. ركضت على سطح السفينة في الظلام الدامس، أحاول العثور على القبطان. استمر الحلم لساعات، أو هكذا ظننت.

ثم سمعت همسًا يقول: «**توجهي نحو حقيبتك**». توجهت نحو حقيبتي وفتحتها. في الداخل، كانت هناك إحدى تلك الكتب المقدسة الصغيرة، مثل تلك التي أعطتنا إياها الراهبات الكونجوليات في مدرستي الفرنسية السيئة القديمة. وعندما أخرجتها، بدأ الكتاب يتحول إلى كتاب مقدس أكبر وأكبر. وعندما حدث ذلك، بدأت السفينة تغرق. وجدت كلير وهززتها بعنف، قائلة: «سنغرق». ثم بدأت الحروف تطير من صفحات الكتاب المقدس.

عادت أضواء السفينة، وبدأ الجميع يستيقظون ببطء. لم يكن لدى أي من الركاب أي فكرة عما حدث. قلت لكل واحد منهم، في حالة من الذعر: «لقد كدنا نغرق! كدتم أن تموتوا!». فقالوا جميعًا: «لا، لقد غفونا للتو. إنه الليل، والوقت تأخر».

كان الحلم مزعجًا للغاية. رفضت إغلاق عينيَّ لأيام. ماذا لو راودني الحلم مرة أخرى؟

أخبرت كلير عن كابوسي. فقالت: «هذا غريب. لماذا تغرق سفينة عملاقة؟».

2009-2008

14

كانت والدتي تختبرنا بين الحين والآخر. تقول بعد انتهاء الوجبة: «أحضِروا برتقالة». ثم تقطعها إلى شرائح وتراقبنا. قد تكون هناك شريحتان، أو أربع، أو ست شرائح. كانت تريد أن تتأكد من أننا لا نأخذ أكثر من حصتنا.

كان هذا التمرين غير منطقي. لدينا أشجار ملأى بالبرتقال في الحديقة، وكان بإمكان كل واحد منا أن يحصل على برتقالة كاملة. لكن إذا لم تقطع والدتي البرتقالة بما يكفي للجميع، كان اجتياز الاختبار يعني تقطيعها إلى المزيد من الشرائح.

والدتي متطرفة في تصرفاتها بل وحتى في كلماتها. كان مفهوم المشاركة فلسفتها –أيديولوجية لمواجهة ما تعتبره أفكارًا بخيلة عاطفيًّا تتعلق بالملكية أو الاستحقاق. لم يكن علينا أن نفكر قط بهذه الطريقة:

«**هذه البرتقالة لي. أنا أعطيكِ ما هو لي**». كان يجب أن نفكر: «**هذه البرتقالة لنا. نحن نتشارك ما هو لنا**».

أفكر في هذا كثيرًا وأنا أحاول فهم العالم -كيف أن هناك أشخاصًا لديهم الكثير وآخرين لديهم القليل جدًّا، وكيف يمكنني أن أتوافق مع كليهما. غالبًا ما أجد نفسي أحاول سد الفجوة بين هذين العالمين، لأُظهِر للناس، سواء أكانوا من الذين يملكون الكثير أم الذين يملكون القليل، أن كل شيء هو لكَ وليس لك في الوقت نفسه. أريد أن أجعل الناس يفهمون أن حصر أنفسنا في خانات ضيقة بناء على الطبقية، أو العرق، أو الإثنية، أو الدين -أو أي شيء حقًّا- يأتي من ضحالة فكرية، وفقر في الخيال. العالم يصبح مملًّا وقاسيًا عندما نعزل أنفسنا.

البقاء -البقاء الحقيقي للجسد والروح، يتطلب الإبداع، وحرية التفكير، والتعاون. قد يكون لديك وقت، وقد يكون لدي أرض. قد تكون لديك أفكار وقد تكون لدي قوة. قد يكون لديك طماطم وقد يكون لدي سكين. نحن نحتاج إلى بعضنا بعضًا. نحتاج إلى أن نقول: «أنا أُقدِّر ما تحترمه، وأُثَمِّن ما تعتز به. أنا لست أفضل منك. أنت لست أفضل مني. لا أحد أفضل من الآخر. لا أحد هو ما يبدو عليه للوهلة الأولى. نحتاج إلى رؤية ما هو أبعد من الإسقاطات التي نلقيها على بعضنا بعضًا. كل واحد منا أعظم وأكثر تعقيدًا وأكثر استثنائية مما يظنه الآخرون، بما في ذلك ما نظنه نحن أنفسنا».

لقد ركبت الطائرات الخاصة، واسترخيت على الشواطئ الخاصة. نمتُ في الليل بلا مأوى، وبلا والدين، وبلا وطن، وبلا طعام. لقد جعلني العالم أشعر بانعدام القيمة، وكأنه يمكن الاستغناء عني.

لقد رأيت ما يكفي لأعرف أنك قد تكون إنسانًا يمتلك كمًّا هائلًا من الموارد، أو قد تكون إنسانًا لا يمتلك شيئًا، ويمكنك أن تكون وحشًا

في كلتا الحالتين. في كل مكان، وبخاصة في مواضع التطرف لدى الطرفين، يمكنك أن تجد الوحوش. في مواضع التطرف، يكون الناس أكثر خوفًا -يخافون من الحرمان من جهة، ويخافون على امتيازاتهم من جهة أخرى. مع الامتياز يأتي شعور لا مفر منه تقريبًا بالأنا، والكثير من الخزي، وغالبًا ما تكون آلية التعامل مع ذلك هي العطاء. هذا أمر عظيم وضروري، ولكن العطاء، باعتباره إطارًا عامًّا، يخلق مشكلات. **أنت تعطي، وأنا آخذ؛ أو أنا أعطي، وأنت تأخذ** -السيناريوهان ينشئان هرمية. كلاهما يغرس الشعور بالاستحقاق.

الطريق الوحيد إلى المساواة -إلى شعور بالإنسانية المشتركة، إلى السلام- هو المشاركة؛ برتقالة والدتي. عندما نتشارك، فإنك لا تستخدم امتيازك لتجعلني أتبعك. عندما نتشارك، فإنك لا تصر على أن تكون مُخَلِّصي. أنا وكلير كنا دائمًا نبحث عن الأشخاص الذين يتشاركون ويقولون ببساطة: «لدي سكر، ولدي ماء. فلنتشارك الماء. لا نريد جعل الأمر يبدو كصدقة».

كان هناك درس آخر علمتني إياه والدتي، وكان يتعلق بالأعشاب. بعد أن كانت تقطف الأعشاب من حديقتها، كانت تقوم بفرز محصولها: بعض الأعشاب كانت تعلقها لتجف، وبعضها كانت تدفنها، وبعضها تجففها. كانت تطبخ بما يجب استخدامه طازجًا. أفكر في هذا التصنيف الآن أيضًا، وأنا أحاول فك شيفرة أجزاء نفسي، لأتعرف على الذكريات والمشاعر، وأميز بينها وأصنفها في فئات يمكنني استخدامها وفهمها.

عندما وصلت لأول مرة إلى مدرسة هوتشكيس الداخلية، كنت غاضبة. أعرف ذلك الآن، لكنني لم أدركه حينها. كنت أشعر فقط بالذنب والحزن والخجل.

سافرت السيدة توماس معي إلى ولاية كونيتيكت، وخلال الطريق من مطار هارتفورد إلى هوتشكيس، كنت أحاول تذكر المعالم: الكنيسة

البيضاء الكبيرة، ومنحدرات التلال. قالت السيدة توماس: «هذا فصل جديد تمامًا! فصل جديد في حياتك!».

كانت ثابتة على إيجابيتها وتفاؤلها. لكن الحقيقة هي أننا عندما وصلنا إلى الحرم الذي يبلغ عمره أكثر من مائة عام، وكان يضم دارًا للقوارب ومقبرة وحلبتين للهوكي، شعرنا بالحيرة والارتباك. لقد فعلتْ هذا، سخاء السيدة توماس جعل هوتشكيس ممكنًا بالنسبة لي. لم تكن تستطيع أن تأمل في نتيجة أفضل عندما دعتني إلى منزلها واعتنت بتعليمي بهذا القدر من الرعاية.

ثم انتقل والداي إلى شيكاجو، ولم تنحُ حياتي إلى الشفاء؛ بل تمزقت أكثر. وصلا، وغادرتُ إلى مدرسة داخلية، وهو أمر لم يتوقعه أحد.

كانت لدي غرفة فردية في الطابق الثالث من سكن ويلر. فتحت السيدة توماس صندوق الفراش الجديد الذي طلبناه عبر الإنترنت – بطانية بنقشة مربعات وردية وخضراء وبيضاء، مع وسائد خضراء مرافقة– وجهزت سريري المزدوج الطويل. على الرف فوق المدفأة وضعت صورًا مؤطرة لي ولعائلتي مع أوبرا وإيلي فيزيل. كنت أستطيع ملاحظة أن السيدة توماس كانت قلقة عليَّ. لقد عشت في أماكن كثيرة، وتكيفت جيدًا، لكنني لم أعش وحدي قط.

بكت السيدة توماس عندما غادرَتْ، وبكيت أنا أيضًا. ثم غفوت وحاولت أن أستعيد ذهني القوي والمستعد، ذلك العقل الذي اكتسبته من حياة اللاجئين. أردت، في أول نزهة لي عبر الحرم، أن أظهر أنني أؤمن أن هذا المكان كان ينتظرني طوال حياتي.

كنت أعلم بما فيه الكفاية أنني لا يجب أن ألعب اللعبة التي كان يلعبها بقية الطلاب. لم أسعَ إلى المكانة. أدركت أن هناك ما هو أفضل لي من خلال التواضع. إذا أخبرت معلمة الرياضيات أنني لا أعرف كيف

أحل مجموعة المسائل، كانت تسأل الطلاب الآخرين إذا كان أحدهم على استعداد لمساعدتي. وعندما أخبرت أستاذ الأخلاقيات أنني مرتبكة، قال: «دعينا نلتقي لنحتسي الشاي». جلسنا معًا في قاعة الطعام. كان يتعامل معي بلطف وصبر كبيرين. كنا نقرأ لسقراط وأفلاطون جملة تلو الأخرى.

كنت محوطة بالأساتذة الذين يتقاضون أجورهم، ليس مني، ولكن للاستثمار في مستقبلي. «**كليمنتين، هل أنت بخير؟ كيف تسير مشاريعك؟**».

لكنني بقيت في حالة ذعر دائم. لم أستطع التوقف عن الحركة.

في كل صباح، كنت أمارس الرقص من الساعة السابعة والنصف صباحًا حتى تبدأ الحصص الدراسية في الساعة التاسعة صباحًا. لم يكن ذلك أمرًا جميلًا أو تأمليًّا. كان ذلك يائسًا وعدوانيًّا في كثير من الأحيان. لم أكن لطيفة مع نفسي. كنت أرى المدرسين واحدًا تلو الآخر، لساعات كل يوم. كنت أدير فريق الهوكي للفتيات. كنت أغرق من الداخل، والأسوأ من ذلك، شعرت أنه ليس لدي الحق في ذلك.

في عطلات نهاية الأسبوع كانت كلير تتصل بي ولا أرد على الهاتف. عندما كنت أعيش مع عائلة توماس، كنت أعتني بأطفالها في عطلات نهاية الأسبوع وأعتني بالأطفال في كينلوورث لكسب المال وشراء الأشياء لهم. الآن شعرت وكأنني لا أفعل شيئًا. كان لدي كل شيء ولم أفعل شيئًا.

كان عيد الميلاد مروعًا. السردية الرسمية في عائلتي كانت: **نحن مباركون للغاية. نحن غارقون في محبة الرب لنا.** لكن شقة كلير كانت منطقة حرب. شعرت أن والدتي، وأخواتي الأصغر سنًّا، وأخي، ووالدي كانوا في فريق واحد. كلير وأطفالها كانوا في الفريق الآخر. كان كل فريق يتجمع في غرفة منفصلة لمناقشة الخطط والمهام، لم يكن

الأمر يبدو مهمًّا. كان الأمر تنافسيًّا حول من تُلَبَّى احتياجاته. لم يتخلص أحد من شعوره بالخيانة. لم تكن هناك جبهة موحدة.

لم أكن أنتمي إلى أي فريق. أخواتي الصغار لم يتحدثن معي قط. أخي لم يتحدث معي قط. لم أستطع النظر في وجه والدي. فقد فتح الزمن فجوة كبيرة. يمكنك أن تصرخ، لكن الشخص الآخر كان بعيدًا جدًّا لدرجة أنه لا يمكنه سماعك. كنت أخشى أنني كنت أنانية، بسبب الذهاب إلى المدرسة الداخلية، ولكن كان من المفترض أن يكون انتقال والديَّ إلى الولايات المتحدة هو الإصلاح الحقيقي. لم يُصَلَّح أي شيء.

حشدت كلير تقريبًا جميع أفراد العائلة ليرتدوا ملابس حمراء وسوداء، ويحملوا كؤوسًا من عصير التفاح الفوار لالتقاط صور مثالية لاحتفالات رأس السنة. لكنني لم أستطع المشاركة. مارييت أيضًا لم تستطع. كانت قد أصبحت مراهقة، وكان غضبها عنيفًا.

في يوم رأس السنة، رفضت مارييت طلبًا مباشرًا من والدتي بالمساعدة في غسل الأطباق. أمسكت بذراعها وسحبتها خارجًا إلى الرصيف.

صرختُ قائلة: «لا يهمني ما تمرين به، لا يمكنكِ عدم احترام كبار السن. ستذهبين إلى الداخل الآن وتعتذرين لجدتكِ».

ردت مارييت ببرود: «كلا، هذه ليست جدتي. أنا لا أعرفها حتى».

عندما عدت إلى المدرسة، إلى غرفتي الفردية ذات البطانية الوردية والخضراء، انهرت. كان لدي المهارات التي تؤهلني لدخول تلك الممرات الطويلة الملأى بصور الرجال ذوي الفك المربع والبشرة الشاحبة. امتلكت القدرة على العمل ضمن هذا النظام. لكن لم يحمني أي من ذلك من حياتي الداخلية. كنت في العشرين من عمري وشعرت بأنني كبيرة جدًّا وصغيرة جدًّا في الوقت نفسه. لقد كنت وحيدة دائمًا،

لكنني لم أكن وحدي قط. كنت الكثير من الشخصيات وفي الوقت نفسه لم أكن أحدًا على الإطلاق.

في أحد الأيام، خلال حلقة دراسية للفلسفة، جلست حول طاولة من خشب الماهوجني مع زملائي الطلاب، الفتيان يرتدون سترات رياضية، والفتيات يرتدين كنزات، والسماء الشتوية حادة وصافية، وملعب الجولف في الأفق. كان تركيز درس ذلك اليوم على سيناريوهات الحرب.

كان الأستاذ، الذي كان صبورًا جدًّا معي وقرأ معي الفلسفة جملة جملة في غرفة الطعام، قد كرس حياته للتدريس. كان يرتدي سروالًا من المخمل المضلع وقمصانًا مكوية، ويحافظ على لحية مشذبة باللونين الأسود والرمادي. في ذلك اليوم، قدم لنا تجربة فكرية: «**أنت قبطان عبَّارة ومعك راكبان. قاربك يغرق. أحد الركاب كبير في السن والآخر شاب. من ستنقذ؟**».

وبهذا المثال، بدأت واجهتي المتماسكة تتداعى. قبل وصولي إلى الحرم الجامعي، طلبت من مدير المدرسة عدم مشاركة قصتي. لا أرغب في أن أكون موضع فضول. لكنني الآن انفجرت: «هل تريدون أن تعرفوا كيف يبدو ذلك حقًّا؟ هل هذا سؤال مُجَرَّد بالنسبة لكم؟».

استجمعت قواي قليلًا بعد ذلك. ثم بعد بضعة أسابيع، حول الطاولة نفسها في الفصل ذاته، طلب منا الأستاذ تقديم عروضنا حول ما إذا كان يجب إرسال القوات إلى سيناريو حرب يشبه بلاك هوك داون – مهمة خطيرة للغاية للقبض على أمراء الحرب ومعاونيهم، في بلد مثل الصومال، مليء بالعنف والأطفال الجائعين.

لم أستعد للدرس. كنت أعلم أنني لا أستطيع الجلوس في المكتبة والتعامل مع الحرب والفوضى والجوع كأنها مفاهيم مجردة، وكأنني لم أحتضن مارييت على بحيرة تنجانيقا، على متن قارب مكتظ بالبشر

الذين كانوا يرمون ذكرياتهم وإرثهم في الماء. في الفصل، عندما كان الطلاب يقومون من أماكنهم ويتناوبون على شرح ما إذا كانوا سيتدخلون، فقدت السيطرة على نفسي تمامًا.

صرختُ حين كانت تتحدث إحدى الفتيات: «ليس لديكِ أدنى فكرة، أليس كذلك؟ لم تعيشي هذا السيناريو من قبل. ما الذي يمنحك الحق في الحديث عن هذا؟ هذه الأمور حقيقية. هذه أنا –ولديَّ اسم، وأنا على قيد الحياة، وهناك أشخاص في الخارج ماتوا، أو أنهم ما يزالون على قيد الحياة لكنهم مُهَمَّشون ويكرهون العالم لأن الناس في بلدكم جلسوا يشاهدوننا ونحن نُذبَح».

خرجت مسرعةً من الصف.

عندما عدت لأخذ حقيبتي، طلب مني الأستاذ أن ألتقيه لاحقًا في مكتبه. كنت أحب تلك الغرفة –الأوراق المتناثرة، والأبراج العالية من الكتب، ونعومة وعمق كرسيه الجلدي مثل صوته. وكعادته، تحدث معي بصبر وثقة. أخبرني أنني بحاجة إلى تعلم كيف أكون طالبة أقل عاطفية.

قلت له: «لا أستطيع أن أكون أقل عاطفية. إنه أمر شخصي». وحين كنت أتحدث، كنت أفكر بقسوة في أنني لم أنجُ من ذلك الرعب كله لأجلس وأحتسي الشاي وأصبح جزءًا من ناديه.

كان عقلي يدور في دوامة من الأحكام. كنت أعتقد أن ما طلبه مني الأستاذ يهدف إلى زيادة راحته الشخصية ويتجاهل راحتي. كان ذلك يناسب احتياجاته في استبعاد الحوادث العاطفية من الصف. كانت هذه الأمور غير متوقعة، وليست من تخصصه. لم يكن لديه سلطة على المشاعر، ولا أرضية أخلاقية أو فكرية عالية في هذا المجال. تركت ذلك الفصل الدراسي.

بعد ذلك، في كل فصل، حتى لو لم يكن للمادة علاقة بالحرب أو الأسرة أو العِرْق أو الفقر، كان عليَّ إثارة موضوع عائلتي، وطفولتي،

وألمي، وكان جميع زملائي يتنهدون وينظرون بعيدًا معبِّرين عن مللهم من الأمر. كنت أحول كل ورقة إلى سردي الشخصي. كل تعليق أدليت به، كل استنتاج توصلت إليه، كل ذلك كان يطالب الأستاذ بأخذ تجربتي في عين الاعتبار، وليس قدراتي الفكرية على المادة فقط. كانوا جميعًا يحاولون دفعي للعودة إلى المسار المتعارف عليه، لتوجيهي إلى الشكل المقبول في هوتشكيس. كان الأستاذ الذي تركت حلقته الدراسية صبورًا بشكل خاص. كان ما يزال يدعوني إلى مكتبه ويكرر أن مشاعري كانت صحيحة، لم يكن أحد ينكر ذلك، لكنني بحاجة إلى تعلم كيفية توجيهها في الفصل، وليس إثارة نوبة غضب وجعل الجميع غاضبين ثم أغادر.

لم أستطع فعل ذلك. لم أرغب في فعل ذلك. كنت متمردة، مليئة بمشاعر الازدراء والعصيان. قلت لهم أن يستمروا في تعليم طلابهم الذين لا يعرفون سوى الراحة ويخططون لمسيرات مهنية في جولدمان ساكس. لن أوافق على ذلك. لم أقضِ حياتي أنتزع الحشرات من قدمي وأراقب أختي المضروبة ترضع طفلها في أثناء فرارنا من مخيم لاجئين إلى آخر لأُحاضَر عن الأخلاق الإنسانية من قِبَل رجل يرتدي المخمل.

رغبت السيدة توماس في أن أتصل بها كل يوم أحد. لم أستطع تحمل التحدث إليها. لم أستطع تحمل التحدث إلى كلير. رغبت فقط في بث ما بداخلي، لا أن أتحدث. كان لدي صديقة واحدة، لويزا، تجلس معي في غرفتي. رأت الصور التي تجمعني بعائلتي مع أوبرا، وصوري مع إيلي فيزيل، وكانت تعرف أنني أعاني، لكنني مع ذلك لم أناقش معها تقريبًا أي شيء. كنت أعاني الكوابيس التي تأتيني باستمرار. كوابيس عن احتجازي في قبو، كوابيس عن الأشخاص الميتين النائمين على القارب. كنت وحيدة للغاية ومكتئبة. كنت في حالة يُرثى لها.

لم تكن المستشارة تعرف ما ستفعل معي. اتصلت بعميد جامعة ييل، الذي لم يكن يعرف أيضًا. كنت حالة خاصة –مرضًا نادرًا. كنت أرغب فقط في أن يتركني الجميع وشأني. لم أستطع التعامل مع نفسي، لكنني لا أرغب في أن أكون مشروع أحد.

كانت حياتي، حتى تلك اللحظة، عملية للغاية وتركز على البقاء. كنت أستوعب جميع البيانات المتاحة وألخِّصها في أفضل شخصية يمكنني تقديمها في أي موقف. ما الذي تريدني أن أرتديه؟ من تريدني أن أكون؟

كل ما كنت أفعله من توجيه نفسي كان مجرد وهم. كنت قد انهرت. لا آلية منظَّمة ولا فلتر. كنت أقول كل ما يتبادر إلى ذهني ولا أفكر مرتين. كنت أعتقد **أن هذه مجرد أدغال مختلفة – غابة أخرى**.

كرهت العيش بمفردي، من أجل نفسي. كان من الأسهل لو كان هناك شخص واحد لألقي عليه غضبي: «**أنت. أنت دمرت كل شيء**». لكن لم يكن هناك أحد. لم يكن هناك هدف مُرضٍ. العالم كان ممزقًا، وكنت أظن أنني أعيد جمع الأجزاء، لكن تلك الأجزاء كانت ملقاة هناك، بلا رابط بينها.

في الليل، عندما لا أتمكن من النوم، كنت أصنع الأساور. فعلت ذلك منذ الصف التاسع، عندما انتقلت والدة السيد توماس إلى مجتمع المتقاعدين. كانت قوية الذهن ومقتصدة، وعلى مدى عقود من الزمن، جمعت علبة كبيرة ملأى بالأزرار والخرز وأقراط فردية. وعندما قررت والدة السيد توماس الاستغناء عن تلك العلبة، حين كنا ننظف شقتها القديمة، أخذتها إلى غرفتي. كنت أحتفظ بكل شيء أيضًا: الأكياس البلاستيكية الجميلة، والزجاجات، وقصاصات التذاكر.

لذا في الساعات المتأخرة من الليل، كنت أفرز محتويات العلبة، وأنتقي الخرزات الخزفية والأزرار النحاسية، وأجمعها معًا في خيط مطاطي.

الأساور التي صنعتها كانت ضخمة وجميلة. احتفظت باثنين منها لنفسي، ثم بدأت في إعطائها للناس الذين شعرت أنهم يعانون، مثل فتاة في صفي كانت تجرح نفسها. أخبرت تلك الفتاة أنه في كل مرة تعتقد أنها تستحق الألم، يجب أن ترتدي السوار وتتذكر أنها مميزة ومحبوبة.

كانت السيدة توماس تأخذني إلى متاجر الخياطة لشراء الأزرار بالكيلو. كنت أيضًا أبحث في متاجر التوفير التي أحببتها –تلك المتاجر التي كانت تحتوي على أحذية جلدية وأدوات منزلية مهملة، وعشرات القلائد الذهبية– كل قطعة تُخُلِّيَ عنها عمدًا.

حاولت إيجاد طريقة لنسج قصتي وربط أجزائها، للحفاظ على التواصل بين جميع حيواتي المختلفة. قررت صنع مائة سوار وتوزيعها جميعًا. مع كل سوار، كنت أتخلى عن شيء مؤلم أو مدمر بداخلي. مع السوار الأول، توقفت عن شرب الكولا. كنت أشرب علبتين في اليوم للحصول على الكافيين. كنت أعاقب نفسي، وأحاول تهدئة شعوري بالذنب تجاه نجاتي من خلال قلة النوم.

بعد ذلك، حاولت التخلي عن كراهيتي لساقي. كنت أكره ندبي التي تركها السياج على فخذي، والتي على ساقي بسبب عدوى خطيرة أصبت بها في سن الحادية عشرة، تلك التي أحدثت ثقبًا في لحمي.

لم يكن ذلك كافيًا. كنت بحاجة إلى شيء أكبر.

كانت زوجة أحد الأساتذة تدعوني أحيانًا إلى منزلهم. ربما رأت العزلة في عينيَّ. كانت تخيط، وكنت أحب صوت ماكينتها، لذلك قررت صنع فستان، باعتباره مشروعًا فنيًا. في البداية تخيلت فستانًا مصنوعًا من قماش التُّل، مع ذيل طويل مصنوع من عجينة الورق[1]. لكن القماش

(1) papier-mâché: وهو أسلوب حرفي يتضمن إنشاء أشياء عن طريق غمس قطع من الورق، عادةً تكون الصحف، في عجينة مصنوعة من الغراء أو الدقيق أو الماء. تُطَبَّق هذه الطبقات على قالب أو تُشَكَّل يدويًا وتُترَك لتجف وتتصلب. (المترجم).

كان أغلى مما توقعت، لذا استقررت على استخدام قماش الكانفاس من غرفة الفن.

اخترت نمطًا لفستان بكتف واحد مع صِدار ضيقة، وحزام عريض، وزهرة قماشية كبيرة مخيطة تشبه الدبوس على الياقة اليسرى عند عظمة الترقوة، وتنورة على شكل حرف A –إيه لاين. صممته ووضعته على المانيكان. بدا أبيض ناصعًا فقررت طلاءه باللون الأحمر. أخذت الفستان إلى غرفة الفن وبدأت خلط الألوان. لون الشمندر، والخنفساء، ولون إشارة التوقف. لم أتمكن من العثور على اللون الأحمر المثالي. أخيرًا، شعرت بالرضا، خففت الطلاء بالماء، وأخذت الفستان إلى الخارج.

وضعت الفستان على قطعة من البلاستيك على الأرض، وملأت الفرشاة وبدأت في نثر الطلاء. بدا الطلاء الآن مثل الدم تمامًا. واصلت نثره، فكان الأمر أشبه بمذبحة. كنت أحاول التحرر من ألمي. لوَّنتُ الحزام بالكامل. بدا مثل جرح مفتوح. عرضت الفستان مرة أخرى على المانيكان، في معرض الفنون في نهاية العام. أطلقت على العمل اسم «**جميلة حتى الموت**[1]». لقد كان يبدو جميلاً حقًّا إذا لم تكن منتبهًا.

كل من مر بجانبه قال: «كليمنتين، يا له من فستان جميل!».

مكتبة
t.me/soramnqraa

(1) Drop Dead Gorgeous: بمعنى جميلة بشكل يخطف الأنفاس، أو جمال يفوق التوقعات ... إلخ، ولكن التزامًا بالسياق اخترنا: جميلة حتى الموت. (المترجم).

1999 - 2000

15

جلست مع فريدي وماريييت وأمتعتنا الممزقة. كان الناس يمرون بجانبنا، فإما يتهكمون وإما يتجنبون النظر إلينا، دون أن يقولوا شيئًا. وصلنا إلى زامبيا. كنا غير مرئيين.

على أطراف السوق الخارجية في لوساكا، كانت هناك قنوات صرف مفتوحة. كانت الأرض الموحلة مبللة بالمطر قبل يومين أو ثلاثة، ويمكنك رؤية آثار الأقدام وقد التصقت بالأرض حيث ضربتها الشمس مباشرة، حين كانت طبقة الطين السميكة، كالرمال المتحركة، تجذب الذباب في الظل. ما كان ماء نقيًا ونظيفًا منذ أيام قليلة، أصبح الآن وسطًا كريهًا للنفايات - بقايا أسماك، وخضروات فاسدة، وفضلات، وأكياس بلاستيكية. هناك شاب أرسل دلوًا في القناة وسحبه مملوءًا ليغسل دراجته.

بعد مغادرتنا زائير، حاولنا العودة إلى رواندا عبر بوروندي، لكن الوضع كان خطيرًا جدًّا، لذلك انسحبنا إلى تنزانيا مرة أخرى، كما فعلنا في المرة الأخيرة التي هربنا فيها من زائير. كنا أنا وكلير، نرغب في الوصول إلى جنوب إفريقيا مرة أخرى، لكن ذلك كان خطيرًا جدًّا مع طفل ورضيعة، لذلك ساعدنا كاهن بوضعنا على قارب إلى زامبيا. ركبنا أربع حافلات للوصول إلى هنا ولا خطةَ لدينا.

تركتنا كلير في سوق **كوميسا** المزدحم وذهبت لتبحث، أو تحاول العثور، على مأوى وطعام. رفضت كلير العودة إلى مخيم اللاجئين. لقد انتهت من تلك الحياة. انتهت من الوقوف ساعات في طوابير طويلة للحمام؛ انتهت من أكل الفاصولياء فقط؛ انتهت من العيش لعام كامل في كيس بلاستيكي يسميه الآخرون خيمة.

جلسنا لساعات طويلة. مر الوقت، ولم نتحرك. كان كل كشك يكتظ بأوانٍ رخيصة، وصنادل بلاستيكية، وقمصان، وأقمشة كيتينج، وحصائر للنوم، وفراشي أسنان، وسراويل جينز، وصابون، وملابس داخلية، وحمالات صدر، ومظلات، وأفران كهربائية –كل الأدوات التي تحتاجها لأرخص شكل من أشكال الحياة الحضرية.

في الممرات بين الأكشاك، كانت هناك أكوام من المنصات الخشبية، وهي عقارات تجارية أقل جاذبية من الأكشاك، لأنه كان عليك تغطية بضاعتك بالبلاستيك كلما هطل المطر، وكانت هذه المنصات مكدسة بأوانٍ رخيصة، وصنادل بلاستيكية، وقمصان، وأقمشة كيتينج، وحصائر للنوم، وفرش أسنان، وسراويل جينز، وصابون، وملابس داخلية، وحمالات صدر، ومظلات، وأفران كهربائية.

بحلول الظهيرة، امتلأ السوق بنساء زامبيات يرتدين الكيتينج والصنادل والقمصان، العديد منهن يتفاوضن ويصرخن على بعضهن

بعضًا، وكان يبدو على معظمهن الإرهاق، بنظرات مليئة بالإجهاد المزمن الناتج عن الضغط المستمر للفقر. كانت أبواق السيارات تزعق، والموسيقى تصدح –كان المكان فوضويًّا وصاخبًا.

وقف الأطفال، كثير منهم في عمري، على أطراف السوق، يتسولون النقود أو الطعام. كنت جائعة وخائفة للغاية. لم أستطع التوقف عن التفكير في الطعام –**الأوجالي**، والأرز، والفول السوداني، والموز، والأفوكادو– أي شيء يمكنني وضعه في فمي.

كنت جديدة على البقاء بمفردي مع الطفلين، لكنني كنت أعلم أنه لا يمكنني إظهار خوفي، لذلك كنت أغضُّ طرفي. شعرت بالخجل الشديد –طفلة في العاشرة مع رضيعة وطفل صغير. ما الذي كان الناس يحسبوننا إياه؟ نام فريدي وسط الضوضاء، مما جعلني أشعر بالامتنان ولكن أيضًا بالدهشة. كان يبدو لامعًا وكأنه مثالي، بشرته الداكنة سوداء ومصقولًا كخنفساء.

أما مارييت، التي كانت في الثالثة من عمرها الآن، فجلست بجانبي تبكي. كانت أيضًا جائعة وخائفة، لكنني لم أستطع مواساتها. لم أستطع التعامل معها وإلا سأنهار. لم يكن لدينا مكان نذهب إليه، لا منزل في العالم –لا مال، ولا أصدقاء، ولا أقارب.

وأخيرًا توقفت امرأة أمامي وتحدثت معي بلطف بلغة لم أفهمها. ثم أخرجت من حقيبتها كيسين بلاستيكيين صغيرين يحتويان على ماء بارد. أعطتني واحدًا وأعطت مارييت الآخر. شربنا مثل اللصوص. تحدثت المرأة مرة أخرى. هززت رأسي وقلت لها بالسواحيلية: «شكرًا لكِ، لكنني لا أفهم».

هذه المرة ردت عليّ بالسواحيلية. سألتني إذا كنت أرغب في الجلوس معها في كشكها في الظل.

جلسنا هناك. مر المزيد من الوقت. شعرت بشيء من التحسن، قلَّ شعوري بأنني جثة، أقل نسيانًا وانكشافًا. لكن الوقت لم يكن مهمًّا. لم تكن لحياتنا قيمة، وبالتالي لم يكن للوقت أهمية.

عادت كلير بأخبار مشوشة. أعطتها امرأة عنوان قسيسها وقالت إنه ينبغي لنا الذهاب إلى منزله وطرق بابه.

مضينا في طريق طويل مستقيم، مبتعدين عن محطة الحافلات الفوضوية، ومبتعدين عن سوق **كوميسا**، خارج المدينة، على طرق معبدة ولكن مليئة بالحفر. كانت الأرصفة ملأى بمئات الناس الذين يمشون، أناس سود نحيفون بملابس أنيقة من الملابس المستعملة، يمشون ببطء وثبات، بخطوات أناس يسيرون لأميال.

فتحت زوجة القس الباب. كانت تنظف –تحمل ممسحة وتلف رأسها بغطاء رأس من الكيتينج باللونين الأزرق والذهبي. اعتذرت كلير عن الإزعاج وعن الحاجة إلى طلب معروف، لكن ها نحن، كما أوضحت، هي وطفلاها الصغيران وأختها الصغيرة، وليس لدينا مكان لننام فيه.

توقفت زوجة القس للحظة فقط قبل أن تدعونا للدخول. قدمت لنا طعامًا وماء وأشارت إلى بعض الحصائر القطنية الملفوفة التي يمكننا استخدامها للنوم على أرضها النظيفة.

عندما عاد القس، نظر إلينا بعينين متعبتين وناعمتين. وبعد يومين، ساعدنا في شراء تذاكر حافلة إلى موزمبيق. كان يعتقد أنه ربما نستطيع، ويجب علينا أن نعود إلى جنوب إفريقيا، حيث ما يزال يعيش روب، وحيث كان حظنا أفضل.

الرحلة طويلة جدًّا، استغرقت اثنتي عشرة ساعة. وعندما وصلنا إلى الحدود، رفضت شرطة الهجرة السماح لنا بالعبور. لم يكن لدينا تأشيرة ولا منزل. لذا ركبنا الحافلة لمدة اثنتي عشرة ساعة عائدين إلى لوساكا،

ومرة أخرى مشينا على طول حافة الطريق الطويلة المستقيمة إلى منزل القس.

كنا نعلم أن زوجة القس لم تكن ترغب في عودتنا، وندمت كلير على الإزعاج، لكنها شعرت أن طلبنا لم يكن غير معقول. كنا بشرًا –بشرًا بلا مأوى، فقراء، بلا وطن، ومعرضين للخطر. كانت الطِّيبةُ وصية مسيحية– يمكننا أن نطلب سقفًا وطعامًا.

فتحت زوجة القس الباب وتنهَّدت بصوت عالٍ ودعتنا للعودة إلى الداخل. تحملت وجودنا لمدة أسبوعين. ثم قالت إن حماتها قادمة للزيارة، وإننا نحتاج إلى المغادرة.

مضينا مرة أخرى، وفريدي على ظهري، وماريبيت على ظهر كلير. مشينا بجانب الأكشاك على جانب الطريق التي تبيع الفواكه، والقمصان، والزيت، والذرة، وإطارات الدراجات، بوجوه لا يبدو عليها الشعور بشيء، أو على الأقل وجه كلير كان كذلك. نادى بعض الرجال على كلير باللغة الكينياروادية قائلين: «يا جميلة!» كان اهتمام الرجال مصدر قلق أكثر من كونه فائدة، لكن بما أنهم نادوا عليها بلغتنا، توقفت كلير.

سألتهم: «هل أنتم من رواندا؟».

كان أحد الرجال طويل القامة. أجاب الرجل الطويل: «نعم».

قالت كلير: «اسمي كلير»، عندها تغير وجه الرجل وبدأ في البكاء. أخبرنا أن أخته قد ماتت في الإبادة الجماعية، وكان اسمها كلير أيضًا.

قالت كلير: «أنا آسفة جدًّا». ماذا يمكنها أن تقول غير ذلك؟ ثم شرحت لهم وضعنا: «ليس لدي مكان أنام فيه. معي أختي الصغرى وطفلاي.. لا يهمني حتى لو وضعتني في المطبخ أو أي مكان آخر».

الرجل الذي كانت أخته تدعى كلير دعانا إلى شقته لننام فيها. حاول صديقه الذي يعيش معه منع ذلك، قائلًا بصوت متقطع: «لدي صديقي. لا يمكننا استضافتكِ...»

لكن كلير وقفت هناك ببساطة وكررت كلامها: «معي طفلان.. لا يهمني لو وضعتني في المطبخ أو أي مكان».

أخبرنا الرجل الذي كانت أخته تدعى كلير أن نتبعه إلى كشكه لبيع البطاطا الحلوة. وعندما وصلنا هناك، انهار صديقه واعترف قائلًا: «أعتقد أنني أتذكركِ من الرقصة في الكنيسة».

انتقلنا للعيش مع الرجل الطويل وصديقه. كانت كلير تسعى جاهدة لجمع المال للمساعدة في توفير الطعام ودفع الإيجار. أصبحت تتحدث العديد من اللغات الآن. كانت تصادق الجميع وتلقي التحية على الجميع: «مرحبًا خالتي! مرحبًا خالي!» هكذا كانت تنادي جميع الجيران دائمًا بابتسامة. كانت عازمة على ألا تنكسر. ورغم أنني كنت مستاءة لأنها كانت تتركني مع الأطفال، فإنها ظلت قوية لا تُهزَم، مصممة على التمسك بجزء من الاستقلالية وألا تكون محط شفقة.

كانت أيضًا مصممة على عدم المتاجرة بجسدها، وهو ما أدركت الآن أنه كان بمنزلة معجزة. لم أحكم على النساء والفتيات الأخريات من حولي، اللاتي كن يضعن الكثير من المكياج ويرتدين الكعب العالي ليعلنَّ عن مهنتهن –فقد كُنَّ بلا شيء، ويحتجن للبقاء على قيد الحياة. لكن والدتي كانت دائمًا مصرة على أنه لا يجب على الإطلاق، تحت أي ظرف من الظروف، المتاجرة بالجنس.

عدت بذاكرتي إلى تلك الدروس التي كانت والدتي تلقيها على كلير عَرَضًا، حينما كنا جميعًا نقف في المطبخ وكانت تتحدث بأسلوبها الكاثوليكي عن مدى خصوصية المرأة، وعن أن الرجل عندما ينام مع

المرأة، فإنه يأخذ منها شيئًا، ويعرفها من الداخل والخارج، ولا يمكنها أن تستعيد كامل ذاتها بعد ذلك.

حاولت كلير الصمود جاهدةً. أو ربما لم تكن تحاول تمامًا؛ فقد كانت ترفض التخلي عن إحساسها بقيمتها.

هناك العديد من النساء في السوق؛ اللاتي ينفقن أرباحهن الضئيلة على الكريمات التي تفتح بشرتهن. العالم يجعلهن يشعرن بالقبح. الرجال جعلوهن يشعرن بالقبح. رغبن في الشعور بالجمال.

بعد بضعة أسابيع، ظهر روب بشكل غير متوقع. كان قد ركب حافلة إلى لوساكا وسأل الناس حتى وجدنا. وصل دون أن يحمل معه شيئًا، لا لعبة لمارييت ولا مال لإعالة ابنه الجديد الذي لم يقابله من قبل. شعرت كلير بالإحراج من استمرارنا في العيش في منزل الرجلين الرونديين، حتى لا يريا كيف كان روب يعاملها.

كانت لوساكا مدينة منقسمة للغاية. كان الأثرياء، كما علمت من خلال رحلات الحافلة، يعيشون في رفاهية، في منازل كبيرة مع حمامات سباحة وحدائق. الميسورون كانوا يعيشون حياة مريحة أيضًا خلف بواباتهم على الطرق المعبَّدة.

أما الفقراء فكانوا يعيشون في أكواخ صغيرة بأسقف من الصفيح في أحياء ترابية. لم تكن لديهم شبكات صرف صحي داخلية، وكان أطفالهم يمشون ساعة للوصول إلى المدرسة، لكنهم كانوا يعتنون بزهور البوجنفيليا المتفتحة أمام أبوابهم، ويزرعون الطماطم والفاصولياء والخضروات في حدائقهم، وكانوا يبنون حياة كريمة ومحترمة. وفي مناطق أبعد من ذلك، كانت هناك أحياء بمنازل نصف مبنية، حيث كانت القضبان الحديدية تبرز من الأسمنت مثل الأذرع التي تطلب النجدة.

ثم كان هناك تشيبوليا، الحي العشوائي الذي انتقلنا إليه. بدأت أومن بوجود مراحل للموت، وأنك لا تسقط وتموت فجأة. السوق في ذلك اليوم الأول، حيث شعرت بأنني غير مرئية حين كانت كلير تحاول إيجاد مكان لنا لقضاء الليلة، كان يمثل مستوى من الموت. أما تشيبوليا فكانت أسوأ من ذلك بكثير، فإلى جانب المزاريب القذرة وبرك المياه الراكدة، كان في تشيبوليا مكبات نفايات مكشوفة؛ وأطفال بلا أحذية بملابس ممزقة يجلسون بلا تعبير في الشارع القذر، وبيوت متداعية من كتل أسمنتية متداعية، وفتيات يبعن أجسادهن علنًا؛ وأطفال يقفون عند أبواب المدارس التي لم تدفع أسرهم رسوم التحاقهم بها، يأملون ضد المنطق أن يطعمهم المعلمون الغداء.

استأجرنا أصغر غرفة ممكنة، مساحتها خمسة أقدام في عشرة أقدام فقط. بغض النظر عن مساحتها، فقد كانت تشعرنا بالاختناق، وكأننا مررنا عبر صمام أحادي الاتجاه إلى مستوى من الموت عميق جدًّا، لدرجة أنني أردت نزع جلدي لأذكر نفسي بأنني ما زلت على قيد الحياة.

كانت غرفتنا تطل على فناء. في ذلك الفناء، جلست واحدة من بنات صاحبة البيت على كرسي مراقبة، تتأكد من أننا لا نستخدم الدش في الحمام المشترك، لأننا لم ندفع مقابل ذلك الحق.

عندما كانت تمطر، كانت مكبات القمامة تنتفخ، وتنتفش النفايات فتبدو مثل الوحش لوياثان[1] القبيح. كل قطرة مطر على السقف المصنوع من الصفيح كانت تبدو وكأنها وقع أقدام خلال هروب صاخب. مطبخنا كان يتكون من موقد كهربائي قديم بأسلاك تبرز من لفائف

(1) وحش بحري أسطوري مذكور في الكتاب المقدس، وغالبًا ما يرمز إلى الفوضى والقوة والحجم الهائل، ويوصف في سفر أيوب بأنه مخلوق يمثل قوة الله على الخليقة. (المترجم).

التسخين. كان يصدر شررًا عندما يُشَغَّل. كنت خائفة من التعرض لصعقة كهربائية، فكنت أرتدي أحذية بلاستيكية في أثناء الطهي.

كانت كلير تكافح لكسب المال من خلال عملها في السوق. كونت صداقة مع امرأة كانت تستأجر مكانًا على طبلية التحميل المكشوفة. كانت تلك المرأة تبيع ملابس داخلية وحمالات صدر بألوان مختلفة: الأسود، والأبيض، والأحمر. سمحت لكلير بمشاركة طبليتها. كانت كلير ما تزال تلقي التحية على الجميع. كانت تساعد في جذب الزبائن. وإذا اشترى أحدهم من جانب كلير من الطاولة، كانت المرأة التي تدفع إيجار الطبلية تترك لكلير الربح –وجود كلير كان مكسبًا للجميع.

سرعان ما بدأ التجار الآخرون يجلبون العمولات لكلير –سراويل جينز، وقمصان كرة القدم. كانوا يعطونها قميصًا ويقولون: «أريد منك أن تعيدي لي 13 دولارًا». كانت السوق كلها تبيع القميص نفسه بسعر 15 دولارًا. كانت كلير تبيعه مقابل 14.50 دولار.

الربح البسيط في اليوم كان أفضل من لا شيء على الإطلاق –هذا كان منطق كلير. في النهاية، كان لديها من الطلبات أكثر مما يمكنها التعامل معه. كانت تعيد البضائع غير المبيعة إلى أصحابها في نهاية اليوم. لم ترد تحمل المسؤولية. ففي تشيبوليا، كل شيء عرضة للسرقة.

كفاحي اليومي هو اجتياز اليوم. كيف يمكنني الحفاظ على الكرامة. كيف أحافظ على نظافة الأطفال – وبخاصة كيف أبقي فريدي بعيدًا عن الزحف في القاذورات. كيف أطوي حصيرة نومي. كيف «أُلَمِّع» البيت، الذي كان يعني فقط رش الأرضية بالبنزين لطرد الحشرات. كيف أغسل قميصي الهاواياني المزين بالزهور ذا الأكمام القصيرة، والذي كنت أحبه، وكنت أرتديه مع تنورة جينز أربطها عند الخصر.

كيف أجعل الأطفال يبدون بشكل لطيف، وبالتالي محبوبين ومرئيين. كيف أشتري الخضروات الأرخص: الطماطم شبه الفاسدة، والبطاطا الحلوة، والفاصولياء، والسبانخ، ثم أذهب إلى المنزل، وأرتدي صندلي البلاستيكي، وأعد لهم اليخنة.

الأطفال بحاجة للكثير. لم أسمح لمارييت باللعب مع الأصدقاء، لأن ذلك كان يجعلها تتسخ جدًّا. الجميع يعتقد أن بطن فريدي الكبير لطيف جدًّا، لكنه لم يكن لطيفًا. كنتُ الفتاة ذات الأحد عشر عامًا؛ الأكثر تعبًا في العالم.

لم تكن هناك بنية تحتية حقيقية. كانت مضخة الماء على بُعد عشرين دقيقة مشيًا. لكي أذهب مع فريدي ومارييت، كان عليَّ استعارة عربة يد، رغم أن استعارة العربة يعني اضطراري إلى إعادتها إلى مالكها مع جالون أو جالونين إضافيين من الماء.

كان جسدي يتغير، وكان هذا مخيفًا. في طابور المياه، كنت أسمع النساء يتحدثن عن كل زوج يخون مع من. روب كان يخون، وكل الرجال كانوا يخونون. كانوا بحاجة إلى الشعور بأنهم أفضل من شخص ما، وأسهل الناس للشعور بالتفوق عليهم كُنَّ زوجاتهم.

كنت فريسة سهلة لرجل لديه شيء ليثبته. كنت لا أحد –طفلة في الحادية عشرة من العمر لا تنتمي لأحد. لم أقف في طابور الماء بعد الساعة الرابعة مساء خوفًا من التعرض للاغتصاب. حتى في وقت مبكر من اليوم، كنت أحاول فِعْلَ ما كنت أفعله منذ سن السابعة. كنت أحاول جعل نفسي أضخم وأكبر، بطول مائة قدم وسن 150 عامًا.

لكن في بعض الأحيان، كان ذلك أصعب من أي وقت مضى. لقد عشنا خمسة أنواع مختلفة من الحياة، ولم نبنِ شيئًا. كنت أرفض الخوض في أي محادثة. لم أثق بأحد.

ذات يوم، وأنا في الطابور أمام مضخة المياه، ركضت مارييت بعيدًا، فتركت براميل المياه والعربة في مكاني وذهبت لمطاردتها. عندما عدت، وجدت أنهم نقلوا براميل المياه والعربة جانبًا لإخراجي من الطابور. استمرت النساء في الحديث –في الثرثرة عن أزواجهن، لكنني لم أعد أستطيع سماعهن. بقيت أفكر: «**لا يمكنني الاستماع، لأنني إذا استمعت سأقتل نفسي. البقاء على قيد الحياة أمر صعب جدًّا إذا انتهى بك الحال هكذا**».

داخل المجمع السكني، كان لديّ صديقة واحدة، اسمها رودا. كانت والدتها صاحبة المنزل. وكانت أختها الصغيرة جوي هي التي عينت نفسها مراقبة الحمام المشترك. كانت عائلتهم تعيش في شقة تضم عدة غرف في زاوية المجمع بالقرب من البوابة. كُنَّ ممتلئات الجسد، الأمر الذي كان يؤدي إلى حسد الجميع. السمنة كانت تعني أنك تأكل ثلاث وجبات يوميًّا. السمنة كانت تعني أنك تستقل الحافلة بدلًا من المشي لأميال لا نهاية لها.

رودا تكبرني ببضع سنوات، طويلة القامة وببشرة فاتحة وشعر أسود كثيف وجميل، وكانت ترتدي تنورة بيضاء بشعة مطرزة بالورود وكانت تحبها. كانت رودا كسولة، وتمضغ لسانها وطرفه يتدلى من جانب فمها مثل لسان علبة مشروب غازي.

لكن كسلها لم يكن عن تراخٍ، بل عن استرخاء. كانت مسترخية مع يقينها أن حياتها ستسير على ما يرام. بعد أن تنتهي من تناول الحبوب، تضع الملعقة حيث أنهت الأكل وتغادر. كانت تترك ملابسها المتسخة على الأرض. شخص آخر كان سيتولى تنظيف المكان.

رغم أنهم كانوا يعيشون في تشيبوليا، فإن والدة رودا غرست في أطفالها شعورًا بأن عالمهم كان مثاليًّا، وكان كذلك مقارنة بعالمي. كانوا

يأكلون اللحوم. كانوا يسافرون لزيارة عائلاتهم في ليفينجستون في زامبيا، بالقرب من شلالات فيكتوريا. كانوا يذهبون إلى المدرسة. كانت رودا كسولة جدًّا في دراستها، لكنها سمحت لي بلمس دفاترها. كنت ما زلت أحتفظ بمقلمتي التي تحمل اسمي. كنت سأذهب إلى المدرسة بدلًا منها لو اعتقدتُ أنني أستطيع التظاهر بأنني هي.

لمدة ثلاثين دقيقة يوميًّا، كان ضوء الشمس يصيب نافذتنا الصغيرة بطريقة ما فيتحول الزجاج إلى مرآة. كنت منجذبة إلى المرآة، ولكن في الوقت نفسه مشمئزة منها. في انعكاسي، كنت أرى خالتي. كنت أرى والدتي، لكن شعر والدتي كان دائمًا مسدولًا، متموجًا ومضيئًا. أما شعري، فكان فوضى قبيحة من الضفائر التي صنعتها بنفسي.

بدأ فتى بزيارتنا. كان نحيفًا ويبلغ من العمر خمسة عشر عامًا. عندما يزورنا، كان يجلب الحلوى لأطفال كلير. لم أرد أي شيء له علاقة به. بعد بضعة أشهر من العيش في تشيبوليا، كان روب قد حصل على حبيبة جديدة ولم يخفِ ذلك. وكان قد عاد أيضًا لضرب كلير. إذا اشتكت كلير من أي شيء –من الأكل مرة واحدة في اليوم أو من العيش في غرفة واحدة– كان روب يصرخ قائلًا: «عودي إلى رواندا! هل لديك عائلة هناك أصلًا؟».

بدأت شرطة الهجرة في تشديد الرقابة. بعد نحو ستة أشهر من وصولنا إلى زامبيا، توقفت كلير عن الذهاب إلى السوق لأن الأشخاص الذين لا يحملون أوراق رسمية كانوا يُسجنون.

قبضت شرطة الهجرة على روب. كان متهورًا في زيارة حبيبته. أوقفه جندي ذات ليلة في طريقه إلى المنزل من منزلها. لم يكن يحمل تأشيرة، فألقي به في السجن. اعتقدتُّ أن كلير قد تتبرأ منه. ربما كان روب يأمل في ذلك.

كانت هناك امرأة تعرفنا عليها في الحافلة. دعتنا إلى منزلها في أيام الأحد، وكانت تسمح لنا بمشاهدة التلفاز. كان لديها هي الأخرى زوج عنيف، ونصحت كلير أن تصبر. أخبرتها أن روب سيتغير عندما يكبر الأطفال. سيرغب أن تحبه مارييت وفريدي، وبالتالي سيتوقف عن ضربها.

لذا، في معظم الأيام صباحًا، كانت كلير تحزم بعض **الأوجالي** واليخنة، إذا كان لدينا أي منهما، وتسير سبعة أميال لتوصيل الطعام إلى روب في السجن. في أثناء وجودها هناك، كانت تتعمد الوقوف عند باب مكتب مدير السجن وتسأله: «كيف كان غداؤك؟ كيف كان شايك اليوم؟» وبعد مجموعة من تبادل المجاملات مع مدير السجن، قالت له: «لن أغادر حتى تسمع قصتي». كذبت عليه وأخبرته أن روب هو المعيل للعائلة، وأنه يبيع الملابس في السوق، وأننا بحاجة إليه لإطعام العائلة. كانت الهجرة تصدر استثناءاتٍ للآباء الذين يديرون أعمالًا صغيرة.

أطلق مدير السجن سراح روب في اليوم التالي.

لكن إخلاص كلير لروب لم يفدها. فعندما خرج من السجن، ساء سلوكه أكثر من أي وقت مضى. كانت النساء كلهنَّ في المجمع يخفن منه، رغم أن الحقيقة هي أن معظم النساء كن خائفات من جميع الرجال تقريبًا.

كانت النساء معتادات على فكرة المعاناة والشعور بالضَّعة والدونية. أما الرجال، فكان من الصعب عليهم التوفيق بين توقعاتهم وأفكارهم عن الرجولة وبين هذه الحياة. ونتيجة لذلك، كانوا يبالغون في تعويض هذا الشعور بإظهار الغضب الجامح والخيانات العلنية.

كنا فقراء للغاية؛ لدرجة أننا لم نكن نملك حتى حقوق الاستحمام الكاملة، فقط الحق في استخدام المرحاض. كانت أخت رودا، جوي، تشكو إذا كان لدينا ضيوف يستخدمون الحمام كثيرًا.

ذات ليلة عاد روب إلى المنزل غاضبًا وضرب كلير. كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة ليلًا، وبعد أن انتهى من ضربها صرخ قائلًا: «خذي أطفالكِ واخرجي!» كان الحي في تشيبوليا يغلق أبوابه عند الغسق وكان مرعبًا في الظلام. كان هناك الكثير من اليأس، والكثير من الأجساد المكدسة في مساحة ضيقة جدًّا.

ومع ذلك، حملتْ كلير مارييت على الفور، وحملتُ أنا فريدي، واختبأنا خارج بوابة الفناء بين الشجيرات. لم نتمكن من ترك الأطفال معه. لم نكن نريده أن يجدنا.

شعرتُ أنني كنت مستعدةً لأكون شريرة. أردت أن أكسر النافذة وأهاجم روب بقطع الزجاج. أردت أن أكسر عالمي كله. كنت أشعر بقدر كبير من الغضب المتراكم تجاه كلير. لم أطلب قط أن أكون أمًّا أو وصية على هؤلاء الأطفال. لم أطلب كل هذا الترحال. والآن كلير تعاني من الكدمات في جسدها كله. كانت تدفن رأسها بين يديها وترتجف، وتحاول طمأنتي وكأنني طفلة صغيرة أيضًا: «لا تقلقي، سنجد حلًّا...» لكنني لم أعد أتحمل.

قلت: «ذلك الرجل طردنا للتو من المنزل الذي دفعتِ إيجاره **أنتِ**، وكنتِ تدفعين يوميًّا من أجل إعالته بذهابك لإحضار المال والطعام من أجل الأطفال ومن أجلي». لم أعترف من قبل بما فعلته من أجلي. لم أقرّ قط بقوتها. كنت يائسة من اعترافها بقوتي. ثم تابعتُ: «علينا أن نعتني بطفلينا، طفلينا الجميلين». قلت: «طفلانا **نحن**»، ليس طفليها فقط. ليس أطفال روب. بل أطفالنا، أطفال كلير وأنا.

بقينا هناك، بين الشجيرات، لمدة ساعة. ثم تسللنا مرة أخرى إلى المجمع وطرقنا باب امرأة مسنة. سمحت لنا بالدخول لقضاء الليلة.

بعد أسبوع، أخذتني كلير والأطفال لنعيش مع عائلة أخرى في أطراف لوساكا، في حي متواضع يضم بيوتًا صغيرة منفصلة ذات أسقف من الصفيح. كانت كلير خائفة. كنا نأكل مرة واحدة يوميًّا. كان المنزل ملكًا لابنة خال المرأة التي كانت تدعونا أيام الأحد. كانت ابنة الخال تلك قد غادرت رواندا منذ أجيال. كانت ترتدي فساتين منزلية طويلة وعرضت أن تأخذني أنا وأطفال كلير إلى منزلها. كنت أحب يديها، وأظفارها الطويلة المطلية بالأحمر، وبشرتها المغطاة بالحناء من مفاصل الأصابع إلى الرسغ. كنت أجلس في مطبخها لساعات وأشاهدها وهي تطبخ. كانت تقطع وتقشر وتحرك الطعام بدقة تامة. لم تكسر أظفارها قط.

يوميًّا في مطبخها، كانت تتبع النمط نفسه: أولًا تطبخ جميع النشويات، ثم جميع الخضروات، ثم السمك. وعندما تنتهي، كانت تصنع لنا **الماندازي**. كانت تغمره بسكر إضافي، أو قرفة إضافية، أو توابل الشاي – أي شيء كان يطلبه فريدي أو مارييت.

كانت تقول لي: «كليمنتين، سأجدل شعركِ. تعالي هنا يا فتاتي الجميلة».

كانت تقول لي: «كليمنتين، نحن جائعون. ماذا سنأكل؟».

كان جسدي يكبر. لذا أخذتني للتسوق. اشترينا فستانًا أسود مكشكشًا يصل إلى الركبة، قصير الأكمام، مزينًا بزهور صغيرة باللون الأرجواني والوردي والأبيض. كان يجف بسرعة تحت الشمس. كنت أحبه لأنه كان يناسبني.

بدأت كلير في جني بعض المال عن طريق إرسال الفاكس لفترة. تعرفت على مسؤول في القنصلية البلجيكية عندما دخلت إلى مكتبه يومًا متظاهرة بأنها هناك لبيع قلادة إلى سكرتيرته. وبمجرد دخولها، استطاعت سحره وإقناعه بالسماح لها باستخدام جهاز الفاكس الخاص به في محاولة لتعرف شيئًا عن والدينا. ومن هناك، أصبح من السهل عليها أن تبدأ في إرسال الفاكسات للجيران مقابل أجر.

بحلول ذلك الوقت، أصبح من الآمن العودة لبيع البضائع في السوق. كانت تبيع حمالات الصدر والملابس الداخلية والقمصان على أساس العمولة، كما تعرفت على امرأة كانت جزءًا من مجموعة تابعة للأمم المتحدة تقدم قروضًا صغيرة للاجئين لبدء أعمال تجارية صغيرة. قدمت كلير طلبًا للحصول على قرض، كونها ما زالت تلك الطالبة المتفوقة التي غنت النشيد الوطني الكندي، ولم تنتظر أن ينقذها أحد. عندما سمعت المرأة قصة كلير، قالت لها: «سأكون خالتكِ، أو أي شيء تريدين أن تناديني به!».

عندما بدأت كلير في جني المزيد من المال، عدنا أنا وفريدي وماربيت للعيش في تشيبوليا، مع روب. كل يوم، في الساعة الرابعة مساء، كنت أرتدي ملابسي وأخرج مع الأطفال في جولة حول الحي، جميعنا نظيفون. أحيانًا كنت أقوم بمهمة صغيرة، مثل شراء الملح. لم يكن ذلك مهمًّا. كان المهم أن يراني العالم.

كنت أرغب في القول: «**أنا هنا. أحتاج أن تروني، أحتاج أن تروا أنني هنا لا يمكنك أيها العالم، أن تجعلني أنهار. أنا على قيد الحياة، أنا على قيد الحياة، أنا على قيد الحياة**». كنت أريد من الجميع أن يلتفتوا وينظروا إليَّ ويقولوا: «يا إلهي، انظروا إلى هذا الفستان الجميل. من هذه التي لدينا هنا؟» كنت بحاجة إلى أن أقول لنفسي كل يوم:

«إنني موجودة. أنا نظيفة، شعري مغسول. ملابسي مكوية. أنا أعتني بهؤلاء الأطفال. هؤلاء الأطفال نظيفون. أنا أيضًا نظيفة».

في تلك الساعة وحدها، كنت أشعر بالفخر. لم أشعر فقط بالكرامة، بل شعرت بالثقة المطلقة، كنت كالصرح، لا تهزني الرياح. الشمس التي حولت زجاج النافذة إلى مرآة أكدت وجودي. لكنني كنت بحاجة إلى رؤية جسدي –كنت بحاجة إلى امتلاكه. مكتبة

في كل دقيقة أخرى من حياتي، كنت أشعر بألم، كوني بلا أب أو أم، وبالمرارة الناتجة عن الافتراضات التي يضعها الناس عليك عندما لا تكون لديك عائلة. كانوا يفترضون أنك تائه، وعرضة للاستغلال. كانوا يظنون أن احتياجاتك أقل، وأن إرادتك مكسورة، وأن جسدك يمكن أن يُطوَّع لرغباتهم.

في تلك الساعة وأنا مرتدية فستاني، ممسكة بيدي مارييت وفريدي، شعرت بأنني شخص ينتمي إلى شخص ما. كنت أهمس لنفسي الكلمات التي كنت بحاجة إلى سماعها: «أيتها الفتاة الجميلة، أيتها الفتاة اللطيفة، انظري كيف يناسبكِ هذا الفستان».

عندما عدت إلى المجمع، خلعت الفستان وبدأت في إعداد العشاء باستخدام الموقد المرعب. وبحلول الوقت الذي عادت فيه كلير إلى المنزل، كنت قد عدت إلى دور الخادمة.

عادت كلير إلى المنزل ذات يوم ومعها خبر جديد. المرأة من الأمم المتحدة –التي كانت تقدم القروض للأعمال الصغيرة والتي كانت كلير تصلي في بيتها– أخبرت كلير أن الأمم المتحدة أطلقت برنامجًا للاجئين الذين نجوا من الإبادة الجماعية ليحصلوا على حق الدخول إلى الولايات المتحدة. كانت الولايات المتحدة بالنسبة لكلير أرض الفرص المثالية والمكافآت. يمكنك أن تبدأ عملًا تجاريًا وتصبح غنيًا. يمكنك أن تملك

ست سيارات. يمكنك أن تملك صنبورًا يخرج منه البيرة. وعندما تصل إلى هناك، سيأخذ شخص ما بيدك ويعطيك كل ما تحتاجه. سيشترون لك الأحذية. سيشترون لك منزلًا. ستحصل على هاتف. سألت المرأةُ كلير: «هل ترغبين في تقديم طلب؟».

في اليوم التالي، ارتدت كلير الجينز وحذاءها وقميصها الأبيض النظيف وسارت إلى السفارة الأمريكية. التقت بالمرأة من الأمم المتحدة هناك وساعدتها في تعبئة النماذج الإنجليزية. ومن بين المعلومات المطلوبة كان إدراج أسماء أفراد الأسرة. أدرجت كلير اسم روب.

ضحكت المرأة قائلة: «كلير، هذا تصرف غير حكيم».

كانت كلير قد أخبرتها عن روب، وعن خيانته التي أصبحت أكثر وضوحًا. حبيبته، وهي امرأة في أوائل الأربعينيات، كانت تأتي لاصطحابه من بيتنا، مرتدية الكعب العالي وتضع أحمر شفاه ساطعًا. كانت غالبًا تحمل أكياس تسوق من المتاجر الكبرى. وإذا طلبت كلير منها الابتعاد، كانت تبصق وتقول: «وماذا يمكنك أن تفعلي؟ بإمكاني أن أبلغ السلطات عنك».

لكن كلير كانت ثابتة. قالت: «إذا منحنا الرب جميعًا الفرصة، علينا أن نستغلها. ماذا سأخبر أطفالي؟ ربما سيتغير عندما نصل إلى أمريكا».

بعد ثلاثة أشهر، تلقت كلير خبرًا بأنها استُدعيت لإجراء مقابلة. كان موعد المقابلة يوم الاثنين. أخبرت روب عن ذلك ليلة الجمعة. قال: «أنتِ ذاهبة إلى أمريكا؟ ألا تهتمين بأحد في إفريقيا؟ ألا يوجد أحد في حياتك؟».

كانت كلير هادئة وغير متأثرة. أجابته: «إذا أردت الذهاب، فاذهب. وإذا لم ترد، سأذهب مع كليمنتين والأطفال».

في ذلك الأسبوع، وللمرة الأولى والأخيرة، كوى روب ملابس كلير. وفي يوم الاثنين، ارتدينا جميعًا ملابسنا الأنيقة؛ أنا ارتديت فستاني الأسود، وكلير ارتدت الجينز وقميصها الأبيض النظيف. روب لمع حذاءه. جدَّلتُ شعر مارييت، وأبقى فريدي قميصه مدسوسًا داخل بنطاله.

لم أزُر الجزء الذي يضم السفارات في لوساكا قط. كان مكانًا أشبه بحديقة ضخمة ملأى بالأشجار العالية، مشذبة ونظيفة. داخل السفارة، انتظرنا بصمت في طابور طويل. كنت أكره الطوابير. لم يتحدث أحد. عندما نادانا الموظف، سأل كلير عن حياتنا وعن مغادرتنا لرواندا. لم أستمع.

وعندما كنا في طريقنا إلى الخارج، همس الموظف لكلير قائلًا: «لقد نجحتِ. لا ينبغي لي أن أخبركِ بهذا، لكنكِ نجحتِ. لا تخبري أحدًا».

الآن أصبح لديّ هذا السر البراق، الرائع، الذي كنت أقلِّبه في ذهني مثل البلي. كنا ذاهبين إلى أمريكا، أرض الرسوم المتحركة مثل **ذا جيتسنز آند زوم**. وعدتني كلير أننا حين نصل، سيشترون لنا أحذية على الفور. الجميع يصبحون أغنياء هناك. كانت البلاد تدعونا. سنشعر بالانتماء. عندما لا تنتمي إلى بلد معين، فإن العالم يقرر أنك لا تستحق شيئًا.

بدأنا في تنظيف بيتنا بعمق. اشترت كلير ملابس جديدة لنا –سترات منتفخة، بالإضافة إلى أحذية رياضية جديدة من ماركة كِدز بيضاء تمامًا، وقميصًا خمريًّا بخط أبيض على الياقة، وبنطال جينز ضيقًا لي؛ ومشملًا من ماركة أوشكوش أزرق لمارييت، وقميصًا مخططًا بالأزرق والرمادي لفريدي.

في الليلة التي سبقت مغادرتنا، أعطت كلير أواني الطهي والحصائر التي ننام عليها للمرأة الكبيرة التي استضافتنا عندما طردنا روب من المنزل.

ركبنا الحافلة إلى المطار. بكيت طوال الرحلة إلى شيكاجو. لم يعد بوسع أحد إيجادنا الآن.

2009

16

بعد أعوام من عرض أوبرا، حين كنت في الثالثة والعشرين من عمري وفي سنتي الجامعية الثالثة، اتصلت أوبرا لتخبرني أنها تريد أن أطير وإياها وكلير في الدرجة الأولى إلى جنوب إفريقيا لحضور حدث في مدرستها الثانوية الجديدة «أكاديمية أوبرا وينفري للقيادة للفتيات»، التي تقع جنوب جوهانسبرج.

كانت المدرسة أشبه بالخيال -مساحات خضراء واسعة، ومبانٍ مكسوة بالجص مزينة بنماذج تقليدية للسلال، وجداريات مزخرفة لفتيات يرقصن. تحدثت أوبرا ثم تحدثت أنا، وبعدها ضغطت أوبرا على يدي وقالت: «فتاتي، فتاتي، فتاتي».

كنت أرتدي فستانًا من الشيفون الأخضر، بنفس درجة اللون التي ترتديها الفتيات في المدرسة. وبعد الحدث، أخذنا صورًا. ولاحظت في بهو المدرسة ثلاث دمى، واحدة صغيرة، وواحدة متوسطة، وواحدة

كبيرة، كلها مغطاة بالخرز من رأسها إلى أخمص قدميها، وكلها بأعين حمراء مستديرة.

سألت كلير: «هل كانت لدي دمية تحتوي على الخرز؟» في عقلي الواعي كنت قد نسيت القصة التي روتها لي موكامانا.

لم يكن لدى كلير صبر على هذه الأسئلة. قالت: «لا، لم يكن لديك دمية تحتوي على الخرز».

سألتها: «لماذا أتذكر دمية تحتوي على الخرز؟».

قالت: «بسبب تلك القصة. كنتِ دائمًا تطلبين مني أن أحكيها لك».

ثم ابتعدت كلير، منهية بذلك المحادثة لليوم.

عدنا إلى المدرسة في صباح اليوم التالي. مجددًا، حدقت إلى الدمى.

سألت كلير: «هل يمكنك أن تحكي لي تلك القصة؟» نظرت إليَّ بنفاد صبر. كرهت تلك النظرة. لقد رأيتها آلاف المرات. النظرة التي تقول: «**لا تضغطي عليّ. لا أحتاج إليك. أنتِ عبء سلبي**».

قالت أخيرًا: «ألا تذكرين الفتاة التي كانت تبتسم فتنتثر حبات الخرز من فمها...».

كان ذلك كافيًا. تدفقت القصة إلى ذهني مرة أخرى. الآن أصبحت الأمور منطقية: أساوري، كل خرزي.

تبدأ الحكاية الرواندية الشعبية بأم عاقر. كانت بائسة ويائسة لتحظى بطفل، لأن كل امرأة أخرى في قريتها لديها طفل. عندما تنزل إلى الوادي لجلب الماء، تصلي من أجل طفل، وفي أثناء صلاتها، تهطل الأمطار.

تنهمر المياه ويعلو صوت الرعد، لكن المرأة تستمر في الصلاة. كانت تريد فورًا طفلًا تحبه ويرعاها عندما تكبر. يزداد صوت الرعد شدة، ولكنها تصلي بصوت أعلى من الرعد نفسه.

يسأل الرعد: «من هذه المرأة التي تصرخ بصوت أعلى مني؟ أنتِ، يجب أن تتوقفي».

لكن المرأة ترفض. فيطلب الرعد منها مرة أخرى، ويزداد غضبًا. فتقدم الأم عرضًا للرعد: «ستتوقف عن الصلاة إذا منحها طفلًا» فيوافق الرعد.

وبعد بضعة أشهر، تلد المرأة أجمل طفلة في القرية، أجمل طفلة رأتها في حياتها. الطفلة جزء من الرعد، وبالتالي جزء منها سحري. ابتسامتها مشرقة لدرجة أنها كلما ابتسمت، تناثرت من فمها سلسلة رائعة من حبات الخرز. الأم تشعر بالفخر والغيرة في آن واحد، وتشعر بالخوف من أن تُسرق ابنتها، فتحبسها في المنزل. ولكن في أحد الأيام، عندما تذهب الأم إلى السوق، تنسى إغلاق الباب. تخرج الفتاة التي تنثر ابتسامتُها الخرزَ من المنزل وتختفي.

تبحث الأم عنها في كل مكان، في قريتها بأكملها، وفوق التل المجاور، طوال الليل. تسأل الجيران والغُرباء إن كانوا قد رأوها، ويجيب الجميع «نعم». رأوا حبات الخرز هذا الصباح، لكنهم لم يروا جسدها، بل أثر الخرز اللامع. بحثوا عنها، وأرادوا رؤيتها، لكنها كانت تختفي دائمًا.

عندما يسمع الرعد أن ابنته ضائعة، ينزل من السماء ليبحث عنها. تصطف الفتيات كلهن على التلال ويأمرهنَّ الرعد أن يبتسمن. وعندما يجد الفتاة التي تبتسم فتنتثر الخرز من فمها، يأخذها معه إلى بيته في السماء. وتعود الأم إلى البكاء –لقد أصبحت بلا أطفال مرة أخرى.

عندما روت لي مربيتي موكامانا القصة، كانت تهيئ الشخصيات وتروي المقدمة فقط وتتركني أكمل الباقي. كانت تسألني: «ماذا تعتقدين حدث بعد ذلك؟» كنت أحب هذا السؤال. كان بمنزلة هدية عظيمة. مهما كانت إجابتي، مهما كان التطور الذي اخترته، كانت موكامانا تقول إنني على حق. بهذه الطريقة، أصبحت الفتاة التي تنثر الخرز بابتسامتها هي الإجابة عن جميع الألغاز – وسيلة لإعطاء شكل لعالم لم يفسره لي والداي، ولن تشرحه لي كلير لاحقًا. كانت وسيلة لتشكيل واحتواء الواقع الذي يمكنني فهمه وقبوله. كنت أعتقد أنني الفتاة. كنت أظن حبات الخرز هي النار، وأحيانًا كنت أظنها الماء أو الزمن. في نسختي من القصة، كانت الفتاة تسير على الأرض وهي آمنةٌ دائمًا، موجودة ولكنها ليست هناك، إنها تتقدم بخطوة دائمًا. وكانت مميزة حقًّا، وقوية وشجاعة بلا شك – حلم، ونجمة معروفة، إلهة بشكل أو بآخر. كنت بحاجة إلى تصديق أن تلك الأشياء ممكنة وأنها قد تكون صحيحة عني أيضًا. في السرد الذي قدمه لي العالم، كنت لا شيء. قال لي العالم إنني لا شيء. كانت القصة التي قدمها لي الكون مليئة بالجوع، والحرب، والاغتصاب. لم أكن لأعيش هذه القصة –لم أستطع.

بدلًا من ذلك، سأكون الفتاة التي تبتسم فتنتثر الخرز، نسختي من الفتاة التي تنثر الخرز –الفتاة التي لديها قوة وسيطرة على حياتها، تلك التي لا يُمسَك بها. كنت بالفعل أمتلك صناديق الأزرار والخرز، كل **الكاتوندو** -أغراضي. وعندما كنت أروي قصة الفتاة؛ عندما كنت أتخيل وأحدد المستقبل، كنت أرويها بهذه الطريقة: «**منذ زمن ليس ببعيد، في أرض ملأى بالتلال، ليست بعيدة جدًّا، كانت هناك فتاة جميلة، مميزة، ومتوهجة، وسحرية تبتسم فتنتثر ابتسامتُها الخرزَ.**

سافرت وتركت الخرز أثرًا لها، مثل غبار الجنيات، وبحلول الوقت الذي يحاول فيه أي شخص الإمساك بها، كانت تختفي».

وصلت زميلتي في السكن في جامعة ييل إلى الحرم الجامعي القديم قبلي، مع أريكتها الزرقاء من «إيكيا» ونباتات منزلية مزروعة في أصيص، وأخذت المرتبة السفلية من سرير الطابقين، تاركة لي المرتبة العلوية. كل ما تملكه كان ناعمًا ومتناسقًا ومنظمًا. أُرسِلَت صناديقي المتناثرة؛ كل **أغراضي**، إلى نيو هافن مباشرة من هوتشكيس. كنت أتمنى لو كانت الغرفة أكبر، لكنني شعرت بالارتياح لأنها كانت نظيفة. في الأسبوع السابق، حضرت معسكرًا للتوجيه التمهيدي مع مائتي طالب جديد آخرين في غابة في مكان ما وسط ولاية كونيتيكت. لعبنا ألعاب التعارف ورقصنا السكوير دانس، وكانت تجربة ممتعة، على ما أعتقد. لكن البرجر لم يكن مطهوًّا جيدًا، وكانت تفوح رائحة البول من الكبائن، كما كانت المراتب صلبة وخضراء. بقيت أتخيل ما كانت كلير ستفكر به إذا رأت هذا المكان. ستقول: «**أنتم جميعًا أذكياء بما يكفي لتُقبَلوا في ييل، لكن أغبياء بما يكفي للبقاء في مكان مثل هذا؟**».

ومع ذلك، حصلت على قميص جامعة ييل، وارتديت ملابس من ماركة «جي كرو». من الأحد إلى الأربعاء، كنت أجلس في مكتبة ستيرلينج، على الكراسي الجلدية الغائرة، وأقرأ حتى الساعة الرابعة صباحًا، وفي الليالي الثلاث التالية، كنت أخرج، وأحضر حفلات في المنازل وأرقص على مسرح مزدحم لزج في بار يُدعى «تودز بليس». لكنها كانت مجرد وسيلة إلهاء، وليست وسيلة للتواصل؛ كانت ضياعًا، وليس اكتشافًا لنفسي. كنت أعلم أن الأسلوب المحافظ في كينلوورث وهوتشكيس لن يمثلني أبدًا. لكنني لست مثل كلير أيضًا، التي ما تزال تستمتع بمسلسلاتها النيجيرية، وما تزال ترتدي أقمشة الكيتنجي وتطهو **الأوجالي**. كان

بيت كلير مليئًا بالأفارقة –نيجيريين، وكونجوليين، رواندين، وبخاصة والداي، وأبناء إخوتي وأخواتي. لم أرد أي شيء يتعلق بذلك.

قررت ألا أعود إلى المنزل في الصيف بعد سنتي الأولى في ييل. التحقت برحلة تابعة لجامعة ييل إلى كينيا لدراسة اللغة السواحيلية. أقنعت نفسي أن الأمر سيكون رائعًا. سأجوب العالم الواسع، وأبدأ بوصل النقاط في حياتي، ولن أبقى محاصرة داخل هذه الجدران الجديدة الجميلة المنعزلة.

كان لدي صديق، اسمه زاك، أراد الذهاب إلى كينيا أيضًا. كان زاك مثاليًّا.. وسيمًا، وواثقًا، ولامعًا، وطالبًا في السنة الثالثة من أتلانتنا، نصفه نيجيري ونصفه هولندي. كان في صفي لتعلم اللغة السواحيلية، وتعلم اللغة الكينياروانديه لكي يتحدث معي.. أنا، الفتاة التي كانت تطرح الأسئلة عندما كانت طفلة صغيرة ولم يُجبها أحد قط. شعرتُ وكأن هذا أحد أكثر الأشياء رومانسية في العالم.

قلت لنفسي إننا سنكون في مكان جميل في كينيا. سنأكل طعامًا رائعًا. سأكون مقبولة، ومفهومة، ويُشاد بي، بل وحتى محبوبة. سيتقدم إليَّ الكينيون ويقولون: «يا إلهي، أنتِ تعرفين لغاتنا –يا له من أمر مدهش!».

قبل مغادرتنا، أصدرت إدارة قسم اللغات في ييل تعليمات تتعلق بالزي. قالت الجامعة إن على النساء احترام العادات المحلية وألا يرتدين الشورتات أو التنانير القصيرة أو القمصان ذات الأشرطة الرفيعة. كان علينا أن نحضر أوشحة لتغطية رؤوسنا وأجسادنا.

لم أشعر أنني مضطرة بالالتزام. كنت أعتبر نفسي مختلفة، أو هكذا كنت أعتقد، ابنةً أصليةً خاصةً تعود إلى قارتها، وليس لاجئة عديمة القيمة اجتماعيًّا، بل مواطنة أمريكية، وطالبة في جامعة ييل، لا أقل من

ذلك. كان لدي جواز سفر أمريكي. كانت لدي هوية معترف بها ذات قيمة.

أصبحت قيمتي الآن جزءًا أصيلًا من كياني. لم يعد بإمكان أحد أن يسلب مني قوتي.

في ذلك الربيع، كنت أنا وزاك نقضي الوقت في المركز الثقافي الأفرو أمريكي. كان المكان مليئًا بأشخاص سود رائعين – أوروبيين سود، جامايكيين سود، هايتيين سود، أمريكيين سود، أفارقة سود. لم أكن محوطة بهذا العدد من الأشخاص السود منذ أن غادرت زامبيا.

لم أكن قد بنيت أي ارتباط مع الجمال الأسود. درست العبودية وإلغاءها. درست أفكار هارييت توبمان ومارتن لوثر كينج الابن. نعم، كنت أعرف وأحب توني موريسون، وجيمس بالدوين، ومايا أنجيلو. كنت قد حفظت كل كلمة من قصيدة «Still I Rise»، وكل مقطع منها كان بمنزلة شعار لي:

هل وددت رؤيتي محطَّمة؟
برأس منحنٍ وعينين مطفأتين منكسرتين؟

قد تقتلني بحقدك
لكنني، كالنسيم، سأنهض

لكن ألمَ أنجيلو لم يكن ألمي. قصة العبودية، رغم ارتباطي بها، لم تكن قصتي. أمريكا البيضاء لم تكن سبب جراحي.

كنت قد عرفت عددًا قليلًا جدًّا من الرجال السود الأنيقين، المتعلمين، الطموحين، المثقفين. الرجال الذين كانوا في بيت كلير كانوا محطمين داخليًّا لدرجة أنني كنت أتساءل إن كانوا يعرفون حتى مصدر ألمهم الحقيقي. والدي استسلم. روب عانى أكثر مما يمكنه تحمله وكان العنف يتسرب من جلده.

كان زاك؛ الساحر زاك، بمنزلة اكتشاف مذهل. في إحدى الليالي، أخذني إلى مدينة نيويورك لمشاهدة فرقة الرقص «ألفين أيلي».

وفي ليلة أخرى، في المنزل الأفرو أمريكي، قامت امرأة من السنغال وقرأت قصيدة باللغة الوولوفية[1]، ثم باللغة الإنجليزية. كنت مسحورة بطريقة لبسها، بعينيها، بشفتيها السوداوين، بتحكمها في لغتها الأم، بتحكمها في نفسها. أردت ذلك الكمال، وذلك التماسك. أردت أن أكون مثلها. لكنني لم أستطع أن أستجمع نفسي، حتى في هذا المكان.

سرعان ما بدأت أشعل نقاشات حول الجوانب الأقل جاذبية في الثقافة الإفريقية. كنت ألقي محاضرات على زملائي الطلاب في المركز حول الوقت الذي قضيته بين النساء في ملاوي، اللواتي ينحنين إلى الأرض عند دخول رجل إلى المكان. النساء في زامبيا يتعلمن التدحرج على الأرض بعد أن يمارس أزواجهن الجنس معهن، تعبيرًا عن خضوعهن وامتنانهن. أطفال رواندا الذين يتعرضون للضرب قبل المدرسة، ويسمي آباؤهم تلك الضربات «**كيبوكو**»، أو وجبة الإفطار.

كان الناس يغضبون ويدافعون عن أنفسهم وينزعجون. قالوا إن روايتي كانت غير بناءة، وتمثل نظرة الرجل الأبيض للمشكلات الإفريقية. كثير من هؤلاء الطلاب كان لديهم آباء أرسلوهم للدراسة في مدارس

(1) لغة يُتَحدَّث بها بشكل أساسي في السنغال، وكذلك في غامبيا وموريتانيا، وهي جزء من عائلة لغات النيجر والكونجو، ويتحدث بها مجموعة الولوف العرقية. (المترجم).

داخلية في إنجلترا، أو على الأقل آباء مستقرون ماليًّا بما يكفي لإرسالهم إلى المدرسة لمدة اثنتي عشرة سنة. لم أرد سماع آرائهم حول «إفريقيا الجميلة».

سحبني زاك جانبًا وقال: «كليمنتين، أنتِ قاسية جدًّا ولا تتركين مجالًا للآخرين للتعليق...».

لكنني كنت قد وصلت إلى الحد الأقصى، وقلت: «لا، لا، لا. هذا هو الواقع. الناس يقتلون بعضهم بعضًا. نحن نفعل ذلك لبعضنا بعضًا. ولأنفسنا».

شعرت بالقبح لحظة هبوطنا في مومباسا.

أخذنا سيارة أجرة إلى المنزل الذي سنقيم فيه، وكان قبيحًا، وعلى بعد عشرين دقيقة سيرًا على الأقدام باتجاه الشاطئ، كان هناك حصن يسوع، وهو نصب تذكاري للوحشية والمعاناة الإنسانية التي تسبب بها البشر، حيث كان تجار الرقيق يجمعون الأفارقة ويخزنونهم قبل شحنهم بعيدًا. كان المبنى مزيجًا من الطرازين العربي والاستعماري – شبكة من الممرات ذات الأبواب الصغيرة والكبيرة، كل باب منها مزخرف بشكل متقن، وكل باب كان بوابة إلى حياة محطمة.

شعرت أنني محاصرة. كان كل شيء في المدينة يبدو مهدِّدًا، خبيثًا. الرجال كانوا يحدقون ويتحرشون بالنساء، وبخاصة النساء السوداوات، وأكثر من ذلك النساء السوداوات اللاتي كن بصحبة نساء بيضاوات. في المطاعم، كان السكان المحليون يفترضون أنني مترجمة للمجموعة التي جاءت من ييل أو أنني عاهرتهم.

عاملة أو عاهرة – ولست أمريكية، ولا طالبة في ييل، ولا «فتاة أوبرا»، ولا مميزة، ولا قوية، ولا شجاعة. قلت لهم: «لا، أنا **طالبة**!» قلتها بالسواحيلية، ثم بالكينياروندية: «أنا طالبة!» ولكن بعد أن قلت هذا

الجزء من سيرتي الذاتية، توقفت عن الكلام. لقد كانت نوبة غضبي المحموم تسعد السكان المحليين. أطلقوا عليَّ لقب «السكرة البنية الغاضبة».

كان هناك فتاة سوداء أخرى في رحلتنا، لكن بشرتها كانت فاتحة جدًّا، كما كانت تضع ضفائر شقراء. كانت تستطيع الاندماج. كانت بشرتي داكنة، تقريبًا بلون الأبنوس بسبب شمس خط الاستواء.

عندما كان السكان المحليون يتحدثون معنا ولا يخاطبون إلا الأشخاص البيض على الطاولة، كنت أرغب في الصراخ: «**هؤلاء الأطفال لا يهتمون بشيء. إنهم لا يعرفون أي شيء عن حياتك. وأنا أجلس هنا. أعرف بالضبط من أنت، لقد عشت حياتك، وفوق ذلك تراني أنا الشخصية الأدنى في هذا الموقف كله؟**».

خصصت مومباسا جزءًا من شاطئها للسياح البيض ومرافقيهم. كان هذا أسوأ نوع من السياحة –رجال أوروبيون في الخمسينيات من أعمارهم مع فتيات كينيات في الخامسة عشرة.

في الشوارع أيضًا، وفي النوادي الليلية، كان هناك المزيد من الرجال الكبار مع الفتيات الصغيرات. ربما شاهدن صورة على فيسبوك لصديقة تزوجت رجلًا أبيض ثريًّا واعتقدن أن الزواج سيكون تذكرتهن للخلاص. ربما ظنن أنهن سيقعن في الحب. كانت النساء البيض الأكبر سنًّا يتجولن في الشوارع مع عشاق سود وسيمين. كل شيء بدا أفضل من حصن يسوع.

الرجال والمال، والرجال والحلوى. لم تتوقف تلك القصص قط. كان هناك رجل يركب دراجة نارية ويزور منزلنا، عندما كنت أعيش مع والديَّ في كيجالي. كان دائمًا يجلب الحلوى. قالت لي أمي إن هذه

طريقة خداع الفتيات – الرجال يعطونك أشياء. إنهم يكذبون ويعطونك أشياء. بعد ذلك، رفضت الحلوى وقلت للرجل: «أوه، أنا لا أحب الحلوى».

ما زلت أكره الحلوى حتى هذا اليوم. في المرة الثانية والثالثة التي زارنا فيها الرجل، نظر إليَّ باحتقار لأنني لم أقبل حلواه. أتذكر أنه كان يزور منازل جيراننا أيضًا – منازل الفتيات اللاتي كنت ألعب معهن. بعض الفتيات قبلن الحلوى دون تردد.

ربما كان هذا هو السبب في أنني لم يكن لدي أصدقاء: لأنني كنت أصرخ: «**إنه سيدمركنَّ**».

بدأت أتمرد وارتديت قمصانًا بأشرطة رفيعة. ارتديت تنانير قصيرة. كنت أمشي وحدي. كان ذلك خطرًا وغبيًّا. كنت خائفة جدًّا من أن الشخصية التي خلقتها ستضيع، وأنها قد ضاعت بالفعل. تضاعفت مخاوفي. كنت خائفة من مغادرة فريق ييل وتركي خلفهم. كنت خائفة من أن أُباع. كنت خائفة من أن أُقتل.

أستطيع الآن أن أرى أنني كنت أبث مخاوفي، وأزرعها مثل البذور في أرض خصبة، وأجعلها تتحقق. عندما كنت أمشي في المدينة، كانوا يوجهون إليَّ النداءات المهينة. تعرضت للتحرش. دُفعت إلى الحائط. كنت أريد أن أثبت لنفسي أنني أستطيع أن أحتفظ بهويتي رغم الاعتداء. كنت أريد أن أثبت أنني أستطيع أن أكون مثل كلير: لا تُمَس ولا تُنتَهَك. كنت أريد أن أثبت أنه حتى حين أتعرض للرفض والازدراء، فلا يمكن لأي أحد أن يجعلني أشعر بأنني صغيرة.

كانت القطط في مومباسا تصرخ وتئن وكأنها تُضرب. كنت أسمعها في أحلامي، وفي أحلامي كنت أرد على من يعذبونها باللغة السواحيلية حتى أتمكن من التدرب على الدفاع عن نفسي عندما أستيقظ.

حين لا أكون في الفصل، كنت أقرأ في غرفتي، آملة أن أكتشف السر وراء الكراهية.

وجدت مقالًا في كتاب بعنوان **إضاءات** (Illuminations) للكاتب والتر بنيامين، يقول إن الرجال يفقدون كلماتهم كلها كلما ذهبوا إلى الحرب. وعندما يعودون إلى ديارهم، لا يتمكنون من وصف ما رأوه، فيعودون إلى الحرب لتعلُّم الكلمات مرة أخرى.

اشتريت خرزًا بقيمة 200 دولار. لم أصنع به شيئًا. حلمت بأنني أدفع أشياء إلى داخل خزانة. وفي الحلم، فتحت باب الخزانة بنية حشو **الكاتوندو** بداخلها، لكنني وجدت الأشياء كلها موجودة هناك بالفعل.

قرب نهاية إقامتنا، قضينا بضعة أيام في جزيرة لامو. كانت لامو قد قاومت الاستعمار. لم يكن فيها طرق حتى الآن، فقط ممرات للمشاة والحمير. هناك، أخيرًا حصلت على رد الفعل الذي كنت أبحث عنه. قال الناس: «أنتِ تعيشين في أمريكا، وتتحدثين السواحيلية؟ تعالي إلى منزلنا واجلسي واشربي الشاي».

لكن عندما عدنا إلى مومباسا، عادت كل مخاوفي وغضبي. الكوابيس التي كانت تراودني حول ضياعي. الكوابيس التي كانت تراودني حول سرقتي. الكوابيس التي كانت تراودني حول بيعي.

عدت إلى شيكاجو مبكرًا.

في كينلوورث، عند عائلة توماس، ارتديت شورتاتي وحذائي الرياضي وركضت على طول طريق شيريدان، مرتاحة في مكان أشعر فيه بالأمان ولا أحتاج فيه إلى التفكير باستمرار في جسدي.

لكن قبل أيام قليلة من العودة إلى نيو هافن لبدء الدراسة، ذهبت إلى الصيدلية لأخذ وصفة طبية. كنت أعمل جليسةً للأطفال، لذا كنت أرتدي بنطالًا رياضيًّا وقميصًا، وكان شعري في حالة فوضى. عاملتني الصيدلانية بجفاء.

قلت: «اسمي موجود في النظام. لدي تأمين». كان اسمي ما يزال موجودًا مع عائلة توماس.

كانت الصيدلانية صارمة. قالت: «آسفة سيدتي. لا أستطيع أن أجدك. اسمكِ ليس في النظام». **التالي**.

كانت نبرتها حاسمة، مليئة بالثقة والازدراء. فقلت لنفسي: «**حسنًا، أتريدين أن تحكمي عليَّ بناءً على مظهري؟ حسنًا**».

عدت إلى منزل عائلة توماس، استحممت، ووضعت مساحيق التجميل، وارتديت كما ترتدي الفتيات من كينلوورث، وغيّرت مشيتي لتناسب مشية فتاة لطيفة من كينلوورث، كما غيرت صوتي ليصبح مثل صوت فتاة لطيفة من كينلوورث. عدت إلى الصيدلية وتوجهت إلى الصيدلانية نفسها. لم تتعرف عليَّ، أو على الأقل لم تعترف بذلك. حصلت على أدويتي وغادرت.

2010

17

لنفترض أن شيئًا ما حدث، لنقل إن طائرًا اصطدم بهذه النافذة الآن. أنا وأنت، نحن غرباء ونرتدي أزياء غريبة لا تتشابه. جئنا إلى هذه اللحظة من أماكن مختلفة. ربما سأرتعب من صوت التحطم والفوضى، وأرتدُّ راجفةً كما لو أن الطائر كان قنبلة. وربما تظن أنت أنني أبالغ وتقول: «**إنه مجرد طائر**».

ما بالي؟ أو ما بالك؟ إذا لم أشاركك تاريخي، إذا لم أشرح لك ما استحضرته في هذه اللحظة –أن صوت اصطدام الطائر بالنافذة بالنسبة لي كان أشبه بصوت قذيفة تنفجر– فكيف يمكنك أن تفهمني؟ إذا كنت أرتجف، محاولة استعادة واقعي الموضوعي، وأقول لنفسي: «**إنه طائر، أليس كذلك؟ إنه طائر، أليس كذلك؟**» ولا أشاركك صدمتي، فإنني أعزل نفسي، وأدفعك بعيدًا.

كل الأشياء التي لا نقولها، لا تخلق مسافة بيننا فقط، بل تخلق مجال قوة بيننا، قوة ضغط مستمرة. شخصان يعانيان من الألم مثل مغناطيسين يتنافران. لا يمكننا أو لا نريد أن نمد أيدينا لنجسر المسافة ونتواصل.

الكثير من رواندا –والكثير من سكان العالم– يواجهون هذه المشكلة. عندما تكون مصدومًا، يتضرر إحساسك بذاتك –بفرديتك. لون بشرتك، وخلفيتك، وآلامك، وآمالك، وجنسك، وإيمانك– كل هذه الأمور تُنتَهَك. تلك الأجزاء الأساسية من نفسك تُسرق منك. تُفرغ باعتبارك شخصًا، وتُسحَق، وذلك العنف، وتلك السرقة، تمنعك من عيش حياة تشعر بأنها ملكك. لكي تستمر في الوجود شخصًا كاملًا، فإنك تحتاج إلى إعادة خلق هويتك بنفسك، هوية غير ملوثة بكل ما استُخدم ضدك. تحتاج إلى تخيل ذات جديدة وبنائها من عناصر غير ملوثة. تحتاج إلى إعادة تشكيل نفسك بشروطك الخاصة.

أدرك الآن، أن تحقيق هذا يحتاج مني إلى أكثر من مجرد التحف المكدَّسة في حقيبة سفر. أحتاج إلى فهم تاريخي –التاريخ العميق. أعرف حقائق عن الإبادة الجماعية– الوحشية المتعمدة في القتل، واستخدام الاغتصاب وانتشار فيروس نقص المناعة بصفتها أدوات حرب. لكن هذا ليس كافيًا. ذلك الماضي، تلك القصة، لا يمكن أن تشعرني بالامتلاء. أحتاج إلى قصة إنسانية أطول، وأوسع، وأكثر اكتمالًا، وتاريخ لا يغمره الدم. أحتاج إلى الوضوح، وإلى منظور، وإلى الفرح، والجمال، والأصالة، والذكاء، والرؤية الشاملة.

لكن الحقيقة هي أنني أعرف بالفعل كيف أخطو الخطوة التالية في الحياة، وهي بسيطة. أحتاج إلى أن أكون شجاعة وهشَّةً. أحتاج إلى أن أمد يدي عبر المسافة، وأمسك بيد أمي، وأشاركها فرحي وألمي.

هذا صعب للغاية.

في خريف سنتي الثانية في جامعة ييل، بدأت أنظر إلى يديَّ -كانت يدي أمي. نظرت إلى قدمي -قدمي اليمنى على وجه التحديد، كانت إحدى أقدام والدي. واصلت محاولة فهم نفسي من خلال المواد الأكاديمية أيضًا -علم النفس، والتاريخ، والعلوم السياسية- ومع ذلك وجدت أن هذا النهج مفرط في التجريد والجمود، والقسوة.

ثم طلبت منا بروفيسورة التصوير الفوتوغرافي قراءة قصيدة عن فتاة في كونيتيكت تسير إلى المدرسة في البرد. أرادت أن تستقلَّ القطار، ولكنها كانت سوداء، والسود لم يكن يُسمح لهم بذلك.

في الجلسة التالية في ذلك الفصل، أخذتنا البروفيسورة في رحلة إلى مدرسة برودينس كراندل للفتيات الزنجيات في كانتربري في ولاية كونيتيكت. لم أعرف ذلك حينها، لكن ناشطة مناهضة للعبودية تُدعى برودينس كراندل فتحت المدرسة في عام 1831. في البداية، سجلت فيها الفتيات البيض فقط. ثم سمحت بتسجيل فتاة سوداء، فانسحبت مجموعة من الفتيات البيض. أُغلقت المدرسة لفترة، ثم أُعيد فتحها في عام 1833، للفتيات السود فقط. وفي عام 1834، هاجم حشد من الجيران الغاضبين المُهَدِّدين المبنى بالحديد والهراوات. بعد ذلك، أُغلقت المدرسة نهائيًّا.

عندما وصلنا، قالت بروفيسورتنا: «أحيانًا، ما لم يُكتب، هو أقوى ذكرى لدينا. إنه في الهواء، لذلك أريدكم أن تجدوه».

أمرتنا فقط بالتجول في المدرسة، وتأمل المكان، وتجميع قصة من التفاصيل التي نراها ونشعر بها.

هذه كانت المرة الأولى التي طُلب مني أن أضع نفسي في مواجهة الذكريات وأن أومن بما أعيشه.

كانت هذه أول مرة قيل لي فيها إن القصة، وكل المعلومات التي أحتاجها، موجودة بالفعل هناك. كل ما عليَّ فعله هو التمهل ومعرفة كيف أنظر، وكيف أصغي. كنت بحاجة إلى الثقة بأن التفاصيل المتبقية تحتوي على تاريخ القصة بأكملها.

مدرسة برودينس كراندل للفتيات السود كانت قد رُممت بدقة، والمبنى كان رسميًّا وصامتًا، بأعمدته وأقواسه، ومداخنه المزدوجة. تجولنا في صمت لمدة ثلاث ساعات. شعرت بالاشمئزاز ذاته الذي اجتاحني عندما وصلنا إلى مومباسا.

الخوف، ورهاب الأماكن المغلقة، والإحساس بأنني مُطارَدة. كنت عائدة إلى المدرسة مع كلير، المدرسة التي لا زجاج في نوافذها، وساحة اللعب في الخارج. شعرت بكراهية تتصاعد داخلي. سمعت المرأة تبكي، ذلك البكاء المستمر الذي لا يتوقف.

كان هناك كتاب بعنوان حول التاريخ الطبيعي للدمار للكاتب دبليو. جي. زيبالد. بدا لي وكأنه يعكس تاريخي، لذا التحقت بحلقة دراسية عن أعمال زيبالد. كانت المادة تُدرَّس بوساطة أستاذة الأدب المقارن كارول جاكوبس. كانت عيناها مرهقتين ناعستين، ولكنهما ثابتتان. كان صوتها الأجش بلكنتها الألمانية الغليظة تبعث الراحة في نفسي. كانت حاضرة وغائبة في آنٍ واحد، منغمسة ومتأثرة بأفكارها الخاصة.

كانت محاضرة البروفيسور جاكوبس الأولى لنا بمنزلة تحذير: «احذروا من افتراض أنكم تفهمون زيبالد. احذروا من الظن أنكم تعرفون ما يدور في ذهنه. احذروا من افتراضاتكم حول كيفية تقديمه للزمان والمكان. احذروا من افتراضاتكم حول الصور أيضًا – قد يستخدم صورًا من متحف معاصر في نيويورك ويضعها في سياق أوروبي قديم. احذروا من افتراضاتكم حول السرد، فبعض الشخصيات في كتبه حقيقية، في حين أن البعض الآخر ليست حقيقية. احذروا من افتراضاتكم حول الحقيقة. لن تخدمكم افتراضاتكم في هذه المادة».

قالت البروفيسورة جاكوبس إن مهمتنا هي أن نكون دائمًا متيقظين، والتحقيق في تفاصيل حياتنا ورسم خرائط –وإن كانت غير مكتملة– لعوالمنا الداخلية.

زيبالد كاتب صعب الفهم، غامض ومكثف، ألماني وُلد مع اقتراب نهاية الهولوكوست لكنه لم يكن يهوديًّا، إنه رجل نشأ في بلد دمر نفسه. إنه يملأ كتبه بصور عشوائية المظهر لمكتبات، وأعين، وحيوانات، ونوافذ، وأشجار.

أخبرتنا البروفيسورة جاكوبس أننا سنشعر بالارتباك، وأن علينا احتواء هذا الارتباك. زيبالد لم يكن ينوي تقديم معلومات كافية لنا. كانت الصور الغريبة، والأفكار المتشابكة، والتشويش الناتج عنهما محاولةً لتصوير النسيان الجماعي الذي عم ألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية.

في الحلقة الدراسية ذاتها، كان هناك فتى مكسيكي أو تشيلي – لم أعرف قط. كان يتحدث بسلطة مذهلة، ويلقي إحالات ومراجع حول نظرية الأدب السيميائي. لم أفهم شيئًا مما كان يقوله، لكنني وجدته ملهمًا.

ما زلت حتى الآن أستطيع فتح رواية زيبالد، **أوسترلتز** (**Austerlitz**)، وقراءة أي جملة منها فتبدو لي وكأنها تحتوي العالم كله. كانت الرواية بالنسبة لي مصباحًا، وعدسةً، وكل شيء. تدور الرواية حول رجل في منتصف العمر أُرسِلَ رضيعًا في أثناء الحرب العالمية الثانية من قبل والديه اليهوديين -**كندرترانسبورت**[1]- وهي جهود منظمة لإنقاذ الأطفال اليهود بإرسالهم ليُربوا في بريطانيا. قضى حياته البالغة كلها في البحث، كان يشعر بالتشوش، والانفصال، والضياع. لم يخبره أحد قط عن ماضيه.

يسرد زيبالد هذه الرواية من خلال ضبابية ساحرة، متتبعًا **أوسترلتز** وهو يحاول جمع شتات حياته من خلال هواجسه وفضوله وعاداته العقلية. توفي والدا **أوسترلتز** في الحرب، وكان حينها ما يزال طفلًا صغيرًا، وهو يرى آثارهما في كل مكان.

أسرتني الرواية منذ البداية. في الصفحة التاسعة، يصف **أوسترلتز** بلجيكا بأنها «رقعة صغيرة رمادية مصفرة بالكاد مرئية على خريطة العالم». يقول: «بلجيكا: **رقعة صغيرة بالكاد مرئية**. بلجيكا، البلد الذي استعمر وتوحَّش في رواندا. بلجيكا التي غيرت كل شيء ودمرت كل شيء. إذا نظرت إليها من الزاوية المناسبة، في الضوء المناسب، فإنها مثيرة للشفقة، صفراء اللون، وصغيرة».

قبل أن أحضر هذا الفصل، كنت أشعر في غالب الأحيان أن مشاعري خاطئة، وأن ردود أفعالي تجاه الأماكن خاطئة، لأن مشاعري وردود

(1) عملية نقل الأطفال، وهي مهمة إنقاذ تمت بين عامي 1938 - 1940، أُجلِيَ خلالها قرابة 10 آلاف طفل يهودي من الأراضي النازية أو التي احتلها النازيون -ألمانيا والنمسا وتشيكوسلوفاكيا، وأُرسِلوا إلى المملكة المتحدة، حيث وُضِعَ هؤلاء الأطفال مع أُسَر حاضنة أو مدارس هربًا من الاضطهاد في أثناء الهولوكوست؛ ومعظمهم لم يروا والديهم مرة أخرى. (المترجم).

أفعالي لم تكن متسقة من يوم لآخر. أحيانًا كان يروعني الطراز المعماري في جامعة ييل؛ وفي أحيان أخرى كان يمنحني شعورًا بالأمان. كنت أفترض أن هذا التذبذب الداخلي يشير إلى شيء هش في تفكيري أو غير مستقر في ذهني.

أراني زيبالد أننا نعيش في جميع الأزمنة والأمكنة في الوقت نفسه. كان شغله الشاغل نوعًا من الفيزياء –محاولة لتحديد ووصف ما أسماه «القوانين التي تحكم عودة الماضي». الماضي موجود دائمًا، يغلي في قدر مظلمة. تستدعي محفزات مختلفة أفكارًا مختلفة تطفو على السطح في أوقات مختلفة. ما يتغير هو ما نراه في اللحظة الآنية فقط.

كنت أحرص يوميًا على المرور بجانب أنيت، وهي امرأة تقف أمام قاعة الدراسات العليا تحمل دلوًا من الزهور التي تشتريها من المتجر وتبيعها فُرادى بربح ضئيل. بالكاد كان يلاحظها أحد.

لم تكن لها علاقة بالحياة الرائعة لمعظم الطلاب في رابطة اللبلاب[1]. لكن بالنسبة لي، بعقلي الجديد المتأثر بزيبالد، أصبحت رابطًا إلى ماضٍ دفين، تذكيرًا بكلير وهي تبيع لحم المعزة، وحمالات الصدر، وكل شيء للخروج من حياة اللاجئين المميتة.

لطالما كنت مراقبة بارعة، استخدمت هذه المهارة للتقليد والتلون، وليس للتحري. أجمع التفاصيل، والأدلة، والإيماءات والأنماط، ثم أعيد إنتاجها. رأيت في مهارتي هذه حيلة –وسيلة لفتح أبواب الحياة. التقليد يشتري لك مفاتيح المملكة.

---

(1) رابطة رياضية تجمع ثماني جامعات تعتبر من أشهر وأقدم وأعرق جامعات الولايات المتحدة الأمريكية وفي العالم. (المترجم).

لكنني لم أفكر قط في استخدام مهاراتي لنفسي، في جمع الأدلة عن ذاتي، وفحص إشاراتي وحركاتي. أخبرتني البروفيسورة جاكوبس بأن أكون على استعداد دائمًا، وأحقق دائمًا، وأحلل كل شيء، وأومن أن لكل شيء معنى.

جربت العلاج النفسي عدة مرات على مر السنين، لكنه كان يبدو لي مباشرًا جدًّا، ومتطفلًا، وطبيًّا للغاية. كانت تلك اللوحة لرامبرانت «**درس التشريح مع الدكتور تولب**» هي ما شعرت به تجاه العلاج. في اللوحة، يقف ثمانية رجال متشابهين تقريبًا، متوردي الخدود وملتحين، يرتدون أزياء سوداء بياقات بيضاء، ويحدقون إلى جسد رجل تاسع، عارٍ، ميت، وشاحب بشكل مروِّع، وقد سُلِخَت ذراعه. المشهد بالنسبة لي كان فضوليًّا ومقززًا، سواء بسبب التحديق إلى الجسد الميت العاجز، أو بسبب النظرات المتغطرسة والمتعجرفة على وجوه الرجال. كانوا يتصرفون وكأن العالم بأسره ملك لهم للتلاعب والفحص، حتى هذا الجسد في حالة الموت.

والآن يأتي زيبالد ليخبرني بأنني لست بحاجة إلى ذلك. لست بحاجة إلى سلخ جلدي حتى أصرخ، أو إلى كشف جروحي للآخرين. يمكنني أن أتعامل مع المشكلة بنفسي. يمكنني أن أعتبر عالمي كله نصًّا لي. يمكنني أن أتعلم فهم عقلي.

كانت كتبه تقدم طريقة، أو على الأقل تلمح إلى واحدة: إذا تعمق الشخص بما يكفي في ذاكرته وأولى اهتمامًا كافيًا للأدلة المتاحة، سيخرج السرد الذي يصنع معنى أخلاقيًّا وعاطفيًّا.

نظريته عن الذاكرة تعني أن بقايا تاريخي موجودة بالفعل. كل ما كنت بحاجة إليه هو طرح الأسئلة الصحيحة والبحث عن الإجابات بعين فاحصة. لماذا أستخدم خريطة الجي بي إس على هاتفي حتى وأنا في

الحرم الجامعي، رغم أنني أعرف وجهتي؟ لماذا أتحدث كثيرًا؟ هل كنت أخشى أن أختفي؟ لماذا أشرب الشاي فقط، ولا أشرب الماء البارد أبدًا؟ لماذا كنت أشعر بالانزعاج عندما يتحول لون الشمس إلى الأحمر؟

بعد رؤية أنيت، كنت أتجه إلى شارع بروسبيكت وألتقط صورًا للجذور والكروم التي تنمو خارج مقبرة شارع جروف التابع لجامعة ييل. كنت أريد إيجاد النظام والاتصال في العالم. كنت أبحث عن رابط حي، مسارٍ إلى جميع موتاي الذين لم يُدفنوا ولن يُدفنوا أبدًا. درست الأنماط في صور الكروم في المقبرة لأرى ما إذا كانت تطابق أنماط الأوردة في يدي.

في الصيف التالي، حضرت برنامج التنوع في جوجل. وفي أحد الأيام، طلبت منا مديرة البرنامج الحضور مبكرًا وفاجأتنا بقولها: «سنذهب إلى ديزني لاند!» أقلَّتنا حافلة إلى مطار سان فرانسيسكو.

في الرحلة القصيرة إلى لوس أنجلوس، أخبرت زميلًا لي عن حقيبة ظهر ميكي ماوس الخاصة بي. ما زالت تجعلني أبكي.

كانت استجابته مثالية. قال: «كليم، سنفعل **كل شيء**!».

أذهلتني ديزني لاند: لم يكن الموظفون المتنكرون في زي ميني وميكي، تذكيرًا سرياليًّا سعيدًا بكنزي المفقود فقط؛ كان المكان كله بالنسبة لي جنة -انتصارًا للخيال ودليلًا على إمكانية استجماع الذات والقول لنفسك: «**ما الذي تعتقد أنه حدث بعد ذلك؟**» ثم تحقق ذلك. اشتريت غزل البنات وأكلتها بلا خوف. لقد طفتُ في عالم صغير. كنت في عالم والت ديزني، داخل خياله وليس أي خيال آخر. كانت رحلتي المفضلة قراصنة الكاريبي، أحببت أن أكون على ذلك القارب. لم يكن القارب الذي ظهر في كل كوابيسي. كان الأمر مجرد «**إيبورايي**»، بعيدًا عن كل المشاعر السلبية.

2014-2011

18

افترضت لفترة طويلة أن أشباح ماضيَّ ستمنعني من الرغبة في العودة إلى رواندا. بالكاد كنت قد تعافيت من كينيا. ومع ذلك، في عامي الدراسي الثاني في جامعة ييل، عندما كنت في الثانية والعشرين من عمري، طلبت مني امرأة في الحرم الجامعي الانضمام إليها في رحلة خلال عطلة الربيع إلى رواندا. كانت جزءًا من مجموعة جمعت التبرعات لشراء خزانات مياه لقرية «أجاهوزو-شالوم» للشباب، وهي مجتمع في رواندا ممول من أمريكيين ومستوحى من نموذج الكيبوتس الذي أُنشئ للأيتام الناجين من الهولوكوست. كانت هذه المجموعة من جامعة ييل متجهة إلى رواندا في شهر آذار لتركيب خزانات المياه. وافقت على الذهاب.

على متن الطائرة، قال لي زاك إن كل شيء سيكون على ما يرام. لقد كان في وضع أكبر مما يمكنه استيعابه. شعرت بالذعر طوال الرحلة ووصلنا إلى القرية في وقت متأخر من الليل. تناولت قرص «أمبين»

للنوم، لكنني استيقظت قبل الفجر. قبل أن أغادر، كنت قد وعدت نفسي أنه حين أكون في رواندا، سأحتضن آلامي –لن أدفنها، ولن أعرضها، ولن أنكرها. سأحتفظ بها لي وحدي.

الشمس عند الشروق برتقالية زاهية.. البرتقالي الذي يدل على الكوارث؛ برتقالي إشارات الأمان، البرتقالي الذي أخبرني بودي ذات مرة أنه يشير إلى موت راهب أو قس. التقط زاك صورة لي وأنا جالسة على الشرفة، نصف مستيقظة، أرقب الفجر. شعري كان فوضويًّا وغير مُضَفَّر، وبدا عليَّ الارتياح.

لكن ذلك الشعور لم يدم طويلًا. درست المزيد من أعمال زيبالد. صنعت المزيد من الفساتين في محاولة لتطهير نفسي من شياطيني. قدَّمت إيلي فيزيل في متحف الهولوكوست التذكاري في واشنطن العاصمة، وعيَّنني الرئيس أوباما في مجلس إدارته. كان ذلك شرفًا كبيرًا، وراحة عظيمة، أن أعمل مع أناس ملتزمين بتذكر الماضي. ثم، في عام 2014، عندما كنت في السادسة والعشرين، سافرت إلى كيجالي مع وفد من المتحف لحضور حدث لإحياء الذكرى العشرين للإبادة الجماعية في رواندا.

كنت أصغر شخص في المجموعة المبعوثة المختارة لتروي قصة الإبادة الجماعية للأجيال القادمة. وكنت أيضًا الرواندية الوحيدة. نقلت حافلةٌ وَفْدَنا إلى الفندق من المطار. قلت لنفسي إنني بخير، رغم أنني كنت ما زلت أفحص كل غرفة بحثًا عن مخارج، تحسبًا للحاجة إلى الهروب، وما زلت أراقب وجوه الناس ولغة أجسادهم بعناية لأعرف بالضبط كيف يريدونني أن أتصرف، وكيف يريدونني أن أتكلم وأمشي، وما الذي يريدون مني فعله.

رائحة الهواء في كيجالي تشبه رائحة زهور البرتقال والليمون. كانت الشوارع نظيفة، ولا أحد يتسول. المدينة المتربعة بين التلال، كانت

تبدو كعاصمة إقليمية في توسكانا، حديثة ولكن ما تزال ريفية، ملأى بالكنائس، مع بعض المباني المكتبية الكبيرة وسط المدينة، وباعة الهواتف المحمولة عند كل زاوية. بالقرب من النصب التذكاري للإبادة الجماعية في كيجالي، افتُتِحَت مكتبة عامة رائعة جديدة بجدران زجاجية، وأسقف شاهقة، مُضاءة ومليئة بالذكاء والأمل، فضلًا عن المساحة. بدا لي أن الدولة كلها كانت منخرطة في هذا المشروع: رافعة رأسها عاليًا، مصممة على عدم الالتفات إلى الوراء لمعرفة مَن يزحف من الخلف. كان عبء التاريخ، وحضور التاريخ، ساحقًا. كانت رواندا تبذل قصارى جهدها لاحتواء الماضي وتقسيمه من خلال وضع تصنيف لكل ما حدث **قبل** الإبادة الجماعية –«**قبل**». كانت كلمة «قبل» بسيطة لكنها فعالة: كان ذلك حينذاك، أما الآن فكل شيء نظيف، وهادئ للغاية (قبل الإبادة الجماعية: قطع الخشب، وحمل الماء؛ بعد الإبادة الجماعية: قطع الخشب، وحمل الماء)، مع نظرة نحو الأفق فوق محيط هادئ بلا رياح، سلس، وأزرق للغاية، بلا جثث تطفو على السطح، ولا أجزاء تبرز من الجثث.

الآن، في كل تقاطع رئيسي تقريبًا كان يقف شبان مسلحون، سراويلهم مطوية داخل أحذيتهم السوداء اللامعة. كانوا يراقبون المرور والمارة. كنت أكره هذا ومع ذلك كانت رواندا بحاجة إلى ذلك. نحن جلبنا هذا لأنفسنا. عندما يبدأ مواطنو بلد ما في قتل بعضهم بعضًا، فإنك تحتاج إلى إعادة تأسيس النظام، وتحتاج إلى عرض مظاهر الحماية والأمن. لا يمكنك أن تسمح للجميع بالغرق في مخاوفهم المعقولة تمامًا.

في تلك الليلة الأولى تناولنا العشاء جميعًا في فندق «دي ميل كولين»، فندق «رواندا» بالنسبة لرفاقي المسافرين، لكنه بالنسبة لي كان الفندق الذي كان يأخذنا فيه خالي للسباحة. كان يشتري لنا الآيس كريم، وكنا

نجلس تحت المظلات في الظل. عندما كنا نغادر، كان يمزح دائمًا: «من الأفضل أن أواصل العمل بجد حتى أستمر في شراء الآيس كريم لكم!».

الآن هو ميت. لم يستدعه الرب.. لقد مات.

في اليوم الثاني هناك، ارتديت ملابسي، وانضمت إليَّ باقي النساء من وفد متحف الهولوكوست التذكاري، لحضور مأدبة غداء مع السيدة الأولى في منزل الرئيس. جميع شوارع كيجالي أصبحت مرقمة الآن –لم تكن مسماة أو مرقمة من قبل. قُطعت معظم الأشجار. كل شيء خرج من الظلال إلى النور. لا مكان للاختباء.

مفرش المائدة مطرزًا بالورود والطيور. كانت السيدة الأولى أنيقة ولبقة. أرادت أن تستمع إلى قصصنا، وتخبرنا قصصها.

الآن أصبحت للحكومة الرواندية سردية رسمية. قبل وصول البلجيكيين واستعمار رواندا، عاش الهوتو والتوتسي في سلام. لكن الاستعمار بني على فكرة أننا لسنا متساوين –أننا لا نمتلك إنسانية متساوية. فرض البلجيكيون أيديولوجيتهم القاسية: معتقدهم بأن الأشخاص ذوي أحجام جماجم معينة وأنوف بعرض معين هم أفضل وأذكى من الآخرين، وأنهم ينتمون إلى عرق متفوق.

تسربت هذه الأيديولوجية إلى العقلية الرواندية وتسببت في تدمير البلاد.

في صباح يوم الذكرى، جاءت حافلة إلى الفندق لنقلنا إلى ملعب أماهورو. كان من الصعب عليَّ تصديق أن هذا الحدث يحدث في ملعب. قبل عشرين عامًا، في شرق رواندا، طلب المسؤولون الحكوميون من الناس التجمع في ملعب «جاتوارو». اثنا عشر ألف شخص فعلوا ذلك، وقُتِلوا جميعًا.

ومع ذلك، انطلقنا نحو الرعب. جاء الناس إلى الملعب من جميع أنحاء رواندا، ينتقلون من حافلة إلى أخرى، ويمشون لأيام، لأن هذه كانت الذكرى السنوية، وهي المرة الوحيدة في العام التي يُسمح فيها للروانديين بالحزن. قبل أن تعلن الحكومة موسم الحداد –فترة مائة يوم تبدأ في السابع من أبريل– كانت البلاد تعيش في حالة من الاضطراب الذي لا يتوقف، حيث كان المواطنون يصرخون ويشتمون ويحرقون الأشياء غضبًا بشكل مستمر.

باستثناء تلك الأيام المائة، كان الروانديون يحيُّون بعضهم بعضًا بكلمة «**كوميرا**». كان الجميع لطيفين، وحازمين، وحذرين، وغامضين. «**كوميرا**» تعني «كن قويًّا».

حين دخلنا الملعب كانت هناك فرقة موسيقية تعزف. جلست في القسم الخاص بكبار الشخصيات مع الآخرين من متحف الهولوكوست. على مقعدي كان هناك صندوق صغير به دبوس ليوم الذكرى مصنوع من الخرز. لم يكن أي من الروانديين خلفي يعرف من أنا أو أنني واحدة منهم. أردت أن أختفي. أحضرت معي وشاحًا ولففت نفسي داخله. أبقيت نظارتي الشمسية على عينيَّ. لم أرغب أن يراني أحد.

بدأ جميع مَن حولي مِن الناس بالصراخ. بدأت أولًا امرأة، ثم أخرى، ثم أخرى. وبعدها بدأ الرجال بالصراخ. بدأت فعاليات برنامج يوم الذكرى بإعادة تمثيل مختزلة للغاية لتاريخ رواندا، من الاستعمار وحتى يومنا هذا –غناء، ورقص، في عرض ضخم. أكثر من ستمائة شخص شاركوا في العرض. الجميع يعرف الحبكة الأساسية.

صرخ صوتٌ من خلال نظام الإذاعة العامة: «بدأت عملية نزع الإنسانية. وأصبح البشر مجرد أشياء». بعد بضع دقائق، تحولت الراقصات اللاتي جسدن المستعمرين البيض إلى عمال الإغاثة البيض.

بعد ذلك بوقت قصير، جسَّد مئات الممثلين الرونديين القتل والموت بشكل تمثيلي.

استمر الصراخ طوال العرض. كان صراخًا غير متوازن. تحول العويل إلى شيء مشحون بالحيوية، شديد الانفجار، وبركانيٍّ خارج السيطرة إلى درجة أن الحراس في السترات الصفراء بدؤوا في إخراج أكثر الأشخاص المفجوعين من بين الحشود. وعلى أرضية الملعب، أعاد الممثلون الذين جسدوا جنود حفظ السلام من الحكومة الحالية، الرونديين الموتى إلى الحياة.

لم يعجبني تنظيم العرض، لكن ما هو التنظيم الذي سيكون مناسبًا لحدث مثل هذا؟ لم تكن هناك أي طريقة صحيحة للقيام بهذا –لجمع البلد لبضع ساعات من أجل تذكر قرابة مليون حياة أبيدت، والملايين الأخرى التي دُمِّرت.

نهض الرئيس كاجامي، الرشيق، والمتألق، والجدي، ليتحدث. شرح للحاضرين، وللعالم، أن الرونديين بحاجة إلى الاتحاد وشفاء أنفسهم، لأننا إن لم نهتم بأنفسنا، فلن يعتني بنا أحد.

خلال خطابه، كان كاجامي يتنقل بين الإنجليزية ولغة الكينياروندية، كي يفهمه كل من الشخصيات المهمة ومواطنوه. ألقى باللائمة على الاستعمار في الإبادة الجماعية، واصفًا إياها بأنها انعكاس مشوه لعقلية مريضة –تجسيدًا لهوية الأوروبيين المظلمة. كانت الاستراتيجية السردية التي استخدمها كاجامي في خطابه منطقية. قدم قصة بسيطة وسهلة الاستيعاب: **جاء البلجيكيون، نشروا الشر، ورحلوا. أما بقيتنا فقد ظلوا هنا.**

كنا بحاجة إلى إيجاد طريقة للتعايش مع حقيقة لا تحتمل. كنا بحاجة إلى الاعتراف بحقائق غير متوافقة مع إيمان ثابت بالبشرية، وغير متوافقة حتى مع أي تعريف عقلاني للرب.

استمرت الخطب. واستمر البكاء. واستمر الصراخ طوال الوقت. أخرج الحراس ذوو السترات الصفراء أكثر من مائتي شخص من الملعب. كان هناك الكثير من الألم. شعرت بخجل شديد. لم أرغب في أن أكون مبعوثة لهذا. لم أرغب في الاستمرار في سرد هذه القصة للأجيال القادمة. ستحطمني. أردت بدلًا من ذلك أن أختبئ داخل وشاحي. أردت أن أحلق بعيدًا.

فقدت امرأة بجانبي وعيها. وجدت نفسي أتساءل ما إذا كانت حقيقية أم أنني أتخيلها. لا يمكن أن تكون حقيقية، لكن جسدها كان موجودًا أمامي.

فررت إلى المنزل وبقيت في السرير لمدة أسبوع.

بعد عام، سافرت إلى الشرق الأوسط مع مركز كارتر ضمن وفد للتعرف على أوضاع اللاجئين. حزمت كتبي وشموعي، وزرت مخيم «عايدة» للاجئين، على بعد ميل من بيت لحم، في الضفة الغربية. كان اللاجئون هناك فلسطينيين. كانت هذه أول مرة أزور فيها مخيمًا لا يشبه سكانه ملامحي.

في نهاية الرحلة تقريبًا، زرنا السياج الأمني، والحاجز الضخم من الخرسانة والأسلاك الشائكة الذي يفصل إسرائيل عن فلسطين. كنت قد قرأت عنه، وكنت أعلم عن الجدران، لكن رؤية هذا الوحش، هذا النصب التذكاري المهيب للترهيب والخوف، والانتظار في طوابير للمرور بعد الإجراءات الأمنية... كان بمنزلة صدمة لي. ترى رجالًا مسلحين. ترى أطفالًا مسلَّحين. تُقتاد بأصوات غير مرئية إلى مكان يبدو وكأنه ممر للماشية.

من هناك، تنعطف حول الزاوية وتتجاوزها، فتصبح الجدران خضراء، مع مساحات شاسعة من الرمادي والأخضر، ولا يوجد سوى الأصوات –أصوات بلا أجساد، تصدر الأوامر. تلك الأصوات، وتلك الأوامر، تجعلك تشعر بالصغر. لا ترى إنسانًا. لا ترى شخصًا. أنت لست شخصًا. أنت تسمع صوتًا فقط.

تسبب حذائي في المشكلات. كنت أرتدي حذاء أسود، يشبه أحذية الجنود، مصنوعًا من الجلد بكعب يبلغ طوله بوصتين ومشبك فضي على الجانب. كنت قد ارتديت الحذاء في رواندا.

أراد الحراس عند البوابة معرفة أمر حذائي. وكذلك فعل ضباط الأمن في المطار. استجوبوني لمدة ساعتين. بكيت معظم الوقت. أرادوا أن يعرفوا من أين اشتريت حذائي. أين ارتديته. ماذا كنت أفعل في إسرائيل. ماذا كنت أفعل في فلسطين. جعلوني أخلعه وفحصوه.

كنت مهتمة بمعرفة سبب اهتمامهم بي –زيبالد علَّمني ذلك. ما الذي كان يعنيه حذائي بالنسبة لهم؟ ماذا يمكن أن تعلمني هذه اللحظة؟

بعد استعادة حذائي، تمالكت نفسي وركضت نحو البوابة. أوقفوني مرة أخرى. سحبوني جانبًا وفتشوا حقائب اليد الخاصة بي. كنت في دورتي الشهرية. كنت أحمل سدادات قطنية إضافية وملابس داخلية احتياطية في حقيبتي. أخرجوا هذه الأشياء، وتفحصوها. شعرت بالإهانة.

بحلول الوقت الذي صعدت فيه إلى الطائرة كنت أبكي مرة أخرى. كنت أبكي طوال الوقت. كنت في الدرجة الأولى، لكن لا مستوى الخدمة ولا كمية الشمبانيا كانت قادرة على إنهاء ذلك الكابوس كله.

ومع ذلك، كان لدي جواز سفري الأمريكي. كان بإمكاني الخروج من هناك.

2016-2015

19

كانت الفتيات في المرحلة الابتدائية في أكاديمية «بالم بيتش داي» يرتدين زيًّا موحدًا – كنزة باللون الأصفر. وكان الأولاد يرتدون قمصان البولو القطنية البيضاء، وكل قميص مطرز بحروف «أ.ب.ب.د» بخيط كحلي. سافرت إلى بالم بيتش من نيو هافن لإلقاء كلمة، وكالعادة، كنت أرتدي ملابس أنيقة للمناسبة: فستان على شكل حرف A وحذاء بكعب عالٍ. لم أكن أبدو ودودة؛ كنت أبدو واثقة ومسيطرة. ومع ذلك، نظر إليَّ الطلاب ذوو الخدود الناعمة والبراءة التي ترتسم على ملامحهم، بأعينهم المستديرة القمرية البريئة، المليئة باللطف والبراءة.

بعد انتهاء الاجتماع وخروجنا جميعًا من قاعة المحاضرات، لاحظت في الممر فتاة صغيرة تحدق إليَّ بلا ارتباك. بدأت تمشي نحوي، ثم شعرتْ بالخجل واختبأتْ خلف معلمتها التي انحنت بجانب الطفلة وهمست لها بلطف شديد: «يمكنك الذهاب لتحيتها».

كان أمرًا بسيطًا، ولكنه هز شيئًا داخلي. كنت قد نسيت مدى رقة الكبار وعطفهم مع أطفال الآخرين. تلك الفتاة شعرت بالأمان هنا، في هذه المدرسة الجميلة، مع حماية بسيطة تتمثل في ساق معلمتها.

لم أكن يومًا حامية عطوفة. أحب أطفال كلير، لكنني عمدت وبإصرار على تدمير رقتهم. طريقتي في رعايتهم كانت عسكرية. كانت مهمتي حمايتهم من الأذى والموت. كنت أعدهم للأسوأ.

لم يكن لدى هؤلاء الأطفال هامش أمان، ولا وسادة حماية، ولا حتى إشرافًا كافيًا. أطفال كلير وأشقائي الأصغر، بالإضافة إلى ابن خال صغير يعيش أيضًا مع كلير، كانوا يشاهدون التلفاز حتى الساعة الحادية عشرة مساء، ويغفون في الفصل الدراسي. كانوا آخر الأطفال الذين يُصطحبون يوميًّا من برامج الرعاية بعد المدرسة بسبب جدول عمل كلير، وإذا أخرَّ مدير كلير، كلير بسبب العمل الإضافي، أو إذا تأخر القطار، كانت تصل متأخرة أكثر.

في أحد أيام الجمعة بعد الظهيرة، عدت إلى المنزل ووجدت فريدي وأصدقاءه ممددين على الأرائك بعد تمرين كرة القدم، يشاهدون البرامج الرياضية. انفجرت غضبًا قائلةً: «هل تعلم أن هناك شخصًا آخر يتدرب على اختبارات السات الآن؟ لماذا لم تنظف غرفتك؟ لماذا لم تغسل الأطباق؟».

أجابني فريدي: «إنه يوم الجمعة».

فقلت له: «أعلم أنه عطلة نهاية الأسبوع! لا يهمني أننا في عطلة نهاية الأسبوع! اطلب من هؤلاء الأطفال مغادرة المنزل». وصرخت أيضًا في أصدقاء فريدي: «عودوا إلى منازلكم واقرؤوا شيئًا ما. لا تشاهدوا هذه البرامج الغبية». كرهوني جميعًا.

كنا جميعًا محطمين. كنت محطمة للغاية. كان ينبغي أن أصرخ في وجه العالم، لكنني كنت أصرخ في وجه هؤلاء الأطفال بالذات. لم أكن آمنة، ولم أكن لطيفة.

عندما عدت من أكاديمية بالم بيتش داي، كانت لدي مهمة جديدة: أن أبعد أطفال كلير عنا، ولو لبعض الوقت. كنت بارعة في التعامل مع النظام؛ كنت أعرف أين أجد المنح الدراسية، وكيف أملأ استمارات المساعدات المالية. كنت أعرف أنه إذا كانت لجنة القبول في إحدى المدارس لديها شكوك حول استعداد أحد أطفالنا الأكاديمي، يمكننا أن نعرض إعادة دراسة الصف.

لذلك وضعت أطفال كلير على المسار الذي سلكته: غادرت مارييت لتدرس فصلًا إضافيًّا بعد التخرج في أكاديمية القيادة الإفريقية في جنوب إفريقيا، ثم التحقت بجامعة أمريكان في واشنطن العاصمة؛ أما فريدي فالتحق بمدينة ومدرسة موسهارت للأطفال قرب شيكاجو، ثم التحق بأكاديمية ميلتون، وهي مدرسة داخلية خارج بوسطن؛ وتبعت ميشيل فريدي إلى أكاديمية ميلتون بعد ثلاث سنوات. كان فريدي نجم فريق كرة القدم في سنته الأولى، كما كان محبوبًا من الجميع، وصورته على غلاف مجلة المدرسة. كنا أمريكيين صالحين، حين أردنا أن نكون كذلك.

لم يكن لدي منزل خاص بي بعد تخرجي من الكلية. لم أستطع العودة إلى عائلة توماس. لقد منحوني كل ما منحوه لأطفالهم. كانت السيدة توماس تفهمني في أكثر حالاتي هشاشة، وتهتم بي. كانت تعرف أنه إذا حَرَّكَتِ الأشياء في غرفتي في أثناء غيابي، سأضطر إلى إعادة ترتيبها. كان لديها دائمًا الفشار وشاي البابونج. لكنني شعرت أنني بحاجة إلى المضي قدمًا – النضوج. لم أستطع العيش مرة أخرى

في كينلوورث. لم أستطع العودة إلى منزل كلير. لم أستطع العيش مع والديَّ والتعريف عن نفسي مرة أخرى باعتباري ابنتهما. حتى أشقائي الأصغر لم يعيشوا مع والديَّ –كانوا يعيشون مع كلير.

كان لدي خيارات –خيارات رائعة ووافرة. كان بإمكاني السفر إلى نيويورك والبقاء شهرًا في شقة فاخرة لصديق. كان بإمكاني السفر إلى بالم بيتش لأكون ضيفة في منزل جميل وجذاب آخر، وأحضر حفلات على غرار «جاتسبي» وأضحك مع فتيات شقراوات مسمرات البشرة.

ولكن ماذا بعد ذلك؟ المزيد من السفر؟ المزيد من الترف؟ المزيد من الامتلاء والتفريغ والتذوق والشرب، المزيد من قول «نعم، من فضلك» و«شكرًا جزيلًا»، إنها دورة كنت أعلم أنها لن تنتهي أبدًا لأنني لم أمتلئ بعد، ولم أعترف بَعْدُ بالفراغ الهائل الذي بداخلي.

تحولت هذه الحالة إلى نوع من الجنون، واختلال في التكرار –طريقة لإبقاء القصة مستمرة؛ الاستمرار في الابتسامات التي تنثر الخرز، لكن دون الوصول إلى خاتمة. كنت بحاجة إلى التوقف. كنت بحاجة إلى الاستقرار. كان صديقي رايان؛ وهو لاعب هوكي من الساحل الشرقي، وكنت قد بدأت مواعدته في ييل بعد انفصالي عن زاك، يريد الانتقال إلى كاليفورنيا. كان لطيفًا وصبورًا ويعاملني بشكل جيد. لم يكن لديه أي اهتمام بأعمال زيبالد، ولم يكن لديه هوس في فحص تفاصيل حياته. كان هذا يزعجني أحيانًا، لكنه كان يجعلني أشعر في الغالب بالأمان والسيطرة. لذلك انتقلت -انتقلنا.

استأجرت مكانًا بالقرب من لافاييت بارك، في واحد من القليل من المباني القديمة الكلاسيكية في سان فرانسيسكو. كنت أمارس اليوجا مرتين في اليوم أحيانًا. كنت أمشي في تلال بيركلي. كانت تلك التلال تشبه رواندا.

في الأماكن العامة، كنت أؤدي دور نفسي. أضع المكياج المناسب، وأرتدي المجوهرات المناسبة، والفستان المناسب. لم أكن أحدًا، بل كنت كل شخص. لكن لم يكن أي دور يبدو مناسبًا تمامًا. كان كل أداء يشعرني بالتباعد، وكأنه خدعة.

كنت أقف أمام الجمهور وأحاول تقديم قصتي بطريقة ذات معنى. أحيانًا كان الناس ينصتون، وأحيانًا لا. بعض الناس بدوا مذهولين ومتأثرين، وبعضهم بدوا متململين وفخورين بأنفسهم، وكأنهم يضعون علامة في قائمة مهامهم.

كنت أقول: «هذه قصتي، استخدموها الآن أو لاحقًا. عندما تحتاجونها، ستكون هناك من أجلكم. ربما في يوم ما ستواجهون تحديًا، وستتذكرون قصتي. ستفكرون في كلير. ستتذكرون أن تضعوا غروركم في حقيبة وتلقوا بتلك الحقيبة بعيدًا. ستتذكرون أن تكونوا طيبين وكريمين، وأن تكونوا بشراً أفضل. ربما ستدركون أنكم بحاجة إلى تعلم سرد قصتكم الخاصة. ستبدؤون في التفكير: **كيف حصلت على ممتلكاتي؟ كيف وصلت إلى الإيمان بإلهي؟**

«أعلم أن لدي امتيازًا كبيرًا في كوني آمنةً، وأمتلك الوقت والراحة والتعليم لأحاول تشكيل تجربتي إلى شيء متماسك، لأفكر بشكل نقدي وإبداعي حول حياتي. هناك فرق بين القصة والتجربة. التجربة هي الفوضى الكاملة –كل ما حدث فعليًّا؛ أما القصة فهي الأجزاء التي تربطها ببعضها، ما تصنعه منها دليل على وجودك الخاص. التجربة هي الندوب على ساقي؛ قصتي هي دليل على أنني على قيد الحياة. قصتك، المعنى الذي تختاره عندما تستمع إلي، قد تكون مختلفة؛ قد تقول قصتك إن ندوبي كانت بسبب خطأ مني، ويجب أن أشعر بالخجل».

على خشبة المسرح، كنت أحاول أن أكون ذات صلة بالموضوع وألا أكون مخيفة جدًّا. إذا كنت أتحدث إلى أقراني، كنت أقول: «لقد شعرت بالرعب وأنا أشاهد فيلم **مباريات الجوع (The Hunger Games).** ربما شعرت بذلك أيضًا؟ كانت المنطقة التاسعة تشبه زائير خلال الحرب. كان ذلك صحيحًا: القطط البرية في المباني المدمرة، والعالم الغارق في الدماء والرمادي الداكن.

كنت دائمًا أنتعل حذاء بكعب خمس بوصات. لا شك أن الناس تساءلوا: **لماذا ترتدي متحدثة في الشؤون الإنسانية هذا الحذاء؟** لكنني كنت بحاجة إلى أن أكون محور الاهتمام، أن أكون محبوبة ومعجَب بها. كنت بحاجة إلى تحدي توقعات الناس. كنت بحاجة إلى أن أكون خلقي الخاص: محددة، ومدهشة، وفريدة من نوعها.

في الغالب، أزعجتني المعاملة التي نتجت عن مشاركة قصتي. البعض أراد مساعدتي، ولم يكن بمقدورهم تحمل فكرة أنني لم أهزم. كان الذعر يتسلل إلى وجوههم عندما كنت أقترح على أولئك الذين يعتبرون أنفسهم أقوى مني أن المعاملة يمكن أن تسير في الاتجاهين – أنني أستطيع مساعدتهم أيضًا.

غالبًا ما كنت أجسد في أذهانهم شخصية شهيدة أو قديسة. كنت مميزة، مميزة جدًّا، وقوية للغاية، وشجاعة للغاية، وأميرة الإبادة الجماعية، وليس بالتأكيد واحدة من عشرات الجثث المظلمة المهاجرة المكدَّسة في قارب هش، تلك التي كانوا يرونها في تلك الصور المروعة على الصفحة الأولى من **نيويورك تايمز**. لكنني كنت وما زلت شخصية من خيالهم – أسيرة افتراضاتهم. لست نظيرتهم. في بعض الأحيان كانوا يسألونني إذا كنت أشعر بالذنب لأنني نجوت.

كنت أجيب: «أوه، لا. لقد فعلت كل ما بوسعي لأبقى على قيد الحياة. هل تعتقد أنه ينبغي لي أن أشعر بالذنب لأنني نجوت؟ هل تشعر أنت بالذنب لأنك لم تكن في أحد برجي مركز التجارة العالمي يوم 11 سبتمبر؟».

في إحدى الأمسيات الشتوية، بعد قرابة عام من إقامتي في سان فرانسيسكو، جلست في ندوة تابعة لمنظمة غير ربحية دولية كانت ترغب في التعاون مع قادة الفكر للابتكار، أو شيء من هذا القبيل. غالبًا ما كنت أدعى للاندماج مع نخبة وادي السيليكون. كنت امرأة؛ وهو مؤشر **جيد**. وسوداء؛ وهذا مؤشر **جيد** آخر، ولاجئة؛ وهو مؤشر **مثالي**.

اعتقدتْ هذه المنظمة غير الربحية أنهم يريدون سماع قصتي، واعتقدتُ أنا أنني أرغب في سردها. لقد أعلنوا ذلك على أنه «أسبوع اللاجئين»، وكنت أنا اللاجئة الممثلة التي تتحدث مع العقول العظيمة في الاقتصاد الجديد حول ما ينبغي لنا فعله لحل أزمة اللاجئين.

كان العالم يهتم كثيرًا بأمر اللاجئين، ولكن لمدة ثلاثين ثانية فقط. كانت حلب تحت الحصار. المهاجرون استمروا في الموت في البحر المتوسط. وكانت صفحات إنستجرام وفيسبوك مليئة بتلك الصورة المؤلمة للطفل الغريق على الشاطئ. كانت الصورة قوية جدًّا لدرجة أنه كلما سمعت كلمة «لاجئ»، كنت أرى ذلك الطفل. أرى الطفل، والشاطئ، والماء، والقارب الأزرق اللامع.

هذا الرعب المنظم والمختار بعناية يتخلله أحيانًا بطل ينشر مقاطع فيديو على اليوتيوب من وسط أنقاض سوريا. بعض هؤلاء الرجال الذين ينشرون مقاطع الفيديو كانوا نجوما في وسائل التواصل الاجتماعي بطبيعتهم - وسيمين، وبليغين، وشجعان، ومميزين. كان هذا

الاستعراض الذي يظهر مدى تعاطفي مع الناس على وسائل التواصل الاجتماعي أفضل بالتأكيد من تجاهلهم

ولكن من الصعب إبقاء جميع تلك الحيوات الفردية في بؤرة الاهتمام. عشرات الآلاف يموتون هناك بعيدًا، وها هو هذا الطفل الثمين أو ذلك البالغ الرائع. أفهم هذا. كنت أفعله بنفسي. من المستحيل فعليًّا أن تحتفظ بجميع تجارب المعاناة في العالم في ذهنك في الوقت ذاته. العقل البشري لا يستطيع التعامل مع هذا الكم من الألم. لا يمكنك التمييز بين جميع هؤلاء الأشخاص المتميزين، والتعاطف مع كل شخص منهم على حدة. لا يمكنك سماع قصصهم جميعًا والاعتراف بكل فرد منهم على أنه قوي ومميز، ثم مواصلة حياتك اليومية.

في الندوة الحوارية، ناقشنا دور منظمة الصليب الأحمر وكيف ينبغي لها أن تتدخل. ثم ذكر أحد زملائي في الندوة شيئًا وجده مضحكًا: أن اللاجئين بدؤوا يطلبون من عمال الإغاثة، بالإضافة إلى الطعام والماء والمأوى، وسيلة لحفظ الصور.

بالنسبة له، هذا الطلب بمنزلة نكتة –موقف كوميدي كلاسيكي: نحن هنا نتحدث عن قضية ذات أهمية بالغة وثِقَلٍ كبيرين، ثم فجأة، أوه، هل يمكننا أن ننتقل للحديث، ولو لثانية واحدة، عن ذلك الطلب التافه الذي يبدو من العالم البدائي؟

لكن الأمر ليس مضحكًا لأولئك المعنيين به. لم تكن لديَّ سوى صورتين فقط لنفسي في رواندا. لدي بضع صور فقط لأي شخص من عائلتي قبل عام 2000. وكان هذا مصدرًا أبديًّا للارتباك. أردت رؤية الأشخاص الذين أنتمي إليهم. كنت أرغب في صور لهؤلاء الأشخاص لأساعد نفسي على فهم من أنا ومَن كنت لأصبح.

لكن تخزين الصور الرقمية لم يكن الموضوع الذي يرغب زملائي في الندوة مناقشته. لقد جاؤوا هنا لإنقاذنا. كانوا يخططون ليكونوا المنقذين.

أخذت نفسًا عميقًا وأخرجته ببطء. حافظت على هدوئي. كنت بارعة جدًّا في الجلوس أمام مجموعة والحفاظ على هدوئي. ثم في منتصف المساء، توجه إليَّ أحد زملائي في الندوة، وهو ملياردير ودود، وسألني: «إذًا، كيف تشعرين كونك واحدة منا؟».

انكمشت في مقعدي. كنت قد وضعت أحمر شفاه أرجواني اللون في تلك الليلة، لكن فقط على الحواف الداخلية لشفتي. وجد الناس ذلك مثيرًا للاهتمام. «واحدة منا» –ماذا كان يعني بذلك؟ واحدة من الأغنياء؟ واحدة من البيض؟ واحدة من الأشخاص الذين لم يُطردوا من المملكة؟ واحدة من الأشخاص على قمة الهرم الإنساني؟ واحدة من الأشخاص الذين يعطون، وليس من أولئك الذين يأخذون؟ واحدة من الأشخاص الذين لم يعانوا قط؟ لم أفهم ماذا يعني بكلمة «منا» ولم أرغب في مجاراته والعيش داخل قصته.

فقلت، مبتسمة ولكن بحزم: «في الحقيقة، كنت أفضل أن تسألني كيف وصلت إلى هنا». ما زلت هادئة، ما زلت أبتسم، لكنني لم أعد ألعب الدور المتوقع مني. ثم أضفت: «اسألني عن رحلتي. اسألني لماذا أجلس هنا –ما الذي أعرفه ولا يعرفه اللاجئون الآخرون، أو من يعانون من التشرد. ما الذي أعرفه ولا تعرفه أنت؟ لقد اخترقت نظامكم».

قال الملياردير، وقد بدا عليه بعض الارتباك والانزعاج لأنني خرجت عن النص المتوقع: «دعينا نتحدث عن ذلك بعد اللقاء». وانتقل بنا مدير الندوة إلى موضوع آخر.

بعد انتهاء الجلسة، وجدت الملياردير وسألته إن كان يرغب في مقابلتي لشرب الشاي حتى نتحدث. قال لي أن أرسل له بريدًا إلكترونيًّا لتحديد موعد. كان لدي عنوان بريده الإلكتروني من منظمي الجلسة.

أرسلت له رسالة، لكنه لم يرد.

مكتبة
t.me/soramnqraa

2017-2016

20

كنت ما أزال شابة من الصعب أن تُحَبَّ. أرغب في أن أكون معبودة ومعجبة، لكن دون أن أكون محتاجة. كنت أريد الاحتفاظ بحقي في الاختفاء. كان الاستقرار في مكان واحد، وبناء عش لي، يثير في داخلي مخاوف بأن أحدهم قد يسحبني بعيدًا. لمواجهة ذلك، كنت بحاجة إلى الهروب. كنت أحتاج التأكيد لنفسي أنني ما زلت أعرف كيف أهرب.

ظل جسدي ذاته غريبًا عني – عبئًا. كنت مضطرة إلى حمل هذا الشيء معي – هذا الجسد، ببشرته الداكنة، وشعره الأشعث، وأقدامه الهزيلة؛ هذا الجسد، بما يحمله من عيوب؛ هذا الجسد الذي خُرِّبَ وسُرِق. كان هذا أصعب شيء في العالم: أن أتذكر الخراب وما زلت أومن بأن جسدي سحري، أن أتذكر التمزق ومع ذلك ما زلت أعتقد بأن جسدي رائع، ومقدس، وقادر على الإبداع.

هناك لحظات ما أزال لا أملك لها كلمات. عقلي يقفز من الرعب والدمار إلى الألوان. أقول: «**كان أزرق. كان أخضر**». الذاكرة تجعلني أرغب في حرق كل شيء؛ تدمير الكون كله، وعقلي لا يستطيع استيعاب الحبكة. لكن عليَّ الاستمرار في المحاولة -علينا مواصلة المحاولة. عليَّ إيجاد طريقة لأخبركم: **لقد حدث هذا. جاء رجال بهدف تدمير جسدي وتحطيم مستقبلي. لكن لا يمكن تحطيمي.**

الاغتصاب هو قصة النساء والحرب -الفتيات والحرب، مئات الآلاف من الأمهات، والبنات، والأخوات، والجدات، والقريبات، والخالات في بلدي وحده، ومئات الملايين حول العالم. قُتل الكثير من الرجال في المذبحة. ماتت الكثير من النساء لاحقًا بسبب الإيدز. الاغتصاب والدمار -الجسدي، والنفسي، والاجتماعي- ظل ملازمًا حتى لأكثر الأماكن رقيًا، وأناقة، وخصوصية، لعقود بعد الحرب. **الليل**، ليس قصة امرأة. يعتقد الرواندي‌ون أننا مرتاحون مع الصمت. لكن الصمت يستوعب الكراهية ويؤيدها.

أحاول أن أعيد استجماع نفسي، كي لا أخاف الرجال أو أحتاجهم لحمايتي، كي أستعيد قوتي. في هذه الأيام أقرأ لأودري لورد. إنها ضوء طريقي. تقول: «لقد علمونا أن الصمت سينقذنا، لكنه لن يفعل». وتقول أيضًا: «أنا أشعر، إذًا أستطيع أن أكون حرة». وتقول: «الإثارة الجنسية هي مقياس بين بدايات إدراكنا لذاتنا وفوضى أقوى مشاعرنا». أي رجل أسمح له بدخول قلبي وحياتي يجب أن يفهم حجم العاطفة داخل امرأة اختبرت بالحرب.

عندما أخبرني رايان لأول مرة أنه يحبني، كنت قاسية. قلت: «عذرًا، ماذا يعني ذلك حتى؟ أنا. **أُ.حِ.بُّ.كِ**. ماذا يعني ذلك حقًّا؟» في ذلك الوقت، كنت أعتقد أنه يفرض إرادته عليَّ. كنت أعتقد أن قوله أناني.

قلتُ: «حسنًا، إذا كانت هذه هي القصة التي تريد أن ترويها لنفسك، أنك تحبني، فأعتقد أنك تحبني».

كان رايان صبورًا للغاية، ولطيفًا جدًّا، وأبيض البشرة ونبيلًا، منفصلًا تمامًا عن الدراما خاصتي بصفتي فتاة ناجية من إبادة جماعية إفريقية، وربما كان ذلك هو المغزى. والدته برمجته ليكون كاثوليكيًّا صالحًا. كان يلعب الهوكي الدوَّار. كان يعمل سائقًا لأوبر وليفت. كان يجلس على الأريكة في شقتنا المشتركة طوال يوم الأحد ليشاهد كرة القدم أو كرة السلة أو البيسبول أو الأفلام. كان يأكل رقائق البطاطس. كنت أدوِّن الملاحظات طوال الوقت.

قضيت خمس سنوات مع رايان. حماني، وأحبني، وتحملني. كانت لدي العديد من القواعد. لم يكن بإمكانه أن يناديني بأسماء مثل «**كب كيك**»، أو «**عسل**»، أو أي أسماء مستوحاة من الطعام. لم يكن بإمكانه أن يصفني بـ«**المتحكمة**»، أو «**العنيدة**»، أو «**الفظة**»، أو أي شيء سلبي.

كنت أحتاجه، أحتاجه حقًّا. طلب مني الأصدقاء الانضمام إليهم في مهرجان «برنينج مان». ذهبت، وبقي رايان في المنزل. على الفور أدركت أنني نصبت لنفسي فخًّا. هذا هو المكان الذي يذهب إليه الناس ليختبروا النشوة ولكن أيضًا ليقتربوا من المعاناة – معاناة اختيارية، وفاخرة. كانت الصحراء حارة ومغبرة، ملأى بالخيام. في الصباح الأول استيقظت وقلت: **ماذا فعلت؟ أين الطعام؟** شعرت بالبرد. كنت قد تركت بطانيتي الزرقاء في المنزل.

في ذلك اليوم وتلك الليلة، ارتديت أزياء، وشربت، ورقصت، ونظرت إلى الفن، وأصبحت مشوشة. الوقت والمكان أصبحا مثل المشكال[1]، والألوان تدور بلا أساس ثابت. أردت العودة إلى خيمتي، فاستخرجت خريطتي المحيرة. كان المخيم منسقًا ومضبوطًا مثل الساعة، ومع ذلك لم يكن أي شيء منطقيًّا أو واضحًا. استغرقت الرحلة للعودة إلى الخيمة ساعات، بل أيامًا، وربما سنوات. في النهاية وصلت إلى مخيمنا، وفي صباح اليوم التالي استيقظت وقلت لنفسي: «**حسنًا، هذا يوم آخر يجب أن أنجو منه**».

أصدقائي قد غادروا بالفعل لمغامراتهم اليومية. وحدي تمامًا. بدأت أبكي، وأخذت هاتفي ونظرت إلى صور أطفال كلير. قلت لنفسي: «**لدي عائلة. أنا بخير. لدي حياة في مكان ما خارج هذا المكان**».

ارتديت ملابسي وذهبت للخارج، وضربتني الرياح والحرارة كصفعة على وجهي. شعرت بالجفاف والتشوش. رأيت امرأة تعرفت عليها من اليوم السابق. كانت تمارس اليوجا. كانت تبدو سعيدة ومرتاحة جدًّا. كنت متوترة جدًّا لأقترب منها وأقول: «**إنني أحتاج إلى المساعدة**»، فعدت إلى النظر إلى صور الأطفال على هاتفي وبدأت بالبكاء مرة أخرى. قلتُ دون أن أخاطب أحدًا بعينه ولكن بصوت مسموع بما يكفي للمرأة لتسمع: «لا أريد أن أكون هنا بعد الآن». توقفت عن ممارسة اليوجا واقتربت مني واحتضنتني. قالت: «عزيزتي، عزيزتي، أنتِ في المنزل. أنتِ بخير».

---

(1) هو أداة بصرية أسطوانية تحتوي على مرايا وأشياء ملونة مثل الخرز الزجاجي الذي يعكس الضوء لإنشاء أنماط معقدة ومتماثلة. في أثناء تدوير الأنبوب، تتضاعف المرايا وتعكس الأشياء، مما يؤدي إلى إنتاج تصميمات هندسية جميلة ومتغيرة. (المترجم).

رواندا **جميلة جدًّا، ولكنها** ملأى بأناس كثيرين يعتقدون أنهم لا يستحقون سوى الألم. أرغب في إيجاد طريقة أخرى. في رحلتي الأخيرة هناك، مكثت مع خالي، وهو ليس خالي بالدم ولكنني أعده، بالنظر إلى كثير من النواحي، عائلتي الحقيقية. إنه يعيش في كيجالي، في منزل جميل، بشرفة أمامية أنيقة حيث يحب أن يتناول إفطاره من الفاكهة والشاي الحلو. حيُّه مليء بالحدائق المرتبة والشوارع المعبدة الناعمة التي تبدو مثل تلال بيركلي.

فوق طاولة طعامه، توجد صورة زفاف كبيرة مؤطرة: خالي وسيم بزيه العسكري، يمسك بذراع زوجته الثالثة الأنيقة، التي توفيت مؤخرًا. تلك الصورة حزينة جدًّا ووجودها يمنحني سلامًا.

لم أغادر منزل خالي كثيرًا خلال الأيام الخمسة التي قضيتها في كيجالي. عندما كنت أخرج، كنت أتوجه في الغالب إلى مقهى «شوكولا ستوري تيلرز»، في الطابق العلوي من المكتبة العامة. كان المكان ضمن منطقة راحتي: الأرضيات الخشبية الداكنة، وسجاد الجوت[1]، والكراسي والأرائك الحديثة ذات الخطوط النظيفة. يمكنك الجلوس على السطح ومشاهدة التلال الخضراء وتناول «**الماندازي**» الشهية واحتساء القهوة المختارة بعناية والمزينة بفن اللاتيه. لكن القيادة عبر المدينة أزعجتني –بمبانيها **القديمة** والمنشآت الجديدة كذلك.

بالقرب من منزل عمي، على التل المطل على الأراضي الزراعية في الوادي المركزي لكيجالي، كان هناك مشروع سكني جديد ضخم – مئات من الشقق الجديدة، كان تصميمها يفتقر إلى الجمال؛ باردًا وعديم

(1) هي سجادة من الألياف الطبيعية المصنوعة من نبات الجوت الذي يُزرَع أساسًا في الهند وبنجلادش، والجوت مادة قوية ومتينة وصديقة للبيئة، مما يجعل سجاد الجوت مشهورًا بمظهره الريفي والترابي واستدامته، وهو يتميز بملمس ناعم وطبيعي، وغالبًا ما يُستَخدَم في غرف النوم والمعيشة وغرف النوم والمداخل. (المترجم).

الجاذبية. المباني كانت بيضاء مجدبة، وكانت الخطة أن تبقى على هذا النحو.

التصميم يصرخ: «**أنت، يا من تعيش هنا، إنك لا تستحق الجمال. ونحن، من صممنا هذا المكان، عالقون، ومقيدون، وخجولون**».

في إحدى الأيام في فترة ما بعد الظهيرة، حين كنت أغسل الملابس، تمددت على بطانية في حديقة عمي، وكانت ملابسي تجف على الحبل. شعرت أن الشمس تمنحني طاقة جديدة. كان هناك بعض النمل الذي يعمل قرب حافة مظللة، كُنَّ يفككن ثمرة مانجو سقطت على الأرض. بالقرب مني كان هناك عنكبوت أصفر. شعرت أخيرًا، بعد مئات دروس اليوجا التي حضرتها، أنني أخرجت كل الهواء المكبوت من صدري. كنت أرتدي بلوزة مزهرة – سوداء بزهور صفراء وخضراء ضخمة، وتنورة صفراء زاهية. كنت بارزة، لكنني في الوقت نفسه كنت متناسبة مع المكان، وشعرت بأنني مُعتنى بي بطريقة لم أشعر بها في أي مكان آخر في العالم. لقد مر وقت طويل منذ أن شعرت بذلك – أنني طفلة، وكأنني في رعاية شخص آخر.

في مختلف أنحاء رواندا الآن، يُخَصص صباح السبت الأخير من كل شهر لبرنامج «**أوموجندا**». وهو برنامج حكومي رسمي لجعل الروانديين يعتنون ببلدهم وينظفونه؛ ليس فقط الأماكن المادية، بل أيضًا جراح الماضي. الجميع يخرجون من منازلهم وينضمون إلى جيرانهم للعناية بمجتمعاتهم – تنظيف الشوارع، وطلاء المدارس، أو القيام بأي شيء ضروري.

إنها فكرة جميلة، وآلية رائعة للإصلاح. ومع ذلك، ما زالت الجروح موجودة، وما زال التاريخ ينزف. الجميع قاموا بأشياء فظيعة وشاهدوا أشياء فظيعة. لا يمكن لأحد أن يمحو تلك الصور من عينيه. يقول الوعاظ

إن زوجة لوط تحولت إلى عمود من الملح لأنها نظرت إلى مدينتها المدمرة. الرسالة في رواندا هي أيضًا: «**انسَ، وامضِ قدمًا**». لكن ما يزال الدخان ينبعث من الأنقاض المحترقة هناك بصمت.

في زيارتي الأخيرة، كان مشروع «**أوموجندا**» في حي خالي يتمثل في تنظيف حقل مليء بالأعشاب. جاء الناس مرتدين أحذية رياضية وسترات واقية من الرياح، يبتسمون. كانوا يمسكون بالمناجل ويستخدمونها، وهي الأداة التي تحتفظ بها جميع العائلات الرواندية في مرأبها لأعمال البستنة مثل هذه. خالي لم يرف له جفن. جيرانه أيضًا لم يرف لهم جفن. لقد اعتادوا رؤية المناجل مرة أخرى. واجهت صعوبة في التعامل مع «**أوموجندا**» في ذلك الصباح. لم أستطع تحمل الأشباح.

في وقت لاحق من ذلك اليوم، جاء رجل يدعى فيكي، عاش في حينا وكان صديقًا لكلير منذ ما يقرب من عشرين عامًا، ليقلني بسيارته من منزل خالي. قلت له: «فلنذهب إلى فندق الماريوت الجديد».

هز رأسه بالرفض، وقال: «أوه لا، هذا ليس من الأماكن التي أذهب إليها. ذلك المكان مخصص للأثرياء فقط. لا أستطيع الذهاب إلى هناك».

كنت أعرف القصة التي تدور في ذهنه. لم يكن في المكان الذي يناسبه. كان يعتقد أنه لن يندمج هناك. كان يظن أنه يجب أن يبقى في حدوده. كان يعتقد أنه لا يستحق الأشياء الجميلة. قلت له: «حسنًا، اليوم سنكون أثرياء! هيا بنا». وانطلقنا.

دخلنا الفندق، طلبت لنا شايًا، ودخلنا إلى شبكة الإنترنت اللاسلكي وقضينا بعض الوقت هناك.

عندما غادرنا، سألته: «كيف شعرت؟».

قال: «شعرت بشعور رائع».

في الليلة التي سبقت مغادرتي رواندا، جاء فيكي مرة أخرى وأخذني إلى طريق منحدر حاد على تلة. وقفنا على جانب الطريق، نطل على كيجالي. غابت الشمس، وكانت المناظر جميلة -كنت أعلم ذلك عقليًّا، حتى وإن لم أستطع الاستمتاع بتلك الجماليات في قلبي. تحولت التلال من الأخضر إلى الأزرق إلى الأسود، تلال فوق تلال، سلسلة تمتد إلى الأبد. أشار فيكي عبر الأراضي المنخفضة إلى بقعة من الأضواء المتلألئة. قال: «هذا هو المكان الذي كنا نعيش فيه». رفعت هاتفي والتقطت صورًا.

في طريق العودة إلى منزل خالي، قادنا فيكي إلى أقرب مكان من حيِّنا القديم حيث اعتقد أنني أستطيع التحمل. مررنا من شارع مزدحم برجال يبيعون بطاقات الهاتف، والأطفال الذين يدحرجون إطارات الدراجة بالعصيّ، والنساء المسلمات اللواتي يرتدين «الكيتينجي» أغطيةً للرأس، كل هذا المزيج المتنوع المفعم بالحياة من العالم الذي كنت أعيش فيه قبل أن ينهار الكون. أوقف فيكي السيارة أمام متجر صغير بلا لافتة، ودخل وعاد بكيس ورقي بني يحتوي على خبز «تشاباتي» دافئ، كان الزيت قد بدأ يتسرب منه للتو.

تناولنا الطعام وقادنا إلى الكنيسة التي تزوج فيها والداي. كان طعم «التشاباتي» لذيذًا، مثل شروق الشمس، أو حمام دافئ في حديقة والدتي الخلفية، ثم ارتداء روب قديم مثالي من كلير. كانت الكنيسة ما تزال كما هي.

قبل تلك الرحلة بعدة أشهر، في عيد ميلادي التاسع والعشرين، ذهبنا أنا ورايان للتنزه في تلال بيركلي، على مسار يمر عبر متنزهي المفضل. بدأنا الحديث عن الزواج، لكنني لم أستطع أن أعيش في تلك القصة الخيالية. بالنسبة لي، كانت تلك القضية تتعلق بالملكية: **أن تملك وتحتفظ، حتى يفرقنا الموت.**

لم يُخلَقِ البشر ليُمتَلَكوا.

كان رايان يحبني أكثر مما كنت أحب نفسي، ولم أستطع تحمل ذلك. دفعته بعيدًا. كنت بحاجة إلى تعلم كيفية احتضان ألمي الخاص. كنت بحاجة إلى أن أتعلم كيف أحتضن زواياي المظلمة، وعندما عدت من رحلتي إلى رواندا، كان قد رحل. كنا ننهار ببطء. كانت رحلتي إلى الماضي وسفري المستمر أمرًا صعبًا عليه، والآن أخذ كل شيء. كنت قد أخبرته مرارًا وتكرارًا أن أحد أعمق مخاوفي هو أن أُترك وحدي. كنت دائمًا خائفة من أن كلير قد تتركني يومًا ما، وأنها قد تنهض وتذهب إذا لم أكن جيدة بما يكفي أو سريعة بما يكفي، إذا لم أتبع القواعد.

أول شيء لاحظته عندما دخلت الشقة ووضعت حقيبتي السوداء الكبيرة، كان اختفاء جيتار رايان. كان دائمًا يضعه على حامل بجانب التلفاز في غرفة المعيشة. لم يكن الجيتار هناك، ولم يكن الحامل موجودًا أيضًا. دخلت إلى غرفة نومنا. لاحظت وجود شاحن هاتفه – هذا أمر جيد. رايان يحتاج شاحن هاتفه. لم يكن من الممكن أن يكون قد رحل. لكن باب خزانة ملابسنا كان مفتوحًا على مصراعيه. كل قمصان رايان كانت مفقودة.

كل مخاوفي اندفعت إلى الغرفة. اللعنة، اللعنة، اللعنة، السرقة، الوجوه، الماء، الأجساد. كل شيء تدفق إلى داخلي.

وقفت في غرفة نومي وحاولت التنفس. ذكَّرت نفسي: «**إنني أعيش هنا. أنا في المنزل**».

2017

21

تقتُ باستمرار لمشاعر الأمومة، وأبحث عن بدائل الأمهات أو من يحل محلهن. لم أُعطِ أمي الحقيقية فرصةً قط. حتى وأنا راشدة مثقفة وذات خبرة في العالم، لم أعرف كيف أجعل علاقتنا تنجح.

لذا دعوت أمي للذهاب معي في رحلة إلى أوروبا. أردت إعادة تمثيل لم شملنا. في المرة السابقة، كانت الظروف والخاتمة المفاجئة خاطئة تمامًا، خارج سيطرتنا. لم يسألني أحد: «**وماذا تعتقدين حدث بعد ذلك؟**» هذه المرة، كنت سأفعلها بشكل أفضل.

لم أقضِ وقتًا مع أمي وحدنا منذ عشرين عامًا. سافرت إلى لندن قبلها. أردت أن يكون كل شيء مثاليًّا –كل تفصيلة مدروسة وساحرة، مثل البيضة الملأى بالبريق التي تلقيتها دعوةً من جمعية سرية في أثناء الجامعة. كانت القشرة قد فُرِّغت وأعيد ملؤها ببريق ذهبي، وفي

المنتصف كانت هناك ملاحظة صغيرة. أردت أن أمنح أمي هدية مثل تلك. أردت دعوتها إلى ذلك اللقاء.

قبل وصول أمي، مشيت إلى متجر ويست برومتون واشتريت الفاكهة، والخبز، والحليب، والشاي، والبيض، والأرز، ودجاجة. اشتريت باقة من الورود البرية ورتبتها في مزهرية بجانب سريرها. على غطاء السرير وضعت قميص النوم الأبيض ورداء النوم اللذين اشتريتهما هديةً لها، وفي الخزانة علقت الملابس الجديدة التي اشتريتها لها: بلوزتين جديدتين، وفستانين، وعدة أوشحة وتنانير.

أردت أن تشعر أمي بأنها مميزة. أردت أن تعرف قيمتها. أردت أن يبتسم لها الناس بإعجاب عندما تدخل الغرفة.

ركبت القطار عائدة إلى مطار جاتويك لاستقبال طائرتها. انتظرت طويلًا في قاعة الاستقبال. لم تظهر أمي. أخيرًا، اتصلت بها. كانت تائهة. لم تكن تعرف الطريق، لذا جلست فقط.

طلبت منها أن تعطي هاتفها لأي شخص بجانبها، أي شخص، حتى أطلب منه أن يساعد أمي في الخروج. شعرت بالذنب، وبأنني غير مسؤولة. لم أعطِ أمي عنوان المنزل في «ويست برومتون». لم تسافر أمي مطلقًا بجواز سفرها الأمريكي ولم تسافر وحدها من قبل.

أخيرًا، خرجتْ، كانت آخر شخص يغادر منطقة الجمارك من رحلتها. كانت ترتدي بنطال جينز جديدًا وتحمل حقيبة لامعة جديدة. كان شعرها مضفَّرًا بإحكام وأظافرها مطلية حديثًا. كانت تقول مرارًا وتكرارًا: «أنا آسفة، أنا آسفة». اتصلت بسيارة أوبر لنا. وصلت سيارة سوداء فاخرة.

قالت أمي: «يا إلهي! كليمنتين!». في أثناء القيادة إلى المدينة كانت تحمل وجهها بين يديها، وتعبث بإبهاميها ثم نامت.

أحبت قميص النوم. أحبت الرداء. أحبت الزهور. أحبت الملابس. دلكتُ قدميها بزيوت عطرية كنت قد أحضرتها معي. نامت قليلًا. وعندما استيقظت ونزلت إلى الطابق السفلي، كانت هناك مدبرة منزل بيضاء في المطبخ. أصحاب الشقة أرسلوا مدبرة المنزل لتفقدنا.

سألتني أمي عندما غادرتْ مدبرة المنزل: «هل تعيش هذه المرأة هنا؟».

قلت لها: «لا»، ثم أشرت إلى صورة للعائلة السوداء التي تسكن المنزل.

بدت أمي مشوشة للغاية.

لقد خططت لكل شيء -كم ستستغرق كل رحلة في الحافلة، وأين نصعد وننزل. أخذت أمي إلى دير «وستمنستر». وجدتُ التماثيل بحجمها الطبيعي مخيفة، لكن أمي أحبتها. نُحِتَت وجوه الموتى لتبدو هادئة للغاية. البعض وضعوا أيديهم على قلوبهم، والبعض الآخر كانت أيديهم مضمومة كما لو أنهم يصلون. كانوا مع الرب.

خططت لأريها حديقة المستوصف. كنت قد قرأت على الإنترنت أنها كانت مزروعة سابقًا بالورود، والزنابق، والفاصولياء، والبصل، وأشجار الفاكهة. الآن لم يعد في الحديقة سوى العشب الأخضر، ولا يُسمَح لأحد أن يدوسه. كانت هناك لافتة تقول إنها مغلقة.

تقدمت نحو أحد الحراس وأخبرته قصتنا: لقد خططت لهذه الرحلة بعناية، أنا وأمي لم نقضِ وقتًا معًا منذ عشرين عامًا كانت الحبكة الأساسية في قصتي هي: **هذه اللحظة مهمة، بل وضرورية حتى.** كنت أخبره وأخبر نفسي: **هذه اللحظة ضرورية. ستعيدنا إلى بعضنا. ستعيدني إلى نفسي.** كنت ما أزال أشعر بأنني مكسورة من الداخل.

سمح لنا الحارس بالدخول. كان هناك شيء مخيف بشأن هذا العشب الشائك الذي لا يمشي عليه أحد أبدًا. بدأت أمي تلمس الأحجار المرصوفة. أرادت أن تشعر بكل شيء –كل حجر، كل صخرة. لم أرغب في البقاء وحدي معها.

في اليوم التالي، زرنا المزيد من الكاتدرائيات. ذهبنا إلى المتاجر وجربنا الملابس. في الشقة، أعددت الدجاج المشوي للعشاء ووضعته في الثلاجة، وغسلت أمي الصحون. أخبرتها أنه بإمكانها تركها لمدبرة المنزل، وأن المدبرة ستحصل على أجر مقابل غسلها، لكنها أصرت. كانت تغسل الأطباق ببطء شديد لدرجة أنني لم أتحمل المشاهدة. لم تكن تدرك كم كان ذلك البطء يبدو ترفًا وفخامة بالنسبة لي –أن تقوم بالمهام المنزلية بهدوء، وكأن السلام يفوح في الأجواء.

شعرت بارتباك شديد لوجودي مع أمي فقط في هذه الشقة، أحاول خلقَ عالم كامل من الحطام الضئيل المتاح. أردت أن تعرف أمي كل الأماكن التي ذهبت إليها، وكل الأشياء المروعة التي رأيتها، وكل التنظيف الذي قمت به في المخيمات البائسة، والتنوع غير المعقول من المعاناة التي شهدتها فقط لأصل إلى هنا؛ لأكون في هذه الشقة، ولأجلب لها قميص النوم الأبيض الجديد ورداء الحمام الأبيض. لكنني لم أرغب في أن أخبرها عن تجربتي. لا أنا ولا كلير أخبرناها يومًا بقصتنا. لم أشارك معها حتى النسخة المنقحة التي أرويها في العلن. لم أشعر قط أنني أستطيع. وما زلت لا أستطيع الآن. كنت غاضبة جدًّا من نفسي. كنت أصرخ في عقلي: «**أمي، ليست لديك أي فكرة عما مررت به**».

سافرنا بالقطار إلى باريس. وجدت أفضل الكرواسون. ووجدت الفراولة المثالية – تلك الصغيرة ذات السيقان الخضراء. أخذت أمي إلى

متاجر صغيرة رائعة. وقفت أمام مرآة ثلاثية الجوانب وأعجبت بمعطف من الستان الأخضر. ثم، بمجرد أن بدأت تعجب بنفسها فيه، صُدمت من السعر وأعادته بتوتر إلى الرف. اشتريته لها على أي حال. أردتها أن تصدق أنها تستحق أفضل معطف في العالم.

في وقت لاحق من ذلك اليوم، حضرنا غداء لطيفًا في منزل صديقة. دُلِّلَت أمي ولُبِّيَت رغباتها –«هل تفضلين السمك؟ هل تفضلين لحم الضأن؟ هل تريدين أن يُطهى لحم الضأن متوسط الاستواء؟ أوه، يا له من معطف جميل!».

كنت أبذل قصارى جهدي. كانت الخطة التي وضعتها تعمل حسبما خططت، لكنني لم أخطط لهذه المشاعر. شعرت بوحدة عميقة. كان عقلي وقلبي منفصلين، وكأنهما تحت الماء، وكل إشارات التواصل بينهما مشوَّهة ومخمدة.

مشينا أنا وأمي في حديقة «التويلري». عبست أمي غير معجبة بتصميمات الزرع والتقليم المتكاسلة. حاولت، للحظة، أن أغلق الفجوة بين الحاضر والماضي، أن أخرج من تحت الماء وأتحدث إليها في الهواء الطلق.

سألتها: «هل تفتقدين حديقتك الخاصة؟» ظننت أن هذا سؤال بسيط، أسهل سؤال يمكن طرحه عن حياتنا الماضية معًا، عما كنا عليه قبلُ.

تلاشت معالم الحياة من وجه أمي. لم تجب.

واصلنا السير حتى وصلنا إلى متحف اللوفر. كانت الصور المفضلة لدى أمي، مثل قصصها المفضلة، من الكتاب المقدس. كانت لديها صورة ليسوع الأبيض على غلاف هاتفها – بشرة عاجية، وأعين زرقاء، وشعر ناعم. كنت أتمنى أن ترى أمي ما وراء هذا الوجه البسيط

البريء. كنت أتمنى أن ترى كيف استُخدم هذا الوجه لغسل عقول الآخرين، لتدمير ثقافات، لمحو لغات كاملة، للتسبب في الكثير من الإهانة والألم. في وقت سابق من اليوم، مررنا بجانب رجال سنغاليين ونيجيريين وسيمين يبيعون أقلامًا صغيرة وميداليات على شكل برج إيفل بجانب محطة المترو. كانت المعاناة في أعينهم واضحة مثل معاناة يسوع الذي تؤمن به أمي. لماذا لا تُصلِّي إليهم؟

سارت بنا الحشود في المتحف نحو المعرض الذي يعرض لوحة **الموناليزا.** كانت القاعة مكتظة بالناس. حاولت أن أجد زاوية بعيدة عن الزحام وفشلت. لطالما كرهت الحشود منذ أول مسير لنا خلف شاحنات الصليب الأحمر في طريقنا إلى أول مخيم للاجئين. أمام لوحة ضخمة تُسمى **عرس قانا،** قلتُ: «أمي، توقفي».

تصور اللوحة وليمة؛ مأدبة مَلَكِيَّة، وحول الطاولة يجلس يسوع والحواريون، والملوك والملكات والأباطرة. جميعهم بوجوه ناصعة، خالية من العيوب، طاهرة كما يبدو. كل من لديه بشرة أغمق قليلًا أو ملابس بسيطة كان إما يخدم الجالسين على المائدة أو يوجد تحتها.

سألت أمي: «ماذا ترين في هذه اللوحة؟».

قالت: «هذا يسوع في الوسط، هذه مريم ويسوع والحواريون في وليمة –وليمة زواج».

سألتها، وقد بدأت نبرة صوتي تميل إلى الحدة قليلًا: «وماذا أيضًا؟ كيف تبدو هذه اللوحة بالنسبة لك؟».

أجابت: «تبدو مثل الجنة».

قلت لها: «لكن، أمي، ما هذا المفهوم عن الجنة؟ لمن هو؟ انظري إلى ذلك الصبي هناك. انظري إلى الطفل الأسود الصغير». ثم أشرت إلى أسفل اللوحة: «إنه تحت الطاولة، بجانب الكلب».

سألت أمي: «حسنًا؟ ما باله؟».

قلت: «إنه ليس جالسًا إلى الطاولة! إنه مع الكلب! تلك اللوحة تخبره بمكانه. أريده أن يكون جالسًا إلى الطاولة، بجانب يسوع».

كنت قد بدأت في الصراخ. أمسكت أمي بيدي، لتهدئني.

سافرنا بالطائرة إلى روما. بالنسبة لي، كان الكيل قد طفح. أمي كانت تشتكي من ألم في ساقيها. كل لحظة، كل صورة شعرت وكأنها إشارة، فألٌ – طائر يحلق عبر غروب الشمس، ويخرج ببراعة؛ امرأة تقود دراجتها وتحمل طفلها على المقعد الخلفي. المرأة اصطدمت بأحد المارة المشتَّتِين وسقطت.

لم أعرف ما الذي توقعته من هذه الرحلة. ربما اعتقدت أننا سنصبح أشخاصًا مختلفين، أشخاصًا لم يمسهم الفقد. لست متأكدة حتى من أنا أو من أحاول أن أكون أو أصبح. كنت قد أحضرت ملابس لأمي. أعددت لها الطعام. من الواضح أنني كنت أريد تغيير الأدوار، أن أكون الأم لها كما لم تكن لي.

ومع ذلك، كنت أدرك جيدًا أن فقدان الأم في سن السادسة يعني أن جزءًا مني سيظل دائمًا طفلة، يبقى مجمدًا في صورة تلك الفتاة التي ترغب في القفز إلى حضن والدتها، تتوق للحصول على موافقتها وتلك الطمأنة الزائفة بأنها قادرة على حمايتك من العالم.

كنت أعرف أن أيًّا من هذا لن يتحقق.

في روما، انشغلت بفكرة أن تدرك والدتي مدى جهودي، وأن ترى كيف خططت لهذه الرحلة بعناية، وأن تشكرني على ذلك. كانت قد عبرت عن امتنانها، لكنها كانت تشكر الرب دائمًا. كانت تقول: «الرب أعطانا هذه الهدايا. الرب خلق هذه اللحظة. الرب خلقكِ وخلقني».

قلت لها: «نعم، أرى ذلك يا أمي، لكنَ لماذا لا ترين أنني أنا من خلق هذه التجربة لنا؟ أنا من صنعت هذه اللحظات».

قالت: «أرى ذلك، **موانا يانجيي (طفلتي)**. أرى ذلك، وأنا أُقدره. لكن الرب...» وبعد أن نادتني بـ«**طفلتي**»، عادت سريعًا إلى قصتها حيث وجدت الراحة – قصة يسوعها، جنتها. قالت: «نحن من أكثر الناس حظًّا. نحن أكثر الناس حظًّا. لدينا عائلتنا بأكملها».

كنت على جانب من هوة عملاقة، وأمي على الجانب الآخر. كنا نسافر معًا، متوازيين، لكننا لم نتواصل. ربما كان ذلك أكثر مما ينبغي طلبه.

كان الأمر كذلك مع كلير أيضًا. أدين لها بحياتي. في كل مرة أحتاج فيها لاستدعاء أقوى نسخة مني، أستمد قوتي منها. لديها سيطرة هائلة، وإيمان ثابت بحقها في الوجود، وقناعة عميقة بأن قصتها، مهما كانت مظلمة، فإنها مهمة بقدر قصص أي شخص آخر، وقد غرست فيَّ هذه القيمة. أتمنى أن تستطيع كلير تقدير قدرتها الرائعة على التنقل في عالم يحاول باستمرار أن يدفعها إلى الأسفل. لكن الكلمات لها حدود. لا أملك كلمات تصف علاقتنا المعقدة بشكل كاف. حتى أعمق مشاعري تغشاها حاجتي لأن يُعترف بي.

منذ وقت ليس بالبعيد، جاءت كلير لزيارتي في سان فرانسيسكو وقلت لها: «أشعر أنكِ لا ترينني. أشعر أنكِ لا تقدرينني أو تقدرين العمل الذي قمت به».

شعرتُ بالتجاهل، بأنني غير مرئية، من قبل الشخص الوحيد في العالم الذي يعرف. قلت لكلير: «عندما تتحدثين عن تجاربنا، دائمًا ما تقولين '**أنا**. **أنا**' لا تقولين '**نحن**' كنا معًا».

قالت كلير: «لكن كما تعرفين، عندما أتذكر تجاربنا، أشعر أنني كنت وحدي».

في هذه الأيام، عندما أكون مع كلير، يكون هناك الكثير من الحب والكثير من الخوف، ونريد أن نقتل بعضنا بعضًا. عندما تكون في منزلها في شيكاجو، بدلًا من التركيز على بقائها أو بقائي، تريد كلير أن تنقذ مجتمعها بأكمله -كل لاجئ. في معظم أيام الأحد، تطبخ لعشرات الأصدقاء إلى جانب عائلتنا. قال لها أحد هؤلاء الأصدقاء مؤخرًا: «أنتِ غبية جدًّا. لماذا تطعمين كل هؤلاء الناس؟ أنتِ أم عزباء. ليس لديكِ مال، فلماذا تسمحين أن يأتي هؤلاء الأشخاص كلهم إلى منزلكِ؟».

كلير لا تعيش وفقًا لذلك المنطق. قالت لصديقتها: «أنا أفعل ذلك منذ وقت طويل. لدي طعام، وأعلم أنني سأحصل على الطعام غدًا».

هذه حكمة أمنا: شاركي. قسِّمي البرتقال إلى قطع أكثر. كانت أمي تقول لنا بصوت خافت عندما كان يصل العديد من الناس ليأكلوا معنا دون سابق إنذار وتصبح حصصنا صغيرة جدًّا: «إذا لم تشبعوا في الغداء، ستشبعون في العشاء».

أطفال كلير يعرفون بما يكفي لتركها تعيش حسب قواعدها الغامضة. هذا كل ما يمكن للمرء أن يفعله حقًّا: دعي الآخرين يعيشون حياتهم وفقًا لشروطهم، واسألي نفسك كيف تعيشين حياتك الخاصة. أَصِرِّي على معرفة القصة وراء مواهبك وآلامك. اسألي نفسك كيف حصلت على الأشياء التي لديك: امتيازك، وفلسفتك، وكوابيسك، وإيمانك، وإحساسك بالنظام والسلام في العالم.

تقريبًا مع كل بداية عام، في كانون الثاني، كانت كلير تسافر إلى رواندا. كانت تشتري الأرز، واللحم، والبطاطس لتحضير وجبة رأس السنة الكبيرة للأيتام. ثم كانت ترتدي فستانًا رائعًا، وتستعير واحدة من

أغلى حقائب خالتي، وتجعل خالتي أو خالي، أيهما كان موجودًا، يلتقط مئات الصور لها –تصريح كلير: «**أنا هنا. أنا موجودة وذات قيمة. لم تدمروني؟**».

في المنزل في شيكاجو، وهي تتصفح الصور، كانت أصغر بنات كلير تسأل دائمًا بدهشة: «**كيف يمكنكِ فعل ذلك؟ كيف يمكنكِ القيام بشيء يبدو تافهًا للغاية في مكان تسبب لك في الكثير من الآلام؟**».

لم تجد كلير بديًلا. كانت تهز كتفيها وتقول: «ماذا تريدينني أن أفعل؟ أن أبكي؟».

عدنا إلى جولات الكنائس – أنا وأمي في معطفها الجديد. في يومنا الأخير في روما، زرنا بازيليكا[1] القديس بولس.

تجولت بمفردي لتحليل الهندسة المعمارية، لأستعيد نفسي –لأحلل تاريخ المبنى، لأفحص آليات الرهبة التي صُممت بدقة. كان هذا الشعور مريحًا للغاية – أن أنسحب إلى عالم الرمزية، وأهدئ نفسي بالأفكار الأكاديمية غير الشخصية.

لكن بعد لحظة، أوقفت تلك الأفكار وذهبت لأبحث عن أمي. وجدتها تتحدث إلى راهبتين، تسألهما إذا كانتا تعرفان مكان القديسة بريجيد[2].

قالت إحدى الراهبتين: «نعم، نعم، إنها في الحرم».

(1) نوع من مباني الكنائس الكبيرة والهامة، التي لها سمات معمارية محددة، وفي بعض الحالات، مكانة كنسية خاصة. يشير المصطلح في الأصل إلى مبنى عام روماني كان يُستَخدَم للأغراض القانونية والمدنية، ولكن في المسيحية، أصبح يشير إلى كنائس معيَّنة تُمنَح امتيازات خاصة من قِبَل البابا. (المترجم).

(2) واحدة من قديسات إيرلندا التي عاشت في القرن الخامس والسادس الميلادي، وعُرِفَت بإيمانها المسيحي العميق، وعملها في تأسيس الأديرة وتفانيها في العمل الخيري ومساعدة الفقراء، وتحيط بحياتها العديد من الأساطير، بما في ذلك قدرتها على صنع المعجزات. (المترجم).

أمي، التي عادة ما تكون متحكمة تمامًا في مشاعرها، بالكاد استطاعت أن تكبح جماح حماستها. القديسة بريجيد هي قديسة الأطفال. إذا كنت بحاجة للصلاة من أجل طفل، فعليك أن تصلي لها.

كان يُقام قداس في الحرم، لذا اضطررنا إلى الانتظار. عندما انتهى، دخلنا، وهناك كانت في مقدمة الحجرة فوقنا. ركعت أمي وركعت بجانبها. رفعت أمي عينيها، وأمسكت بسبحتها، وبكت. قالت لأخوات الدير: «أخواتي، أنتن لا تفهمن. ابنتاي، ابنتاي اختفتا لمدة سبع سنوات. لم أعرف أين هما. صليت من أجلهما وقد استُجيبت صلاتي. هما هنا. ابنتاي هنا».

راقبت وجه أمي. بدت في تلك اللحظة راضية جدًّا، حاضرة تمامًا، ومجيدة للغاية، ومكتملة بمعجزتها، وهي تمسك بسلسلة الخرز الخاصة بها. لقد أصلح إيمانها العالم. شعرتُ بالسعادة لوجودي بجانبها. غرتُ من نفسي بسبب الراحة التي شعرت بها.

في اليوم التالي، أخذنا القطار عائدتين إلى المطار. انتظرنا طائرتينا المنفصلتين، شربنا الشاي. اشتريت لأمي كرواسون إضافيًّا لتحمله في حقيبتها. تحققت عدة مرات للتأكد من أنها لم تنسَ جواز سفرها.

لدى أمي قصة تناسبها. أما أنا، فلدي مجرد شخصية، قالب. الفتاة التي تنثر الخرز بابتسامتها منحتني طريقة للسير في هذا العالم، للإيمان بحقي في اتخاذ القرارات بنفسي، لكنني كنت ما أزال أبحث عن قصةٍ أشعرُ أنها متكاملة ومنسجمة. لن يخبرني أحد بأحداث القصة. لن تُكتَب بنفسها. **وما زال**، بعد كل شيء – زيبالد، وكتاب **الليل**، وكل **الكاتوندو**: الذكريات والأمتعة التي حملتها معي، وآلاف الصور من رحلاتي – كنت ما أزال أحن لموكامانا. كنت أرغب في أن تجلس على جانب سريري، تتحدث إلي، وتجعل عالمي لا يبدو رائعًا فقط، بل منطقيًّا ومتكاملًا.

ركبت طائرتي، فتحت دفتري، وحاولت العودة إلى البداية.

2017

22

منذ وقت ليس ببعيد، في أرض ملأى بالتلال، ليست بعيدة كثيرًا، كانت تعيش فتاتان.

في كل يوم، كانتا تلعبان في حديقة أمهما. ترتديان فساتين صفراء وحمراء، وتلعبان بين أزهار زاهية متفتحة وتتسلقان الأشجار مع شقيقهما. وفي المساء، تحضران لأبيهما نعاله، وتطلبان منه الحلوى ليلًا. في أحد الأيام، سمعتا أصواتًا لم يسمعاها من قبل، ورأيا تعابير على وجهيْ والديهما لم ترياها من قبل. تحول لون السماء إلى البرتقالي، وتحولت الأرض إلى الرمادي. أُرسِلتا لزيارة جدتهما، لكنهما سمعتا المزيد من الأصوات ورأوا وجوهًا غريبة، فأخبرتهما جدتهما أن يركضا.

ركضتا ومشتا وركبتا الحافلة، وكادتا أن تغرقا في القوارب. تجولتا لمدة سبع سنوات، حتى لم تعد الأخت الكبرى طفلة ولم تعد الأخت الصغرى كذلك. طارتا وهبطتا بعيدًا جدًّا، وحاولت الأخت الصغرى أن

تصبح طفلة مرة أخرى، على الرغم من أنها كانت قد أصبحت قاسية للغاية لتكون طفلة. بحثت عن آباء جدد. بحثت عن قوى جديدة. قرأت كتبًا جديدة، وفي كل مكان ذهبت إليه كان الناس يعتقدون أنها سحرية.

ظن الناس أنهم يعرفونها، ظنوا أنهم رأوها حقًّا. وعندما مرت بهم، قالوا: «**إنها قوية جدًّا، إنها شجاعة للغاية**». وعندما روت قصتها، انبهروا أكثر. قالوا: «**يا للمسكينة، يا للفتاة الجميلة، المميزة**»، ثم قدموا لها الهدايا. أعيد إليها والداها الأصليان. وأُعطيت إخوة جددًا متألقين. أُعطيت المال، والمكانة، والمجوهرات، والمديح، وأرقى تعليم في العالم.

في أحد الأيام، ارتدت ملابس مثلما كانت تفعل وهي صغيرة، وجلست لالتقاط صور في حديقة جميلة. جلست بين زهور إبرة الراعي، والزنابق، وطيور الجنة، كل الأزهار التي كانت تزرعها والدتها. أحبَّت شعور الشمس على بشرتها. وحده الدفء جعلها تشعر بالتغذية والاكتمال. عادت إليها الألوان –لكنها كانت أكثر ثراءً وعمقًا. ارتدت فستانًا أحمر، ثم فستانًا أصفر سعيدًا، ثم فستانًا باللون البرتقالي الذي تكرهه، البرتقالي الذي ملأ السماء عندما هربت.

في كل يوم، كانت تحدق إلى صورها – الزهور، وبشرتها، والألوان، وندوبها. كانت تحاول أن تثبت في ذهنها أن كل ذلك كان حقيقيًّا: أنها كانت سحرية، وجميلة، وقوية، وشجاعة، ومنتصرة، ومتألمة. حاولت أن ترتب ذكرياتها، وأن تربطها بالزمن. أرادت أن تروي قصة حقيقية، قصة كاملة. لكن لم تبدُ أي نهاية مناسبة قط. كان التاريخ يجعل الأمر صعبًا.

شكر وتقدير

من كليمنتين

أشعر بعظيم الامتنان لكل واحد منكم. شكرًا لمشاركة حياتكم معي، لرؤيتكم لي، ولترحيبكم بي في الأماكن والمساحات التي مكنتني من التفكير في أجزاء حياتي وجمعها معًا. لا أملك كلمات كافية للتعبير عن مدى إثراء منظوري وفهمي لمعنى الحياة. ولأولئك الذين لا أذكرهم بالاسم، ممن احتضنوني وتحدثوا معي وسط الفوضى، أُقَدِّر طيبتكم ولطفكم. أنا كلكم – أنتم جميعًا جزء مني، وسأشارك الهبات التي منحتموني إياها.

إلى كلير: أشكر إيماننا لأنه زينكِ بالحب والقوة لتقودينا خلال أفراح رحلتنا وأتراحها. شكرًا لكِ على صبركِ معي ومع جنوني كله. حياتكِ هدية، والعالم وأنا مدينون لكِ لمشاركتنا جزءًا صغيرًا منها. أتطلع بشغف إلى مغامراتنا المقبلة.

إلى أمي، كريستين موكاكاليزا، وأبي، أبولينير ندايىسابا: أشكركما على الدروس والأمثلة التي شاركتماها معي، وعلى شجاعتكما ونِعَمِكُما عليَّ. أدعو الرب أن أعيش لأحب وأشارك كما تفعلان.

إلى والديَّ الآخرَيْن، إليزابيث ماكسويل توماس، وفريدريك توماس: شكرًا لكما على الترحيب بي في حياتكما، وعلى دعمكما وإرشادكما ودروسكما. لطفكما وحبكما وتواضعكما هي بعض الهبات التي سأحملها دائمًا وأشاركها مع الآخرين.

ليز ويل: انفتاحكِ وقدرتكِ على الاستماع يتجاوزان عالمنا. لا توجد كلمات تعبر عن امتناني لالتزامكِ وتضحياتكِ، وللمحبة النقية التي شاركتِها معي لإصدار هذا الكتاب. دان، شكرًا لك على إعداد الوجبات اللذيذة لنا. هانا، شكرًا لك على تشجيعكِ ولطفكِ. أودري، شكرًا لك على حسك الفكاهي، وعلى إبقائنا دائمًا في حالة يقظة.

مارك لوتو: أنا سعيدة لأنني فقدت هاتفي في حفلة كيك ستارتر[1]؛ فلولا ذلك، لما وصلنا إلى ما نحن عليه اليوم. شكرًا لك على مشاركتك وقتك وإبداعك وشعورك بالدهشة معي – وعلى موهبتك في رؤية ما هو أبعد من الكلمات.

ماجي جرينجر: أشعر بالتواضع والامتنان لكل ساعة قضيتها في الاستماع إليَّ وجمع أجزاء حياتنا كلها في شكل منظم.

يان: ما كنت لأتمكن من إتمام ذلك دونك. لم أكن لأتمنى شريكًا أفضل لمشاركة هذه الرحلة. شكرًا لك على الاستماع، وعلى لطفك وصبرك. سأظل ممتنة إلى الأبد لكل دقيقة وكل قطرة من نبع القوة التي شاركتها معي.

(1) حدث سواء أكان شخصيًا أم افتراضيًا، يُصَمَّمُ للتَّرويج والاحتفال بإطلاق حملة تمويل جماعي على كيك ستارتر، وهي منصة تُستَخدَم لتمويل المشاريع الإبداعية، ويكون الغرض منها هو الإثارة وتشكيل الوعي وتشجيع الناس على دعم مشروع ما. (المترجم).

إلى وكيلتي، كريس دال في آي سي إم: شكرًا لك على جهدك الهائل وعلى ربط النقاط، وبخاصة مع ليز. أنا ممتنة للوقت والطاقة اللذين بذلتهما لضمان حصولي على الدعم اللازم لجعل هذا الكتاب ممكنًا. أنتِ نجمة – شكرًا لمشاركتك بريقكِ معي.

إلى فريق كراون بأكمله، إلى كل فرد منكم: شكرًا جزيلًا على كل صغيرة قدمتموها لضمان وصول هذا الكتاب إلى أيدي القراء. إلى محررتي، ريتشل كلايمان: أقدر اهتمامكِ بالتفاصيل وحبكِ لمشاركة القصص التي تفتح قلوبنا. إلى ناشرتي، مولي ستيرن: أنا ممتنة لثقتكِ وحماسكِ؛ كانا الغراء اللذَيْن أبقياني متماسكة طوال هذه العملية. بيني سيمون وليزا إريكسون، شكرًا على جهودكما الهائلة في نشر الكتاب عالميًّا. زاك فيليبس، شكرًا على إبقائنا منظمين.

إلى إريك براون ومايكل روديل: أشكركما على توجيهي بلطف واهتمام خلال هذه العملية. ديبورا أوبنهايمر، شكرًا لكِ على احترام الرحلات الإنسانية، وعلى فتح عوالم جديدة لي، وبخاصة لتعريفي بكريس.

إلى ميشيل، وداني، وجوليا، وروبرت: أنتم أشخاص رائعون وعميقوا التفكير، ويتمنى أي شخص أن ترشدوه إلى حياة جديدة. ميشيل، لقد رأيتني حقًّا! كان تأثيرك محفزًا للعديد من اللحظات المدهشة التي دفعتني للتأمل والمشاركة. أدعو أن تمطرك إيمانا بالهبات التي شاركتها معي ومع العديد من الآخرين.

إلى جيل واينبرج: شغفكِ والتزامكِ بجمع المجتمعات معًا قد فتح لي أبوابا عديدة، حيث تعلمت وشعرت بفرحة الحياة. شكرًا لكِ على إطعامي، وعلى رعايتي، وعلى تعاطفك معي.

إلى توم، وأندريا، وبقية عائلة بيرنستاين: أنتم المشجعون الذين تتمنى أي فتاة أن تراهم بعد استعراض ماسي. حبكم وتشجيعكم يتجاوزان الوصف، وأنا ممتنة لترحيبكم بي في عائلتكم. توم، أنا ممتنة لبصيرتك وبُعد نظرك وإرشادك وجهودك في ربطنا بعائلتنا الإنسانية.

إلى ماما نيبيلي، وماما دينا، وبابا بيلومبيلي، وكاسكيلي، ودينا، ومواسيتي، ومادو، وباتريك، وإتيان، وبابا وماما فاتوما: أنحني تقديرًا لقوتكم وكل ما تمكنتم من مشاركته معي.

إلى ويلما كلاين: شكرًا على كل لحظات التسوق والضحك واللحظات المرحة. كنت بحاجة إلى ذلك. إلى دونالد باسولكا، وسيفيرا موكاموزيا، وجون وجينيفر بويساس، وشارون فانديرسلايس، وجيم جريفز، وفيرا ويلز، وجوشوا مباراجا، وآمي وأندرو كوهين، ودونا غروسكاي، وبيتسي بلومنتال، وجوناثان روت، وكيفن كينج، وميريدي مور، وسترايف وتسيتسي ماسيوا، ومارجريت وجون ثورنتون، ولورديس، وبيبي وفانخول جونيور، وتينا وريك مالاتي، وأندي وكاثي جابلمان: أتمنى أن تلتقوا جميعًا قريبًا. إنه لشرف لي أن أتعرف عليكم وأن أكون جزءًا من حياتكم. شكرًا لكم على دعمكم وإرشادكم، وعلى الترحيب بي في منازلكم. أنا ممتنة جدًّا للطف والحنان اللذَيْن شاركتموني بهما ومع مجتمعاتكم.

إلى إخوتي وأخواتي: كلودين، وكلوديت، وكليمنت، وكولي، وستيفن، وبراد، ونيلي، وجوليا سي، وروبرت، وبيري، وجوليا، وسام، وويل، ولي، وأليكسا، وماثيو، وليندسي، وتانيا، وفيمباهي، وجوانا، وموسى، وإستير، وسارة، وماكس، وآرثر، وإيف، وأميليا، وإيزابيل، وكينيث، وجويل، وسوزان، ولولو، وبيبز: أحبكم وشكرًا على مشاركتكم والديَّ معي. آسفة، أنتم عالقون معي!

إلى بناتي وأبنائي: ماريت، وفريدي، وميشيل، وتشيس، وكيت: أنتم باهاتي (حظي السعيد).

إلى السيدة أوبرا وينفري: شكرًا لرؤيتكِ إمكانية لم شمل عائلتنا، ولجعل ذلك يحدث، ومشاركته مع العالم. كما أنني ممتنة لفريق هاربو/ أون؛ إريك بيلتييه، وأماندا كاش، وأولئك الذين لم ألتقِهم بعد. جهودنا لمشاركة قصة عائلتي مكنتني من تقدير أهمية أن نتشارك جميعًا تجاربنا.

إلى هانا بوجن، ومكاي نيلد، و(أ)ليكس كارون، وسوزانا شاتوك، ورادا ميستري، وفيكتوريا روجرز، وأمير شريف، وزهرة بايتي، وبلير ميلر، وتاي بوشامب، وألكسندرا ثورنتون، وآبي ويست، وليندا لاي، وبنجامين أرمسترونغ، وتراسي كيم، وهاوا حسن، وكامبل شنبي – سوانسون، وباتي سوفر، وكاثرين ماكسويل، وألكسندرا إيفكر، وألدي كازا، وفيكي، وحسن، وكاتي وريد كولي، وآن وولك كروس، ومايكل وشيلا كوهين: شكرًا لكم على الضحك والبكاء والرقص معي خلال هذه الرحلة.

إلى الأشخاص الذين يلهمونني كل يوم: دريم هامبتون، وداناي غوريرا، ونيكول باتريس دي ميمبر، وزكاري أو. إينيوما، وبرينا هيوز نيغاييوي، وييميل بوكي، وجوليا زافي، ونينا وليندا فريد، وماريا أونيل، وبيكي فان دير بوجيرت، وإيلين سيلفا –تتلو، ودييجو تاتشولي، وكيناري ويب، وبيتر جريفز، وهيذر سكوت أرورا، وجون وأودرا هانوسيك، وميشيل موسجروف برايس، ووين برايس، وسوزان لوينبرغ، وجويس نيوستات، وجون دبليو روجرز الابن، وديزيري روجرز، وجالوره كيشافارز، وماجاتي واد، وهانك توماس ويليس، وروجيكو هوكلي: شكرًا لكم على سحركم ودعمكم.

إلى عائلتي في مانيوسكربت، ودوتس، وعائلتي في سمت: شكرًا لكم على تشجيعي الدائم.

إلى مجتمع جامعة ييل: شكرًا جزيلًا لفريق تيموثي دوايت، وبخاصة على الوجود في أصعب فصول الشتاء. سأظل دائمًا ممتنة لوقتكم، وطاقاتكم، والابتسامات التي كنتم تمنحونها لي بعد ليالٍ طويلة في المكتبة وغرف الطعام. ديان شارني، كنت أول محررة لي، وأعتذر لأنكِ اضطررتِ لقراءة كل كتاباتي السيئة. شكرًا لكِ على كل شيء. كارولين باريت، وجوديث يورك، وكارين جوسلينك، وكل موظفي مركز الكتابة: شكرًا لكم على الكفاح من أجل توفير الموارد التي نحتاجها جميعًا لنحقق التميز. العميد جون لوج: يا إلهي، لا أعتقد أنني كنت سأنجو في ييل دون لقاءاتنا يوم الجمعة. إلى جيفري برينزل، على حكمتك وشغفك واستثمارك الهائل في إنسانيتنا. إلى السيدات اللاتي يدرن تي دي، باتريشيا (تريش) كاولي وكارين ماجفرن: أنتما تمتلكان أرواحًا وطاقة جميلة كان يحتاجها كل طالب جامعي. كارول جاكوبس، ولورا ويكسلر، وباربرا ستيوارت، ومويليم كياراي وانيجوغو، وكاتي ترامبنر، وج. جونسون، وآن بيير-ستكر، وإليزابيث روبين: شكرًا لكم على تشجيعكم وإلهامكم.

إلى مجتمع مدرسة هوتشكيس: أنا ممتنة لكم جميعًا على تحملكم جنوني وعلى صبركم معي عندما كنت أخالف القواعد. إلى الموظفين والمعلمين والطلاب: لقد منحتموني فرصة مذهلة لأتعلم المزيد عن نفسي. لويسا ريدتزكي، لا أعرف ما الذي كنت سأفعله دون حضورك القوي ورسائلك الواضحة. إلى فتيات ويلر: شكرًا لكنَّ على حفلات الرقص الليلية والبيتزا. صوفيا زافرا، شكرًا لكِ على كل الألوان، والأزهار، وحبك لبلدك. الأستاذ لويس بريسمن، وسايمون ووكر، وجينيفر كريج،

وكريستينا كوبر، وأليس ساركيسيان –وولف، وجي برادلي فوس، ودامون وايت: شكرًا لكم على دفعكم لي للتفكير بشكل أعمق، وتنمية إبداعي ورفاهيتي.

إلى مجتمع مدرسة نيو ترير: هيلير كيرش، ونينا لين، وماري أديلايد، وكاثي داجوستينو، وجيني لي لوجان، ولورا دويتش، وكل معلمي الفنون ومعلمي اللغة الإنجليزية لغير الناطقين بها، شكرًا لكم على مشاركة هباتكم معي. لقد بنيتم لي أساسًا قويًا ساعدني على فهم جوانب مختلفة من الثقافة الأمريكية ونجحت في النجاة والبقاء على قيد الحياة في تلك الممرات الطويلة.

إلى مجتمع مدرسة نورث شور كانتري داي: أنا ممتنة جدًّا لكل واحد منكم على الحب والدعم المستمر لعائلتي. كاثي مكهو، وباربرا شيرمان، وآن ماري دال أجاتا: شغفكم بالتدريس ومشاركة معرفتكم يفوق الوصف. أرجو أن تستمروا في ذلك دائمًا.

إلى مجتمعات مدارس سويفت وكريستشن هيرتيج أكاديمي: لا أذكر معظم أسمائكم الكاملة، حيث لم أكن أتحدث أو أفهم الإنجليزية بشكل جيد عندما عرفتموني. السيدة غارسيا، وأنابيلي، ودونيكا، وشارون جيمس ليدبيتر، وعائلة بيسلي: لقد كان لكم تأثير كبير على سنواتي الأولى في أمريكا. شكرًا لكم على تواصلكم معي بصدق وحب، حتى دون الحاجة إلى كلمات.

إلى فريق بدي تمب يوجا، هيذر بايبر، وكريستي رافانان، وبرينا باري، وتشاد شيفر: شكرا لكم على تذكيري بالتوقف للحظات، والتنفس، والتخلص من كل ما يثقل كاهلي.

إلى الحكائين الذين ساعدوني في العثور على إيقاع كلماتي، ومن بينهم الكثير ممن أعرفهم فقط من خلال فنهم: موكامانا، وموكيشورو،

وموسازا، ونينا سيمون، وأودري لورد، ومايا أنجيلو، وتوني موريسون، وروبي سيلز، وشينوا أتشيبي، وإيلي فيزيل، ودبليو جي زيبالد، وهاياو ميازاكي، وغيرهم ممن يعيشون في كياني. إحساسكم بالدهشة كان تذكرتي لهذه المغامرة. شكرًا لكم على مساعدتي في سماع نبض قلبي وتنفُّسي، والنظر إلى ما وراء التصنيفات.

إلى مجتمعاتي حول العالم، كل أولئك الذين يشاركونني، ويعلمونني كيف أوسع وأعمق طرقي في الرؤية، والسمع، واللمس، والتذوق، وكل ما يبقينا على قيد الحياة. شكرًا لكم.

من إليزابيث

سأظل دائمًا ممتنة بعمق لكِ يا كليمنتين، لمنحي الفرصة للعمل معكِ على هذا المشروع. شكرًا لكِ على ثقتكِ بي.

كلير، كانت هبة عظيمة أن أتعرف عليكِ وأدخل حياتكِ. آمل أنني قد أنصفت قصتكِ.

أشكر بامتنان شديد رايتشل كلايمان ومولي ستيرن في كراون، على إيمانهما الثابت بهذا الكتاب والتزامهما العميق بمشاركته مع العالم؛ إلى مارك لوتو، على رؤيته ورعايته منذ البداية وحتى النهاية؛ إلى كريس دال، على إصراره أن ألتقي بكليمنتين على الأقل لتناول القهوة؛ إلى إليس تشيني، على دعمها لي؛ إلى جولي تايت، على إنقاذي من أخطائي؛ إلى ماجي جرينجر، على الاستماع؛ إلى أميليا زالسمان، على المراجعة الدقيقة؛ إلى هارفي شوارتز، على مساعدتي في الفهم؛ وإلى ديك دوين، لتقديمه ما يفوق دور أي والد زوج.

إلى عائلة توماس، على معاملتكم لي كفرد من العائلة؛ وإلى جوشوا، وفيكي، وحسن، لجعلي أرى رواندا.

إلى إنجا ديفيس، وأنتون كروكوفسكي، ومارك لوكاش، وويندي ماكنوتون، وإميلي نيومان، وماريا ستريشينسكي، على قراءة المخطوطات وتقديم ملاحظات مذهلة.

إلى تافي برودسر –أكنر، على قراءة الفصول، والنصوص التي لا تنتهي، والرسائل الهستيرية، وتحمل العبء العاطفي الذي لا تحتمله سوى الزوجة فقط. صداقتكِ ساندتني.

إلى هانا، على القراءة، وعلى استمرار رغبتكِ في أن تصبحي كاتبة، وعلى جعلكِ إياي فخورة للغاية؛ إلى أودري، على البحث المستمر عن عنوان للكتاب، وعلى عدم رغبتكِ في أن تصبحي كاتبة، وعلى رفع معنوياتي؛ إلى كليهما، على تحملهما لأم عصبية.

إلى والديَّ، على دعمهما لي دائمًا.

دان، أحبك بشدة. شكرًا لك على كل شيء، دائمًا.

مكتبة
t.me/soramnqraa

حوار مع كليمنتين واماريا

السؤال: في عام 1994، عندما كنتِ في السادسة من عمرك، كان عليكِ أنتِ وأختكِ الكبرى التي كانت تبلغ من العمر خمسة عشر عامًا آنذاك، الهرب من رواندا فجأةً، دون حمل أي شيء تقريبًا. كيف انتقلتما من تلك اللحظة إلى ما أنتما عليه الآن؟

الإجابة: لقد استغرق الأمر سنوات طويلة لأتعلم كيف أشارك قصتي. ما يزال الأمر مؤلمًا بالنسبة لي حين أستعيد ذكريات ذلك اليوم. أرسلَنا والدانا أنا وأختي إلى منزل جدتنا لحمايتنا، لأن الحرب الأهلية في رواندا كانت قد تصاعدت إلى مستوى جديد، وبدأ الجنود في ارتكاب المجازر. وفي أحد الأيام، طرق أحدهم الباب، فأشارت لنا جدتنا أن نهرب عبر الحقل الذي يحتوي البطاطا الحلوة. لم نعد نرى منزلنا مجددًا. ومنذ تلك اللحظة، انهار العالم من حولنا ولم يعد أي شيء منطقيًّا. على مدار السنوات الست التالية، تجولنا عبر سبع دول إفريقية مختلفة، عشنا الجوع والخوف، ولكن أيضًا عشنا لحظات من الجمال غير المتوقع. كانت أختي هي من أنقذتنا مرارًا وتكرارًا. في عام 2000، عندما كنت في الثانية عشرة، حصلت أختي على حق اللجوء لنا في الولايات المتحدة، وبدأنا رحلة مختلفة تمامًا.

السؤال: عنوان كتابك مأخوذ من قصة كانت تحكيها لكِ مربيتكِ عندما كنت صغيرة. لماذا من بين جميع القصص التي كانت تحكيها لكِ، تظنين أن هذه القصة بقيت واضحة في ذهنكِ طوال تلك السنوات؟

الإجابة: تلك القصة كانت ساحرة! عندما كانت مربيتي موكامانا تحكي لي عن الفتاة التي كانت تنثر الخرز عندما تتبسم، لم تقتصر على سرد القصة فقط. كانت تدعوني لأشارك في تشكيل تفاصيلها. كانت تقدم لي هذه الشخصية –الفتاة الجميلة المذهلة التي تبتسم فتنثر خرزًا، ثم تضعها في العالم الواقعي– أولًا في بيت أمها، ثم وهي تسير في الأرض. في كل خطوة، كانت موكامانا تسألني: «ما الذي تظنين أنه حدث بعد ذلك؟» وبغض النظر عما كنت أقوله، كانت تؤكد لي أنني على حق. القصة منحتني شعورًا بأنني أتحكم في مصيري. جعلتني أحاول فهم عالم لم أكن أفهمه. بحلول الوقت الذي بلغت فيه السادسة، كان العالم قد انقلب رأسًا على عقب. كان الجيران يختفون، والجنود يقتلون العائلات. لم أكن أفهم الكثير. ما هي الحدود؟ لماذا يكرهوننا؟ لماذا نحتاج أوراقًا للهروب من الحرب والبحث عن السلام؟

كانت الفتاة التي تبتسم فتنثر خرزًا تتحدث إليَّ على مستوى عميق للغاية عن قيمة الذات. كنت أريد بشدة أن أكون تلك الفتاة. كان لديها كنز داخلي لا ينضب. كانت تأخذه معها أينما ذهبت ولم يكن ينفد قط. حاول العالم بكل جهده، على مدى سنوات طويلة، أن يخبرني أنا وأختي كلير بأننا لا نساوي شيئًا. لكن تلك القصة أثبتت خطأهم. أنا كنز للعالم، وقيمتي لا حدود لها. لا أحد يمكنه أن يسلبني ذلك.

السؤال: عندما كنتِ طفلة، ما هي أولى العلامات التي لاحظتِها على أن العالم الذي تعرفينه كان في خطر؟

الإجابة: كنت صغيرة جدًّا في ذلك الوقت، لذلك عندما انهار العالم، لاحظت أشياء صغيرة فيما كان بالنسبة لي ما يزال عالمًا صغيرًا وآمنًا. سمعت أصوات الطبول في الشوارع. رأيت تعابير على وجهيْ والديَّ لم أرها من قبل. توقفت والدتي عن الذهاب إلى الكنيسة وبدأت تصلي في المنزل. توقف والدي عن الذهاب إلى العمل. كانت لدي حفلة مبيت مع صديقة، وتبادلنا السترات عندما كنا نفترق، ولم أرها مرة أخرى لأعيد لها سترتها. أغلقت والدتي الستائر في منزلنا. سألتُ أخي عن الأصوات الغريبة، فأخبرني أن الطلقات النارية هي مجرد رعد.

السؤال: أنتِ وكلير عشتما في العديد من مخيمات اللاجئين – في بوروندي، وتنزانيا، ومالاوي، وموزمبيق. كيف كانت الحياة اليومية لكما في تلك الظروف؟

الإجابة: كان علينا الوقوف في طوابير لساعات طويلة للحصول على الذرة. كنا ننتظر في طوابير للحصول على الماء، ونزيل الحشرات من أقدامنا. كانت معركتنا مستمرة ضد القمل. كل البيئة كانت مصممة لتجريدنا من هوياتنا. حاولت جاهدة أن أتمسك بنفسي. كنت أقول للجميع –وبصراحة لنفسي أيضًا–: «أنا كليمنتين! أنا كليمنتين! أنا كليمنتين!» عندما وصلنا إلى المخيم الأول في بوروندي، كان الشيء الوحيد الذي كنت خبيرة فيه هو كوني طفلة مدللة. كان العديد من الأطفال في المخيم يمشون عراة ومتسخين، وكان ذلك يثير غضبي بشدة. لم أحتمل رؤية الذباب حول أعينهم دون أن يهتم أحد بإبعاده. كنت أصرخ عليهم: «أين أمك؟ اذهب وقل لها أن تلبسك الملابس». بالطبع، في تلك اللحظة، لم تكن لدي أم تلبسني أنا أيضًا، ولكنني وجدت أشخاصًا محبين، سليمي القلوب، شاركوني حبهم وحياتهم. أخذني زوجان مسنان إلى الغابة بجانب المخيم لنبحث عن الفطر. علَّماني طرق معاملة جميع الكائنات

الحية، بما في ذلك كل نبتة، باحترام عميق. في أحد الأيام، وجدنا طماطم خضراء. كانت مذهلة! لم أر الطماطم منذ شهور.

السؤال: في الفصل الأول، تقولين عن أختكِ: «لم أكن مثل كلير يومًا. لم أكن محصنة قط». كيف كان رد فعلها تجاه تحديات حياة اللجوء مختلفًا عن رد فعلك؟ وكيف شكلتما فريقًا جيدًا، وما الذي كنتما تتصارعان بشأنه؟

الإجابة: كلير هي البطلة الحقيقية في هذه القصة. لقد أنقذت حياتي مرارًا وتكرارًا، ومنذ البداية كانت تمتلك فهمًا راسخًا بأنه مهما اشتدت صعوبة حياتنا، ومهما حاول العالم أن يحطمها، لم يكن لأحد أن يسلب كرامتها. كانت تلك الكرامة ملكًا لها ولم تكن مستعدة للتخلي عنها على الإطلاق. كانت دائمًا تحرص على امتلاك زي لائق واحد – سروال جينز وقميص أبيض مكوي– بحيث تستطيع أن تقدم نفسها في أي مكان إنسانًا مساويةً للآخرين، وتطلب الاحترام بدلًا من الشفقة. كانت أيضًا مدهشة في التعامل مع صعوبات حياة اللجوء. خرجت من أحد المخيمات، اشترت معزةً، وجرَّتها إلى المخيم بالحبل، ثم وجدت رجلًا يعرف طريقة ذبحها، وأعطته رأس الماعز مقابل مساعدته، ثم باعت باقي اللحم. دوري في حياتنا كان مختلفًا تمامًا. عندما أنجبت كلير طفلتها الأولى كنت في الثامنة من عمري، وكنت ما أزال طفلة، ولكنني كنت أعتني بأطفالها. في بعض الأحيان كنت أشعر أنها لا تُقَدِّر ما كنت أفعله من أجلهم، ولكن الآن، وأنا أكبر سنًّا، أرى أن العبء الذي كانت تحمله هي في تأمين الطعام والمأوى لنا كان هائلًا.

السؤال: بعد فترة وجيزة من وصولك إلى الولايات المتحدة، تُبُنِّيتِ وعوملتِ كابنة من قبل عائلة أمريكية تعيش في ضواحي شيكاجو. ما

أكثر ما فاجأك في عالمهم؟ وما كانت أصعب الأشياء التي كان عليكِ التكيف معها في الولايات المتحدة؟

الإجابة: عائلة توماس أظهرت لي منتهى اللطف الذي لا يُصَدق. في البداية كنت مشلولة بعض الشيء. كنت أحب الصابون الفاخر في حمامات الطابق السفلي. كما كنت في البداية مشوشة تمامًا بسبب كلبهم الأليف جينجر، لأن في رواندا لا يعامل أحد الكلاب كما لو كانوا بشرًا! السيدة توماس، على وجه الخصوص، كانت لطيفة وصبورة جدًّا معي. علمتني كيف أقرأ. كانت تعد لي الغداء. كانت توصلني وتعيدني من المدرسة. عندما وصلتُ إلى الولايات المتحدة في سن الثانية عشرة، كنت قد أصبحت راشدة بالفعل. لقد نضجتُ في اللحظة التي هربنا فيها. السيدة توماس سمحت لي بأن أكون طفلة مرة أخرى.

السؤال: تصفين شعورك بالقشعريرة عند قراءة مذكرات إيلي فيزل «**الليل**» عن الهولوكوست، حين كنتِ في الصف الثامن. لماذا كان لهذا الكتاب تأثير كبير عليك؟

الإجابة: كتاب **الليل** كان الباب الذي فتح العالم لي. ولا أعتبر هذا مبالغة. الكتاب جعلني أشعر بأنني لست مجنونة. جعلني أشعر أنني لست وحيدة. فيزيل استطاع أن يعبر بالكلمات عن تجارب لم أكن أستطيع التعبير عنها. شارك أفكارًا ومشاعر كنت أشعر بالخجل الشديد من تسميتها. لم يخبرني أحد بما حدث في رواندا، وكنت صغيرة جدًّا عندما كنت هناك بحيث لم أفهم دمار العالم من حولي. إن نشري للكتاب هو شرف وامتياز لي، وهو نتيجة لثقة الكثيرين بي واستثمارهم فيَّ. إذا استطاع شخص واحد أن يعيش تجربة القراءة التي عشتها مع «**الليل**» من خلال كتابي، فكل ألم التذكر والكتابة (وكان هناك الكثير!) سيكون قد استحق العناء. منذ ذلك الوقت، عشت الكثير من التجارب المذهلة مع

الكتب مثل أوسترلتز لزيبالد، والمرأة النادرة (Phenomenal Woman) لمايا أنجيلو، والأخت الغريبة لأودري.

السؤال: خلال الوقت الذي كنتما تتنقلان فيه من بلد إلى آخر في إفريقيا، كان عليك التكيف مع الظروف والتوقعات من أجل البقاء، وأصبحتِ بارعة للغاية في فك شيفرات ما يحتاجه الآخرون وما يريدونه منكِ. الآن بعد أن مضى على وجودك في الولايات المتحدة ما يقرب من سبعة عشر عامًا، كيف تنظرين إلى هويتكِ وأين تضعين نفسك في العالم من حولك؟

الإجابة: وصف نفسي ليس من نقاط قوتي! كنت أشعر بالإحباط الشديد لأنني لم أستطع تقديم وصف بسيط لمن أنا أو حتى لما أفعله. لكنني مؤخرًا تصالحت مع هذا الأمر. من أكون وما أفعله يعتمد على من أكون معه. عندما كنت طفلة، تعلمت التكيف. كان ذلك ضروريًا. وحتى الآن، أعير اهتمامًا كبيرًا للمكان والظرف والتفاعلات الشخصية. على سبيل المثال، لدي صديق يقضي معظم يومه في تنظيف شارع تشيستنت، وهو شارع تجاري مزدحم بالقرب من الخليج في سان فرانسيسكو. في كل مرة نلتقي فيها، نتوقف ونتحدث ونجد شيئًا نبتسم بشأنه. بالنسبة لكالفن، أنا الفتاة التي تحمل بساط اليوغا على شارع تشيستنت والتي تتوقف لتضحك وتدردش. لا أحتاج أن أكون خريجة جامعة ييل، أو ناشطة إنسانية، أو لاجئة سابقة بالنسبة له. من الأفضل أن نتواصل باعتبارنا شخصين يتشاركان الشارع ذاته. عدم السماح لنفسي بالتقيد بصورة شخصية محددة أصبح ممارسةً بالنسبة لي. يتيح لي هذا السعي لأن أكون قريبة وعلى قدم المساواة مع الجميع.

السؤال: تكتبين عن جمعك للأشياء بشكل مهووس –مثل الخرز وغيرها من الأشياء التي تحمل قيمة بالنسبة لك. ماذا كانت تعني لك

الممتلكات في أثناء سنوات الهروب؟ وما الذي اخترتِ الاحتفاظ به على مر السنين في الولايات المتحدة؟

الإجابة: عندما كنت أنا وكلير نتنقَّل من بلد إلى آخر بحثًا عن الأمان، كنت أجمع الحجارة من الأماكن التي نعيش فيها. كنت آمل أن أرى والدتي مجددًا وأريها الأماكن التي مررت بها. كما أنني كنت أجمع البلي لأخي بودي، الذي لم يهرب معنا. كنت أحتفظ بكل ممتلكاتي – أشيائي الشخصية، أو «كاتوندو»– في حقيبة ظهر تحمل صورة ميكي ماوس، كنت قد حصلت عليها هديةً في زائير. كنت أحب تلك الحقيبة. كانت شريان الحياة بالنسبة لي، وهويتي مُلخصة في حفنة من البلي والحجارة. في ليلة من الليالي، هربنا من مالاوي إلى موزمبيق، وخلال تلك الرحلة تركت حقيبتي على متن الحافلة. ما زالت إمكانية البكاء متاحة في كل مرة أفكر فيها بتلك الحقيبة. بعد قرابة خمس عشرة سنة، ذهبت إلى ديزني لاند حين كنت في السنة الجامعية الثالثة في جامعة ييل، في أثناء فترة التدريب الصيفي في جوجل. بطريقة ما، وجودي هناك –رؤية الرجال والنساء في زي ميكي وميني ماوس– جعلني أشعر بالاكتمال ولو بشكل بسيط. الآن، أجمع كل شيء تقريبًا –كل إيصال، وكل بطاقة عيد ميلاد. الأمر أصبح مشكلة حقًّا. الصدمة تتركك بذاكرة مجزأة. أشيائي تساعدني على التمسك بفهم هويتي.

السؤال: عندما كنت في المدرسة الثانوية، أُعِيدَ لم شملك مع والديك مباشرةً على برنامج أوبرا. عندما رأيتِهم يدخلون إلى المسرح، وهي لحظة كنتِ قد «تخيلتها مرارًا»، ما الذي دار في ذهنك؟ وكيف تطورت تجربة لم الشمل بعد الصدمة الأولية؟

الإجابة: كان الأمر غير واقعي على الإطلاق. رؤية أمي وأبي يدخلان من ذلك الباب، كان الأمر أشبه بعودتهما من الموت. في تلك اللحظة،

كان والداي قد أنجبا أطفالًا آخرين، مما يعني أنني حصلت على أشقاء جدد لم ألتقِهم من قبل. شعرت بفرح كبير وأيضًا بغضب شديد. كان الأمر كما لو أنني حصلت على أحلى عناق وأقوى لكمة في المعدة في الوقت نفسه. الوقت والمسافة سلبا منا الكثير. كنا نعلم أن والدينا على قيد الحياة في تلك المرحلة، لكننا لم نرهما منذ سبع سنوات، وكانت الاتصالات بيننا ضئيلة جدًّا. بعد الحلقة، ذهبنا جميعًا إلى غرفة خضراء لنقضي بعض الوقت معًا. لم يعرف أحد ماذا يقول. بعد كل هذه السنوات من الانفصال، من أين نبدأ؟ كانت كلير متجمدة – لا تبتسم، ولا تبكي، وكأنها تمثال. لا يمكنك جمع عائلتك معًا مجددًا بمجرد الرغبة في ذلك.

السؤال: عندما حصلتِ على مقعد في مدرسة داخلية نخبوية، ثم التحقتِ بجامعة ييل، وصفتِ شعورك بالنشاط والحيوية بسبب الأشياء التي كنت تتعلمينها، ولكنكِ شعرت أيضًا بالغربة الشديدة. في أي جوانب شعرتِ بالغربة عن وزملائك ودروسك، ولماذا؟

الإجابة: أنا ممتنة للغاية للتعليم الذي تلقيته، لكن كانت هناك أوقات، وبخاصة في مدرسة هوتشكيس، حيث شعرت بعدم الانتماء. حضرتُ ندوة في الفلسفة، حيث طلب الأستاذ من الطلاب أن يتصوروا سيناريو: «أنت قائد عبَّارة. السفينة تغرق. كيف تقرر من يعيش ومن يموت؟» لم يكن ذلك سؤالًا افتراضيًّا بالنسبة لي. لقد كنت في قارب محمل بالبشر اليائسين الهاربين من الجوع والحرب لدرجة أن الناس اضطروا إلى إلقاء أمتعتهم في الماء حتى لا نغرق جميعًا ونموت. فقدت السيطرة على نفسي في ذلك الصف وبدأت أصرخ: «ليس لديكم أي فكرة، أليس كذلك؟ لم تعيشوا هذا السيناريو. ما الذي يجعلكم تعتقدون أن لديكم الحق حتى في الحديث عن هذا؟ هذا حقيقي. هذه حياتي – ولديَّ اسم وأنا على قيد الحياة وهناك أشخاص ماتوا، أو أنهم ما يزالون على قيد

الحياة لكنهم فارغون ويكرهون العالم لأن الأشخاص في بلدكم جلسوا يشاهدوننا جميعًا نُذبح».

السؤال: هناك مقطع لافت في الكتاب حيث تكتبين: «عندما أغضب، أفكر بالسواحيلية لأن هذه هي اللغة التي تعلمت فيها التعبير الكامل عن مشاعري». ما هي الكلمات بالسواحيلية التي تصفين بها مشاعركِ حول نشر هذا الكتاب؟ وهل هناك ترجمة مكافئة لها بالإنجليزية؟

الإجابة: هاراكا هاراكا هاينا باراكا. من الصعب قليلًا ترجمتها. حرفيًّا تعني: «العجلة لا تجلب البركة». المغزى هو، إذا كنت في عجلة من أمرك، ستفوتك الأشياء الجيدة. كتابة هذا الكتاب وإطلاقه إلى العالم أمر شائق، لكنَّ هناك نوعٌ من الذعر المرتبط به. أشعر وكأنني كنت في حالة تفكك لعدة أشهر! عملت ببطء شديد لسنوات، على بقائي، على تعليمي، على القراءة والكتابة. والآن، يا إلهي، أشعر وكأن كل شيء يحدث بسرعة. هاراكا هاراكا هاينا باراكا. هذه العبارة تذكِّرني بضرورة التمهل. أريد أن آخذ لحظة وأستمتع بها. هذا الكتاب يتحدث عن العديد من الأشخاص وهو نتيجة لمشاركة الكثيرين معي. إذا تسرعت، أخشى أن يفوتني كل ما يمكن أن أتعلمه من تجربة مشاركة الكتاب مع العالم.

السؤال: أهمية اللغة التي نستخدمها لرواية قصصنا -وكذلك حدودها- هي محور رئيسي في الكتاب. على سبيل المثال، تكتبين عن كرهك الشديد لكلمة «إبادة جماعية». لماذا تكرهين هذه الكلمة إلى ذلك الحد؟

الإجابة: أكره كلمة «إبادة جماعية». إنها بعيدة عن الواقع وتجميلية، وكأنها تمثيل زائف، وهي أسوأ أنواع الأكاذيب. إنها لا تخبرك بأي شيء عن تجربتي. لا تخبرك بأي شيء عن شعورك عندما تدرك أن العالم يريد موتك رغم أنك لا تفهم بعدُ معنى الموت. كما أنني أكره حقًّا كلمة

«لاجئ». إنها تجميع وتسطيح العديد من الحيوات الإنسانية الفردية. أنا لست «لاجئة». لقد سعيت إلى الحصول على ملاذ آمن لسنوات عديدة، لكن كلمة «لاجئ» لا تُعرِّفني. إنها فقط تحدُّني وتضعني في صندوق ضيق.

السؤال: كتبتِ أنه عندما يستمع الناس إلى حديثك عن تجربتك: «بعضهم أراد مساعدتي، ولم يتحملوا فكرة أنني لم أهزم. رأيت الفزع على وجوههم عندما اقترحتُ ... أنني يمكنني مساعدتهم أيضًا». ماذا تعنين بذلك؟

الإجابة: لا يريد الجميع تصديق أنهم يتشاركون الإنسانية والقيمة المتساوية مع شخص قُدِّمَ لهم لاجئًا أو ناجيًا من الإبادة الجماعية. الناس يريدون العطاء، وهو دافع جيد جدًّا، ولكن العطاء في اتجاه واحد –أنت تعطي لي، وأنا لا أعطيك– يحافظ على الوضع الراهن للقوة. المشاركة تختلف تمامًا. المشاركة تفترض وتخلق المساواة. بالنسبة لي، هذه واحدة من أهم الأفكار في الكتاب. قد يكون لديك الوقت وقد أمتلك أنا الأرض. قد تكون لديك الأفكار وقد تكون لدي القوة. قد يكون لديك طماطم وقد يكون لدي سكين. نحن بحاجة لبعضنا بعضًا. نحتاج أن نقول: أنا لست أفضل منك، وأنت لست أفضل مني. لا أحد أفضل من أي شخص آخر.

السؤال: هل تتحدثين عما حدث في رواندا مع أختك أو والديك؟

الإجابة: لا. نحن نعيش الحاضر معًا. والدتي تطبخ للجميع كل يوم أحد. لا يمكننا الحديث عن الماضي معًا بالكلمات. نحن نتحدث بالأفعال. ربما يومًا ما سترغب كلير في سرد قصتها الخاصة. في الوقت الحالي، لا تريد أن تنبش الماضي – بل ترغب في الوجود مع شعبها، ودعم من ساروا في طريقها، وبناء حياتها.

السؤال: ما هو محور حياتكِ في المستقبل؟

الإجابة: أنا ملتزمة بشدة بالعثور على الفرح في حياتي والعيش في الحاضر الآن. أريد أن أستمع إلى قصص الناس وأجد القوة فيها. هناك الكثير من الألم والمعاناة التي سببها البشر في هذا العالم. أريد أن أكرم تلك التجارب الصعبة وأعترف بتداعياتها. وفي الوقت نفسه، أريد أن أرى العالم من حولي حقًّا وأحبه.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفتاة التي ابتسمت خرزًا

"من أكثر الكتب مبيعًا. إنَّه قصة للحرب وتداعياتها. تتنقل فيها كليمنتين عبر إفريقيا مع شقيقتها وصولًا إلى أمريكا، وتسرد رحلتها بأسلوب يجمع بين الشاعرية والتحليل. لقد أعادت في هذه المذكرات تشكيل ذاتها، ولكن بطريقتها الخاصة".

- New York Times

"الفتاة التي ابتسمت خرزًا مرعب ومحفز للحياة في الوقت ذاته. ويكشف التكلفة البشرية للحرب بدقة. قد يدفعك إلى ذرف الدموع. ولكن كما تقول كليمنتين: "أمي تقول إن الدموع جيدة لبشرتك". وربما لروحك أيضًا".

- Washington Post

كليمنتين وامارِيا هي راوية قصص ومُدافعة عن حقوق الإنسان. وُلدت في كيجالي، في رواندا، وتشرَّدت بسبب الحرب، حيث تنقلت كليمنتين خلال طفولتها عبر سبع دول إفريقية. وفي سن الثانية عشرة، أصبحت لاجئة في الولايات المتحدة، لتواصل بعدها مسيرتها التعليمية وتحصل على درجة البكالوريوس في الأدب المقارن من جامعة ييل. تعيش حاليًا في سان فرانسيسكو.

اليزابيث ويل هي كاتبة مستقلة في مجلة نيويورك تايمز، ومحررة مشاركة في مجلة أوتسايد (Outside)، وتكتب باستمرار لمجلة فوج وغيرها. حصلت على جائزة نادي الصحافة في نيويورك عن تقاريرها المميزة، وجائزة لويل توماس عن كتاباتها في الرحلات. كما كانت أعمالها مرشحة لجوائز عديدة منها جائزة جيمس بيرد. تعيش إليزابيث في سان فرانسيسكو مع زوجها وابنتيها.

الفتـــاة التي ابتسمت خرزًا

قصة مؤثرة عن الاغتراب والنجاة، وقوة الخيال في إنقاذنا.

كانـت كليمنـتين وإماريـا تبلـغ مـن العمـر سـت سـنوات فقـط حين بـدأ والداها يتحدثـان همسًـا، وحين بدأ الجيران في الاختفاء، وحين سُـمِعَت الأصوات المُدَوِّية والقبيحـة التي وصفها شـقيقها بأنها أصوات "الرعد". كان ذلـك في عام 1994، وفي غضـون 100 يـوم، قتل أكثر من 800,000 شـخص في رواندا، وتشـرّد الملايين. هربـت كليمنـتين مـع شـقيقتها كلير التي كانـت في الخامسـة عشـرة من عمرها، وقضتا السـنوات السـت التاليـة متنقلتين بين سـبع دول إفريقيـة بحثًا عن الأمان. الاختبـاء تحـت الأسِرَّة، والبحـث عـن الطعـام، والنجـاة والفـرار مـن مخيمـات اللاجـئين، واللطـف غير المعهـود، ومشـاهدة أحداث قاسـية لا يمكـن تخيلها. لم تكن الفتاتان تعرفان ما إذا كان والداهما على قيد الحياة أم لا.

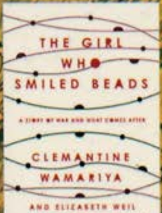

بأسـلوب جميل وسـاحر، تسـلط الفتـاة -التي تنثر ابتسـامتها الخرز أينمـا مشـت- الضـوء علـى التكاليـف الحقيقيـة وآثار الحـرب: مـا يُفقد إلى الأبـد، ومـا يمكن إصلاحه، وهشاشـة الذاكـرة وأهميتهـا، والإيمان بأنه يمكن للمـرء أن يتعلم مرة أخرى كيف يحب نفسه، حتى مع وجود ندوب عميقة.

غـــلاف: محـمود هشام

مكتبة
t.me/soramnqraa

عصير الكتب

www.aseeralkotb.com
contact@aseeralkotb.com
aseeralkotb
aseeralkotb
aseeralkotb